

الوفود والسفارات

في الجاهلية وعصر الرسول (ص)

د. نبيه عاقل

آ - الوفود والسفارات قبل الاسلام :

يقول ابن منظور في « لسان العرب » في باب « سفر » ما نصه : « . . سَفَرْتُ بين القوم أَسْفِرُ سفارة أي كشفت ما في قلب هذا وقلب هذا لاصلاح بينهم . . . والسفير : الرسول والمصلح بين القوم ، والجمع سفراء ، وقد سَفَرَ بينهم يُسَفِّرُ سَفْراً وسِفارة وسَفارة : اصلح .

وفي حديث علي أنه قال لعثمان : ان الناس قد استسفروني بينك وبينهم أي جعلوني سفيراً ، وهو الرسول المصلح بين القوم . يقال : سفرت بين القوم اذا سعت بينهم في الاصلاح .» .

وعندنا ان هذا التعريف « للسفارة » الذي ينطوي على السعي بالصلح بين فريقين متخاصمين ينطبق بشكل أمثل على ما كان يحدث قبل الاسلام من قيام بعض الرجال من ذوي الجاه والمكانة في قومهم بالمسير بين قبيلتين أو جماعتين استشرت الخصومة بينهما ووقعت بينهما الدماء ، فقام بعض ذوي الحكمة والتعقل وسعوا لوضع حد لهذا الحال المفجع ولحقن الدماء . . . ويبدو أن نهاية القرن الخامس وبداية القرن السادس الميلاديين في الجزيرة العربية كانت فترة اتسمت بالصراع الدموي بين القبائل بسبب عوامل عديدة قد يكون من بينها شح الارض بالقوت والماء والكلا ، فلا يجدون الا الغارة على جيرانهم وسيلة للقيام بأودهم واود اولادهم ، وادى ذلك الى كثرة الحروب ، وما تستتبعه هذه الحروب من ثارات ، وما يترتب على الثارات من معارك جديدة . هذا فضلا عن التنافس على السيادة والزعامة والجاه الذي جر الى الكثير من الحروب وأريققت في سبيله الدماء الغزيرة . ولا اظن أن حديث داحس والغبراء بين عيس وذبيان سوى مظهر من مظاهر هذا التنافس والصلف الجاهلي المقيت الذي أدى الى ازهاق العديد من الارواح البريئة ، فعيس وذبيان ، كما هو معلوم ، اولاد عم ينتمون الى غطفان ويعيشون متجاورين ، وتربطهم روابط الود والاخاء ، وقد ظل حالهم كذلك حتى اشتعلت الحرب بينهم بسبب المراهنة بين سيد عيس ، قيس بن زهير ، وسيد فزارة من ذبيان . حذيفة بن بدر ، أثناء سباق

بين فرس الاول المسمى داحس ، وحجر الثاني المسمى الغبراء . فقد نصب جماعة حذيفة كميناً ليردوا داحساً عن الفاية فتسبق الغبراء . وحين تم الذي خطط له حذيفة وطالب بالرهان البالغ مائة ناقة ، رفض قيس وأصر أن فرسه كان السابق فنشبت الحرب التي عرفت باسم حرب داحس والغبراء أو حرب السابق التي استمرت أربعين سنة واستقطبت تحالفات قبلية جديدة ، وكان من أبطالها الفارس المشهور عنتر بن شداد ، وقد دفعت ويلات هذه الحرب سيدين من ذوي الشهامة والمروءة للتوسط بالصلح بين عبس وذبيان ، وهما هرم بن سنان والحارث بن عوف اللذان خصهما الشاعر زهير بن أبي سلمى بمعلقته الشهيرة ، التي يقول في مطلعها:

امن أم أوفى دمنة لم تكلم

بحومانة الدراج فالمتسلم

وفيهما مديح للسيد بن سعي بالصلح . . وموعظة للكف عن الأحقاد وسفك الدماء .

ان ما قام به هرم بن سنان والحارث بن عوف هو ما ينطبق عليه تعريف « السفارة » الذي نقلناه عن ابن منظور في مطلع هذا البحث . على أن الذي تقصد معالجته في هذه الدراسة هو غير ذلك ، ويهدف الى التعريف بالسفارة بمعناها الدبلوماسي الحديث ، أي البعثة ذات الصفة الرسمية التي تقوم سلطة مسؤولة بإيفادها لاداء مهمة معينة في دولة أخرى . وإذا صح هذا التعريف على الفترة التي تبدأ منذ أن أقام الرسول الكريم صلوات الله عليه الحكومة الإسلامية الاولى في المدينة المنورة وحتى عصرنا الحاضر . فان فترة ما قبل الاسلام حين كان مجتمع الجزيرة العربية يعيش حياة البداوة عرفت هذا النوع من المهمة . ولكن تحت اسم آخر هو « الوفود » .

ولا بد لفهم قضية « الوفود » التي كانت جزءاً من الصلات بين الجماعات القبلية قبل الإسلام أن نذكر أن الضرورات التي دعت الى قيام هذه الصلات تنبع من واقع الجزيرة العربية السياسي في تاريخها السابق لظهور الرسول الكريم . حين كانت السلطة السياسية مفقودة ولا تقوم على أرضها حكومات مسؤولة تجمع شتات هذه القبائل وتوحد حركتها وتوجهها الوجهة السليمة التي تخدم الصالح العام . فكان لابد أن تقوم أعراف وتنظيمات تنبع من واقع الجزيرة ويكون هدفها تنظيم الصلات بين الجماعات القبلية المختلفة . ويمكن حصر الصلات التي قامت بين القبائل في الجزيرة العربية قبل الإسلام في أربع زمر هي : الحلف ، والمساندة ، والمواذعة والوفود . وتشابه عمليات التحالف والمساندة من حيث أنها عقد وتحالف بين

جماعات قبلية مختلفة لأجل محدود أو غير محدود ، لتنفيذ عملية واحدة أو عدة عمليات في ميدان الحرب أو غيره من ميادين العلاقات العامة التي تنظم حياة الناس في الجزيرة العربية قبل الاسلام ، اما المودعة فهي معاهدة سلم تفرض على الاطراف الداخلة فيها عدم القيام بأي اعتداء على بعضها أو الإخلال بالعهد الذي قطعته على نفسها باحترام القبائل الداخلة في عقد المودعة معها . وعلى المتوادعين أن يكفوا عن التفاخر والتغني بأمجادهم ، كما عليهم أن يمتنعوا عن القتال . فالتحالف والمساندة والمودعة اذن ، تتصل ، بشكل أو بآخر ، بما ينشأ بين القبائل من قتال أو سلم بعد هذا القتال ، وهي بهذا تختلف عن « الوفود » وهي المظهر الرابع للصلات بين الجماعات القبلية قبل الإسلام .

إن عادة إرسال الوفود عادة عربية قديمة ، وتتلخص في أن ترسل قبيلة وفودها الى قبيلة اخرى حين يحدث حادث أو يحل أمر جلل . وكمثال على المناسبات التي توفد فيها القبيلة الوفود الى قبيلة اخرى يمكننا أن نذكر ان انتصار قبيلة نصرأ مؤزراً على غيرها هو من المناسبات التي تفتنمها القبائل الاخرى لترسل إليها وفودها مهنئة ومطنة بفعالها وما تم على يديها .

فمن هذا القبيل مثلاً ، ارسال قريش وفداً الى اليمن لتهنئة سيف بن ذي يزن حين حقق نصره على الاحباش . فقد ساء بعض اهل اليمن ، كما هو معلوم ، احتلال الاحباش لارضهم ، فاستنجدوا بالدولة الساسانية التي كان بينها وبين الامبراطورية البيزنطية عداً شديداً . فانجدهم كسرى انو شروان بقوة ابحرت من الخليج العربي ونزلت جنوب اليمن واستطاعت أن تطرد الاحباش منها . وبذلك تحررت اليمن من حكم الاحباش وعين سيف بن ذي يزن حاكماً عليها . لقد اعتبرت قريش ان هذا النصر من الأمور العظيمة التي تستوجب التهنئة فأوفدت رجالها للقيام بهذه المهمة ، وتعتبر هذه البعثة القرشية من أهم السفارات التي أوفدها قريش في فترة ازدهارها الاقتصادي ورفعة مكانتها الدولية التي نجمت عن هذا الازدهار . فقد كان من المهم بالنسبة للمكيين الذين تحتل التجارة مكانة بارزة في حياتهم العامة ان تقوم بينهم وبين السلطة السياسية في اليمن ، الموقع الرئيس على طريق التجارة الدولية آنذاك ، أطيب الصلات حتى يضمنوا استمرار مسير قوافلهم . ولا بد بمناسبة كبرى كمنااسبة زوال الحكم الحبشي الذي هدد مقدساتهم الدينية حين حاول ابرهة ضرب الكعبة واحتلال مكة ، وسعى ما وسعه السعي لأكساد تجارتهم واهلاك أموالهم عن طريق استلاب السيطرة على الطريق التجارية منهم . نقول ، لا بد بمناسبة كبرى كهذه من ان يوفدوا وفودهم مهنئين بخلاص اليمن من الحكم الحبشي .

وكان استقبال الوفود من واجبات رئيس القبيلة ، وعليه ان يستمع الى خطباء

هذه الوفود وشعرائها وان يرد عليها بالشكر والصلات . وفي المصادر أخبار كثيرة عن الوفود التي كانت تقصد بلاط الملوك اللخمين في الحيرة وبلاط الفساسنة في الشام، وعن الصلات والهدايا والاموال التي كانوا يعودون بها ، بعد ان تكرم وفادتهم وتستجاب المطالب التي وفدوا من أجلها . وكان قدوم الوفود على سيد أو ملك دليلاً على مكانته البارزة ورتبته الرفيعة . يقول الطبري في الحديث عن عمرو بن عدي ، الملك الحيري الشهير ، أنه كان « منفرداً بملكه ، مستبدأ بأمره ، يغزو المغازي ، ويصيب الغنائم ، وتفد عليه الوفود دهره الاطول » . وكما كانت القبيلة توفد وفودها الى القبائل الاخرى وبلاطات الملوك العرب، فقد كانت الممالك العربية قبل الاسلام توفد وفودها الى الدول الاجنبية حين تقتضي الضرورة ذلك .

ومن هذا النوع من السفارات السفارة التي أوفدها الملك الحيري عمرو بن هند (٥٥٤ - ٥٧٤ م) الى الامبراطور البيزنطي جوستين الثاني ، اذ تذكر المصادر اثناء بحثها للعلاقات بين مملكة المناذرة ومملكة الفساسنة زمن عمرو بن هند الحيري والحاتر بن جبلة الفساني ان أشهر غزوات عمرو ضد عرب الشام الفساسنة كانت سنة ٥٦٣ م . وتتلخص الاسباب التي دعت الى القيام بهذه الغزوة بأنه في الصلح الذي عقد بين الفرس والروم البيزنطيين سنة ٥٦٢ اشترط الفرس على الروم أن يدفعوا لعرب العراق جزية سنوية مقابل سكوتهم عن مهاجمة عرب الشام الخاضعين للبيزنطيين . ولكن الروم رفضوا أن يدفعوا ما اتفقوا عليه ، فطالب عمرو من الفرس ان يساعده في غزو الشام ، ولكنهم تمهلوا وتباطأوا في الرد عليه ، فما كان منه إلا أن هاجم الفساسنة ، واعادة الكرة سنة ٥٦٦ و ٥٦٧ . وكان قائد جيوشه في هاتين الغارتين الاخيرتين اخوه قابوس . والسبب الذي يقدمه المؤرخون لغزوتي ٥٦٦ و ٥٦٧ هو ان عمرا أرسل رسولا الى الامبراطور البيزنطي جوستين الثاني لمفاوضته على دفع الاتاة السنوية ، ولكن الامبراطور البيزنطي عاملهما معاملة سيئة ، فقام قابوس بهاتين الغزوتين بناء على أمر أخيه ، انتقاماً لشرف المبعوثين الحيريين . وهكذا فقد كانت الدولة تحرض على كرامة مبعوثيها ولا تتردد في شن الحروب وسفك الدماء لرد اعتبارهم ، لأنهم يمثلون الدولة التي أوفدتهم واهانتهم اهانة لها .

ويمكن اعتبار سفر امرئ القيس بن حجر بن الحارث الى القسطنطينية اثناء سعيه الحثيث للاخذ بثار أبيه حجر من بني أسد ، من السفارات الخارجية التي تمت بين الممالك العربية قبل الاسلام والدول الاجنبية ، وذلك لانها تمت بعد وساطة السموال بن عدياء عند الحارث بن أبي شمر الفساني ليكون وسيلة امرئ القيس الى الامبراطور البيزنطي جستنيان . وقام الحارث بمراسلات مع الامبراطور جستنيان انتهت بقرار امرئ القيس أن يسافر الى القسطنطينية حيث استقبل كمندوب عن الحارث بن أبي شمر ، وانزل في قصر من قصور الامبراطور وعومل كما

يعامل المبعوثون الرسميون ، وقرر الامبراطور ان يرسل معه جيشا ينصره على بني أسد . ولكن حدث ما عكر صفو العلاقات بينه وبين جستنيان حين نمي الى هذا الاخير أن علاقة حب قامت بين امرئ القيس وابنته ، وان امرا القيس يأتيها وتأتيه . فامتلات نفسه غيظا وعزم على الانتقام منه ، فبعث اليه بحلة وشي منسوجة بالذهب ولكنها مسمومة فلما لبسها اسرع السم في جسمه وسقط جلده ، فسمي بذي القروح ، ولما وصل الى أنقرة من بلاد الروم وهو في طريق عودته الى بلاده مات متأثرا بقروحه ودفن هناك . وقد اعتبر الحارث الفسائي نفسه ولي امرئ القيس وله الحق في ارثه وطالب السموال بما كان اودعه امرؤ القيس عنده من دروع . فأبى السموال تسليم ما بعهدته ودفن ثمن وفائه حياة ابنه فضرب بذلك المثل .

والى جانب هذا النوع من السفارات التي كانت تقوم بين الممالك العربية قبل الاسلام والدول الاجنبية ، كانت هناك وفود وسفارات تبعث بها قريش الى القبائل والممالك العربية داخل حدود الجزيرة ، والى الدولتين العظميين ، فارس وبيزنطة ، وذلك لامور تتعلق بتجارتهما ، أو لعقد الايلافات والمعاهدات مع هذه القبائل أو الممالك لاغراض مماثلة وتذكر الروايات العربية أنه كانت لأولاد عبد مناف الأربعة علاقات تجارية مع مراكز التجارة الدولية آنذاك وكانوا موفدي قبيلتهم الى بعض هذه المراكز لعقد ايلافات وتحالفات بقصد تنظيم العمليات التجارية بين مكة وهذه البلدان من جهة ، ولضمان ابعاد أية منافسة للسيادة أو الاحتكار المكي للتجارة مع هذه البلدان من جهة ثانية ، فقد توجه عبد شمس الى الحبشة موفدا من قومه لعقد معاهدة تجارية مع الاحباش . واستطاع عبد شمس أن يحقق الهدف من بعثته وأن يقيم علاقات ود وصداقة مع هذه الدولة . وقام هاشم ببعثة مماثلة الى سورية وحقق بعثته لقومه نفس النتائج ، وكذلك فعل عبد المطلب مع اليمن ونوفل مع العراق ، وعادا بعد أن كللت مهمتهما بالنجاح .

ان المتفحص لهذه البعثات والوفود يجد أنها تمثل ما يمكن وصفه بالصلات الخارجية العربية والدولية بالنسبة للقبائل والدول العربية قبل الاسلام . وكانت على ما يتضح من الأمثلة القليلة التي قدمناها مظهرا من مظاهر سيادة القبيلة واثباتها لوجودها في المحيطين : المحلي والدولي . كما يمكن اعتبارها في كثير من الاحيان ضرورة لا بد منها لاستمرار وجودها السياسي والاقتصادي، أو لتثبيت سيادتها وضمان عدم الاعتداء عليها .

ويعتبر المبعوث ممثل قبيلته أو دولته ويتمتع بحرمة ورعاية من أوفد إليهم، ويعتبر إكرامه وحسن وفادته اكراماً للجهة التي أوفدته كما أن اهانه أو المس بكرامته مسا بكرامتها يقتضي منها الثأر لما لحق بها من عار . ويحدثنا السعودي في كتابه

«مروج الذهب» عن قدوم عبد المطلب بن هاشم مع وفد من قومه على معد يكرب بن سيف ابن ذي يزن مهنئاً بالملك ويقول: « وأنت معد يكرب الوفود من العرب تهنيه يعود الملك اليه واشراف العرب وزعمائوها ، وفيهم عبد المطلب بن هاشم بن عبد شمس بن عبد مناف ، وخويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي ، وأبو زمعة جد أمية بن أبي الصلت الثقفي فدخلوا اليه وهو في أعلى قصره بمدينة صنعاء المعروف بغمدان ، وهو مضمخ بالعنبر ، وسواد المسك يلوح على مفرقه ، وسيفه بين يديه ، وعلى يمينه ويساره الملوك وأبناء الملوك وأبناء المقاول . فتكلمت الخطباء ، ونطقت الزعماء ، وقد تقدمهم عبد المطلب ابن هاشم ، فقال عبد المطلب : ان الله جل جلاله قد أحلك ، أيها الملك ، محلاً رفيعاً ، صعباً منيعاً ، شامخاً باذخاً . . ، فانت ، أبيت اللعن ، رأس العرب وربيعها الذي تخضب به ، وأنت أيها الملك ، ذروة العرب الذي له تنقاد . . ، أيها الملك ، نحن أهل حرم الله وسدنة بيته ، أشخصنا إليك الذي أبهجنا من كشف الكرب الذي فدحنا ، ونحن وفد التهئة لا وفد المرزئة . فقال له الملك : وأيهم أنت أيها المتكلم ؟ قال : أنا عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف فقال الملك معد يكرب بن سيف : ابن أختنا ؟ قال : نعم . قال : ادنوه مني ، فأدني ، ثم أقبل عليه وعلى الوفد ، فقال لهم : مرحباً وأهلاً ، وناقة ورحلاً ، ومستنأخ سهلاً ، يعطي عطاء جزلاً ، قد سمع الملك مقالكم وعرف قرابتكم ، وقبل وسيلتكم ، فانتهم أهل الليل والنهار ، لكم الكرامة ما اقمتم ، والحباء إذا ظعنتم » . ولما انتهت مراسيم الاستقبال والضيافة ، وحن موعد انصرافهم اعطاهم العطايا وحملهم ما يليق من هدايا ومتاع . ومعد يكرب في هذا ، لا يكرم أشخاصهم فحسب ، بل يكرم الجهة التي جاؤوا يمثلونها . وبالمقابل ، فان اهانة الوفد اهانة للجهة الموفدة وتقتضي الثأر لرد الاعتبار . وكان لبعض ملوك الفرس تراجمة من العرب يكونون الى جانبهم أثناء استقبالهم الوفود العربية التي تأتي الى بلاطاتهم . فمن المعروف مثلاً أن عدي بن زيد العبادي كان ترجمان كسرى ابرويز يترجم له اذا وفد عليه زعماء العرب ، فلما قتل عدي على يد النعمان بن المنذر خلفه في هذا المنصب في بلاط ابرويز زيد بن عدي ، الامر الذي يؤخذ منه اهتمام الاكاسرة بهذه الوفود وتهئية الاختصاصيين لاستقبالها واقامة الحوار معها .

ولعل أهم هذه الوفود وأكثرها خطراً كانت تلك التي تقوم بمفاوضات لعقد الايلافات أو المعاهدات التجارية مع الدول الاجنبية ، ويسمى ابن حبيب السكري ، صاحب « المحبر » رجالات هذه الوفود بـ « أصحاب الايلاف » ويقول عنهم أنهم : « من قریش الذين رفع الله بهم قریشاً ونعش فقرأها » . وهم : هاشم ، وعبد شمس والمطلب ونوفل ، بنو عبد مناف . وكان متجر هاشم الى الشام ، ومتجر عبد شمس الى الحبشة ، ومتجر المطلب الى اليمن ، ومتجر نوفل الى العراق .

وفي الحديث عن الاسلوب الذي اتبعه هاشم حتى توصل لعقد الايلاف مع

قيصر ، يذكر اليعقوبي ان تجارة قريش كانت لا تعدو مكة ، فكانوا في ضيق « حتى ركب هاشم الى الشام ، فنزل بقيصر ، فكان يذبح كل يوم شاة ، ويضع جفنة بين يديه ، ويدعو من حواليه . وكان من أحسن الناس وأجملهم ، فذكر لقيصر ، فأرسل اليه ، فلما رآه وسمع كلامه ، أعجبه وجعل يرسل اليه ، فقال هاشم : أيها الملك ، ان لي قوماً ، وهم تجار العرب ، فتكتب لهم كتاباً يؤمنهم ويؤمن تجارتهم حتى يأتوا بما يستطرف من ادم الحجاز وثيابه ، ففعل قيصر ذلك ، وانصرف هاشم ، فجعل كلما مر بحي من العرب أخذ من اشرافهم الايلاف بأن يأمّنوا عندهم وفي أرضهم ، فأخذوا الايلاف من مكة والشام » . وفي هذا الحديث ما يفصح عن الاسلوب اللبق الذي استخدمه هاشم ليجلب اليه انظار قيصر حتى استدعاه اليه ، فحدثه بالمهمة التي جاء من أجلها وما يهدف اليه من قدومه الى بلاد الشام ، فتكللت مساعيه بالنجاح وعاد الى بلده بعد أن منحه قيصر ما أراد من عهد ، ولم يكتف بذلك بل التفت الى تنظيم علاقات قوافل قومه بالقبائل التي تنزل الطريق بين مكة والشام ف عقد معها الايلاف ليضمن الامن للقوافل المكية في حلها وترحالها ، وهو ليس بالامر السهل اليسير . وقد كان ما أنجزه هاشم في سفارته هذه من الأهمية لقومه لدرجة أنه حين مات « جزعت قريش وخافت أن تغلبها العرب » فهب عبد شمس الى نجاشي الحبشة ليجدد العهد بينه وبينه ، وخرج نوفل الى العراق ليأخذ عهداً من كسرى ، حتى تحكم قريش الطوق وتضمن السلامة والأمن لقوافلها في جميع الأسواق المجاورة . وفي هذا المثل ما يكفي لايضاح الأهمية التي كانت توليها القبائل لهذا النوع من السفارات في أمور معاشها ودنياها ، الأمر الذي يعتمد اعتماداً رئيسياً على براعة المسؤول عن السفارة وحنكته ومعرفته بسياسة الأمور .

وطبيعي أن تكون هذه الوفود والسفارات منسجمة وواقعة المجتمع العربي قبل الاسلام وحاجاته وأعرافه وتقاليده والغايات التي ترجى منها ، وطبيعي أيضاً أن تتغير هذه الصورة بعد قيام الاسلام حين تغيرت أهداف المجتمع وطبيعته والمثل التي تنتظم حياة الناس الذين يعيشون في ظله .

ب - الوفود والسفارات في عصر الرسول (ص) :

معلوم أنه حين تنزل الاسلام على قلب الرسول الكريم (ص) ، فشا ذكره بمكة وتحدث عنه الناس ، وأخذ بعضهم يدخل فيه ، وبعد أن مضى على مبعث محمد صلوات الله عليه ثلاث سنين أمر الله عز وجل نبيه أن يصعد بما جاءه منه وأن يدعو الناس بدعوة الإسلام . وكان الرسول قبل ذلك ، أي خلال السنوات الثلاث الأولى من مبعثه ، يدعو الى الله في السر ، وقد جاءه الأمر بعلنية الدعوة في الآية الكريمة « فاصدع بما تؤمر ، وأعرض عن المشركين » ، وفي قوله تعالى : « وأنذر عشيرتك الاقربين .. » .

فما كان من الرسول الكريم إلا أن نقل دعوته من مرحلة السر الى مرحلة العلن . وكانت القلة التي آمنت بالرسول في الفترة السرية تمارس شعائرها الدينية في الخفاء وبمناى عن أعين قريش . ويذكر المؤرخون أن قريشاً لم تعلن العداء الجدي لمحمد في بداية مرحلة الدعوة العلنية ، وانها لم تفعل ذلك إلا حين عاب آلهتها وذكرها بسوء ، فحينئذ وقعت قريش ضده وأعلنت عليه الحرب العوان في كل مجال . ويشرح لنا عروة ابن الزبير هذا الأمر في رسالة يقال انه بعث بها الى عبد الملك بن مروان ردأ على رسالة من عبد الملك يستفسر منه عن قضايا تتعلق بفترة صدر الإسلام . ومما قاله عروة في هذه الرسالة التي ينقلها لنا الطبري : « أما بعد ، فانه » يعني رسول الله صلى الله عليه وسلم « لما دعا قومه لما بعثه الله من الهدى والنور الذي أنزل عليه ، لم يبعدوا منه أول ما دعاهم ، وكادوا يسمعون له ، حتى ذكر طواغيتهم . وقدم ناس من الطائف من قريش لهم أموال أنكروا ذلك عليه ، واشتدوا عليه ، وكرهوا ما قال لهم ، وأغروا به من اطاعهم ، فانصفق عنه عامة الناس ، فتركوه إلا من حفظ الله منهم ، وهم قليل » . ولسنا هنا في مجال مناقشة أسباب ودوافع المعارضة القرشية للرسول الكريم (ص) ، كما أننا لا ننوي استقصاء المظاهر المادية والمعنوية الفظيعة لهذه المعارضة، لانها ليست مجال بحثنا ، ولكننا نود القول أن هذه الحال اقتضت من الرسول تحركاً على الصعيدين الداخلي والخارجي للدفاع عن الدعوة من جهة ، وللإبقاء على عزيمة من أسلم والحفاظ على حياته ولاكتساب أنصار جدد لصفوف الدعوة من جهة أخرى . وكل هذا يوصلنا الى موضوع الوفود والسفارات في عهد الرسول الكريم .

طبيعي أن تكون محاولات الرسول (ص) الاولى لرد هذه الهجمة التي تعرض لها من قومه منصبة على تقوية صفه الداخلي واستنفار القوى المؤيدة له لتقف الى جانبه في هذه المحنة . وقد استغل الرسول هذا الجانب أحسن استغلال ففشلت محاولات القرشيين في شق الصف الهاشمي ، وعادوا من زيارتهم لعمة أبي طالب التي أرادوا من ورائها أن يسلبوه ما كان يمنحه عمه اياه من دعم وتأيد ، بخيبة أمل كبيرة . كما فشل أسلوبهم في المقاطعة الاقتصادية والاجتماعية التي فرضوها على بني هاشم ، وانتهى الامر بشق صحيفة المقاطعة وعودة بني هاشم الى دورهم ، بعد أن كلفتهم المقاطعة ثمناً غالياً كان أفدحه وفاة أبي طالب عم النبي ، وخديجة بنت خويلد زوجه وسنده القوي .

وتذكر المصادر أنه حين اشتد أذى قريش على المسلمين وخاف الرسول أن يؤدي هذا الى فتنتهم عن دينهم ، وهو لا يقدر أن يمنعهم مما هم فيه من البلاء ، قال لهم : « لو خرجتم الى أرض الحبشة فان بها ملكا لا يظلم عنده أحد ، وهي أرض صدق ، حتى يجعل الله لكم مخرجاً مما أنتم فيه » . وقد استجاب لنصيحة الرسول الكريم

هذه بعض المسلمين ، فخرجوا متسللين سرا حتى انتهوا الى الشعبية (ميناء مكة) حيث ركبوا سفنا لبعض التجار حملتهم الى أرض الحبشة مقابل نصف دينار عن كل شخص .

وكانت هذه الهجرة في شهر رجب من السنة الخامسة لمبعث الرسول . ولما علمت قريش بأمر الهجرة ورات أنهم آمنوا واطمأنوا بأرض الحبشة ، وانهم قد أصابوا بها دارا وقرارا ائتمروا بينهم أن يبعثوا الى النجاشي رجلين منهم جلدین ، ليرد من قبله من المسلمين . فبعثوا عبد الله بن أبي ربيعة وعمر بن العاص ليقوما بهذه المهمة . وهذه السفارة هي أول سفارة عربية في الفترة التالية لنزول الاسلام على قلب الرسول الكريم . ويورد ابن هشام في سيرته وصفا دقيقا لأخبار هذه السفارة نقده فيما يلي : « قال ابن اسحق : حدثني محمد بن مسلم الزهري . . عن أم سلمة بنت أبي أمية بن المغيرة زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قالت : لما نزلنا أرض الحبشة جاورنا بها خير جار النجاشي ، أمنا على ديننا ، وعبدنا الله تعالى لا نؤذي ولا نسمع شيئا نكرهه ، فلما بلغ ذلك قريشا ائتمروا أن يبعثوا الى النجاشي فينا رجلين منهم جلدین ، وأن يهدوا للنجاشي هدايا مما يستطرف من متاع مكة ، وكان من أعجب ما يأتيه الادم . فجمعوا له أدما كثيرا ، ولم يتركوا من بطارقه بطريقا الا أهدوا له هدية ، ثم بعثوا بذلك عبد الله بن أبي ربيعة وعمر بن العاص ، وأمرهما بأمرهم ، وقالوا لهما : ادفعا الى كل بطريق هديته قبل أن تكلمنا النجاشي فيهم ، ثم قدما الى النجاشي هداياه ، ثم أسأله أن يسلمهم اليكما قبل أن يكلمهم . قالت : فخرجنا حتى قدما على النجاشي . . فلم يبق من بطارقه بطريق إلا دفعا اليه هديته قبل أن يكلمنا النجاشي ، وقالوا لكل بطريق منهم : أنه قد ضوى الى بلد الملك منا غلمان سفهاء ، فارقوا دين قومهم ، ولم يدخلوا في دينكم وجأوا بدين مبتدع ، لا نعرفه لا نحن ولا أنتم ، وقد بعثنا الى الملك فيهم أشراف قومهم ليردهم اليهم ، فاذا كلمنا الملك فيهم ، فأشيروا عليه بأن يسلمهم الينا . . » . وبعد أن أحكم الوفد القرشي المؤامرة مع البطارقة وكبار رجالات الدولة الحبشية ، قابل النجاشي وسلمه الهدايا وحدثه بحديث المسلمين اللاجئين اليه وطلب تسليمهم لاعادتهم الى قومهم . وكان رد النجاشي انه غير مستعد لتسليم أناس لجأوا اليه دون أن يسمع دفاعهم عن أنفسهم . وبعد حوار شرح فيه المسلمون اللاجئين الى النجاشي حالهم قبل نزول الاسلام على قلب الرسول الكريم وما آل اليه مجتمعهم نتيجة الفوضى والجهالة والظلم الاجتماعي الذي كان يحيق بالمحرومين بسبب استغلال المستغلين وتسلط طبقة كبار التجار وتفشي الربا والاقراض بالفوائد الفاحشة وما شابه . هذا فضلا عن عبادتهم للأوثان وتوقعهم الى معرفة الله خالق الكون وفاطر السموات والأرض . كما بينوا له الانقلاب الذي أحدثه الاسلام في حياتهم بسيرة صاحبه وبالمبادئ التي دعا اليها وبالمثل التي

حث اتباعه على السير على هديها . ولما انتهوا من شرحهم هذا بكى النجاشي حتى اخضلت لحيته وبكت اساقفته ، وقال لهم النجاشي : « ان هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة » . والتفت الى المبعوثين القرشيين وقال لهما : « انطلقا ، فلا والله لا اسلمهم اليكما » .

فشلت سفارة قریش هذه كما رأينا ، وعاد المبعوثان الى قومهما دون أن يحققا الهدف الذي بعثهما قومهما من أجله . وانتقل العمل الدبلوماسي بين الفريقين : القرشي والمسلم ، الى مرحلة جديدة ، هي مرحلة اكتساب الأنصار في الداخل . ومن أجل هذا كانت رحلة الرسول الكريم الى الطائف ، وحديثها معروف ، كما كان أمر « المقتسمين » الذي يمكن أن يدخل ضمن دراستنا هذه عن الوفود والسفارات .

وحديث « المقتسمين » ، كما يتضح مما يرد في القرآن الكريم يستفاد منه أنه كانت هناك فئة من معارضي الرسول صلوات الله عليه تدعى « المقتسمون » ، ورد ذكرها في قوله تعالى مخاطبا رسوله : « وقل اني انا النذير المبين ، كما انزلنا على المقتسمين ، الذين جعلوا القرآن عضين ، فوربك لنسألنهم أجمعين » . وتذكر كتب التفسير أن « المقتسمين » هم الذين اقتسموا طرق مكة فكانوا يقفون فيها يصدون الناس عن الاسلام ، وقال بعضهم : في القرآن سحر ، وقال آخرون : فيه كهانة ، وقال بعضهم : انه من عمل شاعر . اما ابن حبيب في كتابه « المحبر » ، فيذكر أنهم كانوا « سبعة عشر رجلا من قریش ، اقتسموا أعقاب مكة ، فكانوا اذا حضروا الموسم يصدون الناس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . وفيهم نزلت : « كما انزلنا على المقتسمين » . ويقول ابن حبيب ان الرسول حين علم بأمر المقتسمين أخذ يرسل شخصا من أصحابه يقف الى جانب الشخص الكافر الذي يصد الناس عن الدعوة الى الاسلام ، فاذا أخذ المشترك يشتم الاسلام ورسوله ويتقول عليه الكذب ، ينبري الشخص المسلم للدفاع وتفنيد أكاذيب المشرك وبيان فضائل الاسلام وجهالة الشرك وعبادة الأوثان .

ان هذه العملية هي نوع من السفارة الاسلامية الى القبائل القادمة الى مكة لأداء فريضة الحج ، للوقوف في وجه سفارة قرشية الى هذه القبائل تحاول صدها عن الاسلام بتشويهه والتقول عليل والاقلال من قدر نبينه والافتراء على المبادئ السامية التي يدعو اليها . وكانت عملية « المقتسمين » ردا قرشيا على مبادرة الرسول الكريم بعد عودته من الطائف بالاتصال بأفراد القبائل المختلفة التي تزور مكة أثناء موسم الحج وعرض دعوته عليها . ويذكر ابن اسحق أن أبا لهب كان يتبع الرسول في جولاته هذه ، فما يكاد يفرغ من شرح أصول الاسلام ويبين أهم تعاليمه ، حتى يقف أبو لهب فيقول للناس : « يا بني فلان ، ان هذا انما يدعوكم أن تسلخوا اللات والعزى من اعناقكم ، الى ما جاء به من البدعة والضلالة ، فلا تطيعوه ، ولا تسمعوا منه » .

ان عملية ارسال الوفود الى القبائل من جانب قريش اثناء موسم الحج ، والوفود الاسلامية المضادة الى هذه القبائل ، تمثل جانباً من المهام الجسام التي كانت تلقى على كاهل الوفود ، كما تمثل اعتماد القبائل للوفود كممثلين عنها في شرح وجهات نظرها فيما يعرض لها من أمور . ولعل أهم مجال ظهرت فيه أهمية الوفود في هذه الفترة هو المفاوضات التي أجراها الرسول الكريم مع وفد من أهل يثرب وأدت الى أكبر حدث في تاريخ الاسلام ، ألا وهو الهجرة الى المدينة التي كانت نقطة التحول الاساسية في تاريخ الدعوة الجديدة . وليس المهم في هذا البحث أن ندخل في تفاصيل المفاوضات بين الوفود اليثرية والوفد الاسلامي برئاسة الرسول الكريم في بيعتي العقبة الاولى والثانية والتي انتهت بالاتفاق على عقد البيعة وشروطها ، ولكن لا بد من الإشارة الى أن أسلوب التفاوض عن طريق الوفود كان السبيل التي اعتمدها صلوات الله عليه في مسيرته من أجل تحقيق هدفه في اقامة دولة الاسلام واستقطاب العرب حوله . ويبدو لنا اعتماده هذا الأسلوب بشكل واضح بعد غزوة أحد ، اذ ظهر فشل المشركين جلياً في تحقيق نصر حاسم على الرسول والاسلام بشكل عام ، ووجد أبو سفيان وصحبه أنفسهم في وضع حرج ما لم يقوموا بعمل حاسم ضد محمد (ص)، وانهم هالكون لا محالة . واعتمدت خطتهم الجديدة في محاربة الرسول على تأليب القبائل عليه بعد أن جمعوا من مكة كل قادر على حمل السلاح ، دون أن يوصلهم ذلك الى تحقيق نصر حاسم على المسلمين . فسارت وفودهم الى القبائل البدوية الكبيرة الضاربة في شرقي وشمال شرقي المدينة ليقنعوها بضعف محمد (ص) وصحبه ، ووعدوا بالفنائم الكبيرة التي ستحصل عليها اذا ما ساهمت في العمليات العسكرية ضده . وقد توجهت الوفود القرشية هذه الى قبائل سليم وغطفان وبني ضمره وغيرهم من أجل هذا الهدف . وكان الرسول بالمقابل يتابع تحركات هذه الوفود ومقاصدها وأساليبها . وكانت سياسته بعد أحد وخلال السنتين التاليتين لهذه المعركة تهدف لمنع أي تحركات عدائية توجه ضد المدينة ، وذلك عن طريق بث العيون والأرصاد حول عاصمته لإخباره بكل التحركات الدعائية المكيّة لمواجهتها بتحركات مضادة ، من جهة أخرى . وكان الرسول أيضاً يستقبل وفود القبائل التي أخذ ذكره يفشو بينها فتود أن تتعرف عليه وعلى دعوته عن قرب ، ويقوم هو بالمقابل بارسال الوفود اليها ليسمعها كلمة الاسلام . ومن هذا القبيل كان استقباله لعامر بن مالك بن جعفر أبي البراء الملقب بملاعب الاسنة ، أحد سادة بني عامر . وحديث هذه الزيارة والوفد الذي أرسله الرسول الى العامريين كما يرويه لنا ابن سعد في « طبقاته » ، والواقدي في « مغازيه » ، وابن هشام في « سيرته » ، يتلخص في أنه في صفر على رأس ستة وثلاثين شهراً من هجرة الرسول الى المدينة قدم على محمد (ص) ، عامر بن مالك هذا ، وأهداه قرسين وراحلتين فرفض الرسول (ص) قبول هذه الهدية ، وقال له : لا أقبل هدية مشرك . وعرض عليه الاسلام ، فرفض بسبب مركزه في قومه ، ولكنه أظهر ودا

وعطفاً على الإسلام ، وقال للرسول : يا محمد ، اني أرى أمرك هذا أمراً حسناً شريفاً ، وقومي خلفي ، فلو أنك بعثت نفرأ من أصحابك معي لرجوت أن يجيبوا دعوتك ويتبعوا أمرك . فقال له الرسول : اني أخاف عليهم أهل نجد . فقال عامر : لا تخف عليهم ، أنا لهم جار ان يعرض لهم أحد من أهل نجد . وكان عامر ، كما اسلفنا ، من سادة بني عامر . فوافق الرسول على فكرته وندب أربعين رجلاً من رجاله وعلى رأسهم المنذر بن عمرو الساعدي للذهاب الى نجد والدعوة فيها بدعوة الاسلام . واعطى الرسول الى المنذر كتاباً ليقراه على أهل نجد ، وأمرهم بالسير لما ندبوا له . فخرجوا حتى نزلوا بئر معونة ، وهي بين أرض بني عامر وحرّة بني سليم . فلما نزلوا ، بعثوا بكتاب رسول الله (ص) الى عامر بن الطفيل ، أحد رجالات بني عامر . فلما جاءه الكتاب ، لم ينظر فيه ، ووثب على رسول الوفد الاسلامي فقتله ، ثم استصرخ قومه العامريين للخروج معه لقتل بقية رجال الوفد الاسلامي . ولكن بني عامر رفضوا طلب ابن الطفيل وذلك لأن عامر بن مالك أخبرهم بأنه أجار المسلمين ، فأبوا أن يخفروا جوار سيد من ساداتهم . ولما أبت بنو عامر على عامر بن الطفيل استصرخ عليهم قبائل بني سليم فنفروا معه وأجابهوه الى طلبه ، واعتدوا على الوفد الاسلامي وقتلوه عن آخرهم ما عدا رجلين منهم هما عمرو بن أمية الضمري وكعب بن زيد . وعاد عمرو بن أمية الضمري الى المدينة ليخبر الرسول بما جرى لصحبه في بئر معونة . وفي طريقه اليها صادف رجلين من بني عامر ، كانا في زيارة للمدينة ولهما من رسول الله أمان ، فقتلهما انتقاماً لأصحابه دون أن يعلم بأمان رسول الله لهما . ولما قدم ، وقص على الرسول قتله للعامريين أنبه الرسول لفعلته ، وقال له ، بشئ ما صنعت ، قد كان لهما مني أمان وجوار ، لأدينهما (أي علي دفع ديتهما) . وبعث الرسول فعلاً بديتهما الى قومهما ، وعاملهما على أساس أنهما حرين مسلمين .

والذي يثير الانتباه في أمر العامريين القتيلين أن الرسول أرسل بديتهما الى أهلها لأن لهما أماناً منه ، في حين أنه لم يطالب بدية ثمانية وثلاثين قتيلاً من صحبه كان لهم أيضاً أمان من سيد عامري . ولعل الرسول أراد من ذلك أن يظهر للقبائل المختلفة احترامه لقضية الجوار والعقد وتمسكه به حتى ولو لم يتمسك بهما خصومه . ويوضح لنا هذا الحديث الذي تورده لنا المصادر عن وفد الرسول الى بني عامر ، انه في هذه المرحلة من مراحل العمل الدؤوب الذي كان يقوم به الرسوم الكريم من أجل نشر الاسلام واقامة دولته ، كان يعتمد أسلوب استقبال الوفود وبعثها الى الجهات المختلفة أساساً في تحركه على الصعيد العربي ، ويوليه اهتماماً كبيراً ويقدم له من الضمانات والمبادئ الكريمة التي كانت تسود مجتمع الجزيرة من وفاء بالعهد واحترام للجوار واعتماد الحوار القائم على الاقناع أسلوباً للوصول الى التفاهم . حتى أنه حين عومل وفده معاملة تخلو من هذه المبادئ فتعرض أفرادها للقتل ، لم يشأ أن

يقابل الاساءة بالاساءة ، ودفع ديتي القتيلين العامريين لانهما قتلا ولهما امان منه ، رغم ان قاتلهما لم يكن يعرف بهذا الامان ، وقتلهما ثارا لإخوانه الذين كانوا ضحية غدر ولؤم يتنافيان مع كل أعراف الجوار واستقبال الوفود .

وتكرر حادث بئر معونة في مناسبة أخرى هي يوم الرجيع ، حين تعرض وفد اسلامي آخر أرسله الرسول الى قبائل عضل والقارة للدعوة للاسلام لفدر رجال من هاتين القبيلتين . ولم يفت هذا الحادث في عضد الرسول واستمر في اعتماد أسلوب الوفود وسيلة لمحاوة قريش والقبائل الاخرى في سبيل نشر دعوته وتحقيق اهدافه . ويتجلى هذا الاسلوب في حوارهم مع قبائل اليهود ، ولا سيما في غزوة الخندق اذ استطاع عن طريقه ايقاع الفرقة بين يهود بني قريظة وبين قريش ، فهدمت عناصر المؤامرة واستطاع الصف المسلم ان يربح بصموده وبسالته والتكتيك الحربي الذي اتبعه (الخندق الذي احاط به المدينة) ، ان يحول المعركة لصالحه ويربحها .

ويبدو اعتماد الرسول أسلوب الوفود أيضا في الازمة التي وقعت بينه وبين قريش حين قرر وصحبه القدوم الى مكة من أجل أداء العمرة ، او ما يعرف عادة باسم « صلح الحديبية » . وبالرغم من اننا لا نريد لهذا البحث أن يدخل في متاهة التفاصيل التي لا علاقة لها بموضوع الوفود والسفارات ، فان الدور الذي لعبته الوفود من الجانبين : المسلم والقرشي ، كان له الفضل الاول في تحقيق هذا الصلح . فقد جرعت قريش حين عرفت بقدوم الرسول وصحبه لأداء العمرة ، وقررت منعه من تحقيق هدفه وحين نزل بالحديبية أرسلت اليه رسلا لاقتناعه بالعدول عن دخول مكة ، وليبيان الاخطار التي تنتظره اذا ما أصر على موقفه . وكان على رأس الوفد القرشي عروة بن مسعود الثقفي الذي عاد ليخبر قريشا باصرار الرسول على تنفيذ ما جاء من أجله . ورأي الرسول من ناحيته أن يفاوض قريشا وأن يرسل لها وفدا يفصح لها عن أهداف زيارته وطابعها السلمي والديني . وانتدب لهذه المهمة عثمان بن عفان لمكانته في قريش وقربانته من أبي سفيان . وفي هذا الانتقاء دليل على حنكة الرسول فقد اختار المبعوث المناسب للمهمة والجهة المناسبة . وقد طلب الرسول الكريم الى عثمان رضي الله عنه أن يقول لقريش : انا لم تأت لقتال أحد وانما جئنا زوارا لهذا البيت معظمين لحرمة ومعنا الهدى ننحده ونصرف . ووصل عثمان الى مكة فرحب به وأجاره أبان بن سعيد بن العاص ، وأبلغ الرسالة الى رؤوس قريش ، ولكنهم استمروا في عنادهم ورفضوا السماح للمسلمين بدخول مكة . ومضت على غيبة عثمان في مكة ثلاثة أيام لم يسمع المسلمون خلالها خيرا عنه ، وذاع بينهم أنه قتل مع عشرة من المسلمين كان الرسول قد سمح لهم بالتوجه الى مكة لزيارة أهلهم فيها . فطلب الرسول من صحبه أن يبايعوه على محاربة قريش أخذا بثأر موفده . ورات قريش أن المسلمين يعسكرون على مقربة من أرضها وان حربهم لن تكون سهلة ولا يسيرة ، فأثرت

أن تفاوضهم ، لذا أرسلت وفدا برئاسة سهيل بن عمرو ليفاوض الرسول وينهي
الازمة دون اللجوء الى قتال . فكان طلب الرسول الاول عودة عثمان وصحبه من
المسلمين ، فوافق سهيل وأرسل من قبله رسولا الى قريش يطلب منها اطلاق سراح
عثمان ومن معه من المسلمين ، فوافقت قريش على ذلك فوراً وأرسلت عثمان وصحبه
الى الرسول . وعاد سهيل الى مكة ليستطلع رأي قومه في الشروط التي يطلبونها من
الرسول . فأشار عليه أهل الرأي منهم بالصلح على أن يرجع الرسول عنهم عامه هذا
ويعود في العام المقبل . وعاد سهيل الى الرسول بعرض قريش واتفق الطرفان على
صلح تنص بنوده على بعض الشروط التي لا نرى ضرورة لذكرها في هذا المقام . ولكن
من المهم أن نذكر أن أسلوب التفاوض عن طريق الوفود قد اعتمد بشكل رسمي من قبل
الطرفين المتخاصمين في هذه الفترة من تاريخ الامة العربية ، واعتبر وسيلة ناجعة
لجعل الاطراف المختلفة تصل الى حلول لبعض المشاكل التي تطرح نفسها والتي اذا
لم يعتمد التفاوض أسلوباً لحلها لكانت الحرب هي البديل الوحيد .

ولا بد من الإشارة هنا الى أن الرسل والوفود كانت في هذه الفترة لا تقتصر
على المجالات الداخلية فقط ، بل كانت وفود الرسول تسافر الى الخارج ولا سيما الى
الحبشة ، فقد أرسل صلوات الله عليه عمرو بن أمية الضمري الى النجاشي يطلب
اليه أن يعيد من قبله من المسلمين فأرسلهم النجاشي على مركبين ، وكانوا ستة عشر
رجلاً ومعهم من بقي من نسائهم وأولادهم .

وفي ختام هذه الفقرة من بحثنا لا بد من الإشارة الى ما تعارف المؤرخون على
تسميته بـ « عام الوفود » ، وهو العام التاسع للهجرة الذي تقاطر فيه على الرسول
رجال القبائل العربية مبايعين على الاسلام والطاعة ، بعد أن فتحت مكة ودخلت
قريش في الاسلام وثبت لسائر العرب ان المسلمين قوة سياسية وحربية ، الى جانب
العقيدة الجديدة التي تنزلت على قلب النبي العظيم ، وكان وفد ثقيف اسبق الوفود
في القدوم على الرسول وكان لقدمه وقبوله الاسلام وشروط الرسول عليه مغزى
خاص ، اذ أنه باسلام ثقيف غدت الحجاز كلها تدين بالدين الجديد . كما أخذت
القبائل الاخرى التي كانت لا تزال على الشرك تحذو حذو ثقيف وترسل بعوثاً منها
الى المدينة لتعلن انضواءها تحت راية الاسلام ومبايعة رسول الله . ولن نذكر أسماء
هذه الوفود ورجالاتها فهي كثيرة وتشمل معظم القبائل العربية ، ولكن لن يفوتنا أن
نشير الى أنه كان بين هذه الوفود وفد أرسله ملوك حمير يعلم الرسول الكريم
باسلامهم ، فقبل الرسول اسلامهم وأرسل اليهم كتاباً يعلمهم فيه فرائض الاسلام
وما يترتب عليهم من أخماس وصدقات وواجبات حيال رعاياهم من أهل الذمة . كما
أرسل اليهم وفداً مسلماً برئاسة معاذ بن جبل ليعلمهم الاسلام ويفقههم بالدين . وكان
فروة بن عمرو الجذامي ، عامل الروم على من يليهم من العرب ، من بين الامراء الذين

أرسلوا الى الرسول من يعلمه باسلامهم . وكان منزل فروة معان وما حولها من أرض الشام . وقد أرسل مع رسله بغلة بيضاء كهديّة للنبي . فقبل النبي عليه السلام اسلام فروة وهديته . ولما بلغ الروم اسلام عاملهم غضبوا لذلك وطلبوه حتى أخذوه فحبسوه ثم ضربوا عنقه على ماء بفلسطين يقال له عفرأ .

وبعد ، فيظل الحديث عن الوفود والسفارات في عصر الرسول (ص) ناقصاً اذا لم نتعرض الى أهم عنصر فيه وهو موضوع كتب الرسول الى الملوك والامراء يدعوهم الى الاسلام .

فمن المعلوم أن في الآية الكريمة التي تخاطب الرسول قائلة : « وما أرسلناك الا كافة للناس بشيراً ونذيراً ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون » ، وفي قوله عز وجل : « ان هو الا ذكر للعالمين » ، دعوة صريحة الى عالمية الدعوة ، وتوجيه واضح للرسول الكريم لينقل الدعوة من اطار الجزيرة العربية الضيق الى آفاق الأرض الرحبة حيث يجب ان تخفق راية الاسلام ، كما خفقت في سماء الجزيرة ، وحيث يجب ان تعلو كلمة الحق فينتقل الناس كافة من الضلالة الى الهدى . ونحن في بحثنا عن « الوفود والسفارات في عصر الرسول » لا بد أن نتوقف عند الجهود التي بذلها صلوات الله عليه في سبيل تحقيق هدف عالمية الدعوة عن طريق ما أرسله من وفود وسفارات الى ملوك وأمرأ الأرض يدعوهم بدعوة الاسلام ، ويحضهم على ترك ما هم فيه من ضلالة وكفر . وقد أوجبت علينا طبيعة المعلومات التي ترد في بعض المصادر الأولية والحديثة حول هذا الموضوع ان نسلك في معالجته سبيل نقد الخبر وعرضه على ما يفرضه منهج البحث التاريخي من معايير كي نستخلص الصورة الحقيقية لما جرى . لان في بعض ما بين أيدينا من أخبار شيئاً من عدم دقة يضطر معه الباحث المدقق الى اعمال النظرة الموضوعية المتفحصه لاستبعاد ما لا يمكن قبوله وتقويم ما يمكن ان يكون قد وقع من خطأ . ولا بد لي من أن استميح القارئ العذر لما أقحمه فيه من دوامة نقد الروايات والاخبار ، ولكنها مناسبة أردتها ألا تفوت دون أن يعطى هذا الموضوع الهام ما هو أهل له من عناية وتمحيص .

تذكر المصادر (كابن سعد وابن هشام والطبري وابن حبيب وغيرهم) ان الرسول بعد انصرافه من الحديبية أرسل ستة من أصحابه الى ملوك الدول المجاورة وأمرائها يدعوهم بدعوة الاسلام . وقد حمل هؤلاء الرجال كتباً ممهورة بخاتم الرسول . وعادوا بأجوبة عليها ، بعضها فيه قبول لهذه الدعوة وبعضها فيه رفض لها . ويفرد ابن سعد فصلاً خاصاً في « طبقاته » لهذا الامر يقول فيه : « . . قالوا : ان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لما رجع من الحديبية في ذي الحجة سنة ست ، أرسل الرسل الى الملوك يدعوهم الى الاسلام ، وكتب اليهم كتباً ، فقبل يا رسول الله ، ان الملوك

لا یقرؤون کتابا الا مختوما ، فاتخذ رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، يومئذ خاتما من فضة ، فسه منه ، نقشه ثلاثة أسطر : محمد رسول الله ، وختم به الكتب ، فخرج ستة نفر منهم في يوم واحد ، وذلك في المحرم سنة سبع ، وأصبح كل رجل منهم يتكلم بلسان القوم الذين بعثه اليهم . فكان أول رسول بعثه صلى الله عليه وسلم عمرو بن أمية الضمري الى النجاشي وكتب اليه كتابين يدعو في أحدهما الى الاسلام ، ويتلو عليه القرآن ، فأخذ (أي النجاشي) كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوضعه على عينيه ، ونزل من سريره فجلس على الارض تواضعا ، ثم أسلم وشهد شهادة الحق ، وقال : لو كنت أستطيع أن آتيه لآتيته ، وكتب الى رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، باجابته وتصديقه واسلامه على يدي جعفر بن أبي طالب . وفي الكتاب الآخر يأمره أن يزوجه أم حبيبة بنت أبي سفيان بن حرب وكانت قد هاجرت الى أرض الحبشة مع زوجها عبيد الله بن جحش الأسدي فتنصر هناك ومات ، وأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم ، في الكتاب أن يبعث اليه بمن قبله من أصحابه ففعل وزوجه أم حبيبة بنت أبي سفيان وأصدق عنه أربعمئة دينار ، وأمر بجهاز المسلمين وما يصلحهم ، وحملهم في سفينتين مع عمرو بن أمية الضمري . . . وبعث رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، دحية بن خليفة الكلبي وهو أحد الستة ، الى قيصر يدعو الى الاسلام وكتب معه كتابا وأمره أن يدفعه الى عظيم بصرى ليدفعه الى قيصر ، فدفعه الى عظيم بصرى وهو يومئذ بحمص ، وقيصر يومئذ ماش في نذر كان عليه : إن ظهرت الروم على فارس أن يمشي حافيا من قسطنطينية الى ايلياء ، فقرأ الكتاب وأذن لعظماء الروم في دسكرة له بحمص فقال : يا معشر الروم ، هل لكم في الفلاح والرشد ، وأن يثبت لكم ملككم وتتبعون ما قال عيسى بن مريم ؟ قال الروم : وما ذاك أيها الملك؟ قال : تتبعون هذا النبي العربي ، قال : فحاصوا حيصة حمر الوحش وتناجزوا ورفعوا الصليب ، فلما رأى هرقل ذلك منهم يئس من اسلامهم وخافهم على نفسه ، وملكه ، فسكنهم ثم قال : انما قلت لكم ما قلت أختبركم لأنظر كيف صلابتكم من دينكم الذي أحب ، فسجدوا له . قالوا : وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عبد الله بن حذافة السهمي ، وهو أحد الستة ، الى كسرى يدعو الى الاسلام ، وكتب معه كتابا ، قال عبد الله : فدفعت اليه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقريء عليه ، ثم أخذه فمزقه ، فلما بلغ ذلك رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، قال : اللهم مزق ملكه ، وكتب كسرى الى بازان عامله على اليمن أن ابعث من عندك رجلين جليدين الى هذا الرجل الذي بالحجاز فليأتياني بخبره (وأرسل باذان الرجلين وقابلا الرسول فتنبأ لهما بمقتل كسرى من قبل ابنه شيرويه) فرجعا الى باذان فاسلم هو والابناء الذين باليمن . قالوا : وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حاطب بن أبي بلتعة اللخمي ، وهو أحد الستة ، الى المقوقس صاحب الاسكندرية عظيم القبط يدعو الى الاسلام وكتب معه كتابا ، فأوصل اليه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقرأه وقال له

خيراً ... وكتب الى النبي صلى الله عليه وسلم : لقد علمت أن نبيا قد بقي وكنت أظن أنه يخرج بالشام ، وقد أكرمت رسولك وبعثت اليك بجاريتين لهما مكان في القبط عظيم ، وقد أهديت لك كسوة وبغلة تركبها ، ولم يزد على هذا ولم يسلم فقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم هديته ، وأخذ الجاريتين مارية أم إبراهيم ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم واختها سيرين ، وبغلة بيضاء لم يكن في العرب يومئذ غيرها وهي دلدل ... قالوا : وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، شجاع بن وهب الاسدي ، وهو أحد الستة الى الحارث بن أبي شمر الفسائي يدعو الى الاسلام ، وكتب معه كتابا ، قال شجاع : فأتيت اليه ، وهو بغوطة دمشق ، وهو مشغول بتهيئة الانزال والالطاف لقيصر ، وهو جاء من حمص الى ايلياء ... فدفعت اليه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقرأه ، ثم رمى به وقال : من ينتزع مني ملكي ؟ أنا سائر اليه ولو كان باليمن جثته ، علي بالناس ، فلم يزل يفرض حتى قام ، وأمر بالخيول تنعل ، ثم قال : أخبر صاحبك ما ترى . وكتب الى قيصر يخبره خبري وما عزم عليه . فكتب اليه قيصر : ألا تسير اليه واله عنه ووافني بإيلياء ، فلما جاءه جواب كتابه ، دعاني فقال : متى تريد أن تخرج الى صاحبك (فقلت : غدا ، فأمر لي بمائة مثقال ذهب .. فقدمت على النبي صلى الله عليه وسلم ، فأخبرته ، فقال : باد ملكه ! ومات الحارث بن أبي شمر عام الفتح ... وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، سليط بن عمرو العامري ، وهو أحد الستة ، الى هوزة بن علي الحنفي يدعو الى الاسلام وكتب معه كتابا ، فقدم عليه وأنزله وحباه ، وقرأ كتاب النبي ، صلى الله عليه وسلم ، (وطلب هوزة في كتاب أرسله الى النبي أن يشاركه في الامر حتى يؤمن به ، ولما وصل كتاب هوزة الى النبي قال تعليقا على هذا الطلب) : لو سألني سيابة من الارض ما فعلت ، باد وباد ما في يديه ! فلما انصرف من عام الفتح جاءه جبريل فأخبره أنه قد مات .

هذا هو نص ابن سعد ، وقد أوردناه كاملا لأنه في رأينا ، يحتاج الى وقفة نناقش فيها ما يورد من معلومات لا يستقيم بعضها أمام النقد التاريخي والمقارنة مع المصادر الاخرى .

ان أول ما يستدعي الانتباه في نص ابن سعد هو التاريخ الذي يحدده لانطلاق رسل الرسول الى الملوك والامراء ، فهذا التاريخ عنده هو بعد صلح الحديبية ، أو بشكل أدق هو المحرم من سنة سبع للهجرة حين خرج ستة منهم في يوم واحد ، على حد زعم ابن سعد . ان نظرة بسيطة الى وضع الرسول والجماعة الاسلامية بعد صلح الحديبية تجعلنا ندرك بما لا يقبل الشك أنه كان على الاسلام والمسلمين في هذا الوقت المبكر أن يقفوا في وجه الاخطار والتحديات التي تمثلها قريش وغيرها من قبائل الحجاز ونجد التي لم تكن قد انضوت تحت لواء الاسلام بعد ، والتي كانت لا تزال على جانب

من القوة لا يستطيع المسلمون الاستهانة به . واذا أضفنا الى هذا أن مدن الحجاز الكبرى نفسها كمكة والطائف كانت لا تزال تناصب الرسول العداء ولم تخضع لسلطانه، لوجدنا أن المنطق يفترض ألا يتطلع الرسول الى نشر دين الله خارج الجزيرة وأن يعرضه على امبراطوريات عظمى كفارس وبيزنطة ، في حين أن أقرب مدن الحجاز اليه كانت لا تزال على الشرك وتسمى بمختلف الوسائل والسبل ، بما ذلك الحرب ، للقضاء عليه وعلى دينه .

واذا تركنا ما يمليه المنطق جانباً ، وتمسكنا بحرفية النصوص وما جاء في مصادر الاخبار المختلفة ، لوجدنا أن نص ابن سعد لا يستقيم أمام الفحص الدقيق الناقد لما جاء من أخبار . ولنأخذ أولاً ما يذكره هذا المؤلف عن بعث الرسول لدحية بن خليفة الكلبي الى أمير بصرى ومعه كتاب الى قيصر ، ان بعثة دحية هذه سابقة على صلح الحديبية دونما شك ، لا تالية لها ، كما يدعي ابن سعد ، وقد حدثت بشكل أدق في السنة السادسة للهجرة ، على ما يذكره هو نفسه ، لا أي شخص آخر فقد جاء في موضع لاحق من « طبقاته » أن دحية تعرض ، وهو في طريق عودته الى المدينة من عند قيصر الى هجوم شنته عليه جماعة من جذام وسلبته ما كان يحمل من هدايا وكسوة حمله اياها قيصر . وقد أخبر دحية الرسول بما جرى له ، فجهز سرية مؤلفة من خمسمائة رجل على رأسهم زيد بن حارثة وأرسلهم الى حسمى لتأديب الجذاميين وذلك في جمادى الآخرة من سنة ست للهجرة . وقد قامت سرية زيد بهذه المهمة خير قيام وعادت بأسلاب كبيرة وأسرى لا يقلون عن المائة (انظر ابن سعد ط. بيروت ، ج ٢ ، ص ٨٨) . وهكذا ، فان دحية الذي يذكر ابن سعد انه كان أحد الستة الذين انطلقوا بعد الحديبية حاملين كتب الرسول خرج قبل الحديبية التي لم تحدث حتى ذي القعدة من السنة نفسها ، لا بعدها كما يدعي .

واذا تركنا أمر دحية جانباً، وانتقلنا الى ما يذكره النص عن الرسول الذي أرسله النبي الى المقوقس وعودة الرسول الى المدينة ومعه هدايا المقوقس التي كان من بينها مارية وسيرين ، لوجدنا أن الامر لا يستقيم أيضاً والتاريخ الذي حدده ابن سعد لارساله ، وهو ما بعد الحديبية ، أو المحرم من سنة سبع . إذ أن ابن اسحق يذكر أن الرسول أعطى سيرين الى حسان بن ثابت كترضية له وتعويض عن الضربة التي ضربه اياها صفوان بن المعطل ابان الازمة التي تعرف باسم « حديث الافك » ومعروف أن حسان كان من الذين هجوا صفوان وتقولوا عليه الاقاويل ، فثارت ثائرة صفوان لهذا وضرب حسان ضربة كادت تميته . وقد عوض الرسول على حسان وأهداه سيرين كترضية له عما أصابه . وحديث الافك هذا كان أحد نتائج غزوة بن المصطلق التي حدثت في شعبان من سنة ست للهجرة . وما دام الرسول قد أهدى سيرين لحسان في شعبان من السنة السادسة أو الشهر التالي له ، فلا يمكن أن يستقيم

التاريخ الذي يحدده ابن سعد (المحرم من سنة سبع) كموعداً لانطلاق حاطب بن أبي بلتعة الى المقوقس وعودته بهداياه التي كانت سيرين احداها .

واذا كان نص ابن سعد خاطئاً بالنسبة للتواريخ التي يحددها كموعداً لانطلاق دحية بن خليفة الكلبي وحاطب بن أبي بلتعة مبعوثي الرسول الى قيصر والمقوقس فان ما يرد فيه من حديث عن بعث الرسول لشجاع بن وهب الاسدي الى الحارث بن أبي شمر الفسائي يستثير أعنف نوازع النقد في نفس المؤرخ . وسبب ذلك أن الاخباريين العرب غير متفقين على أسماء الملوك الفساسنة الذين حكموا بدءاً من سنة ٥٠٠ م ، ولكن قائمة نولده ، وهي المعتمدة عند أغلب الباحثين ، تجعل من أبي شمر جبلة أول ملوك الفساسنة بعد المنذر بن الحارث . وقد تلا أباً شمر هذا ابنه الحارث بن جبلة الذي حكم بين ٥٢٩ - ٥٦٩ م . والحارث بن جبلة هو الحارث بن أبي شمر نفسه ، كما يظهر من اسم أبيه ، وكما يؤكد حمزة الاصفهاني في تاريخه . فهل يعقل أن يرسل الرسول مبعوثاً ورسالة دعوة الى الاسلام الى ملك مات قبل ولادته بما لا يقل عن عام أو عامين ؟ ويؤيد نقدها هذا ما يرد في بعض المصادر الأخرى من معلومات حول هذا الموضوع فالطبري ، مثلاً ، يذكر أن الرسول أرسل شجاعاً الى المنذر بن الحارث بن أبي شمر ، لا الى الحارث . وهذا أيضاً غير مقبول في رأينا لأن المنذر هذا حكم بين سنتي ٥٦٩ - ٥٨٢ ، أي أنه توفي والرسول لا يزال صبياً في حوالي العاشرة من عمره . وعندنا أن ما يذكره ابن حبيب من أن شجاعاً حمل رسالة الرسول الى جبلة بن الايهم الفسائي ، هو الاصدق والأصح ، لأن جبلة هو آخر من حكم من ملوك الفساسنة وتناسب فترة ملكه مع قيام الدعوة الى الاسلام . وقد أسلم هو نفسه ، ثم ما لبث أن تنصر بعد حادثته المعروفة مع عمر بن الخطاب .

بعد هذه الملاحظات على ما ورد في نص ابن سعد ، لا بد لنا من أن نقرر أن ارسال الرسول لمبعوث وموفدين للملوك والأمراء داخل الجزيرة وخارجها ، هو حقيقة واقعة تؤيدها كل المصادر والقرائن والدلالات ، وتحتملها طبيعة الدعوة ، وما لها من صفة العمومية والشمول ، بحيث لا يمكن أن تقتصر الدعوة الى هذا الدين على قوم دون قوم . على أن الذي لا بد من ملاحظته بمناسبة ما يرد حول هذا الموضوع عند ابن سعد وغيره من المؤرخين القدماء والمحدثين ، هو أن تداخل الروايات واختلاط الاحداث بسبب التواتر الشفهي ، قد أدت كلها الى صورة مشوهة لما جرى ينقصها الضبط ويتداخل فيها حادث بحادث أو موضوع بموضوع ، لا سيما إذا كان الحادثان متقاربين من حيث الموضوع أو تشابه فيهما بعض التفاصيل . وخير مثال على هذا التداخل واختلاط الروايات يمكننا أن نورد في ما يذكره لنا ابن سعد في النص الذي نقلناه في مطلع بحثنا هذا ، عن موفد الرسول الى نجاشي الحبشة . فقد اختلط عند ابن سعد مناسبات عدة كانت فيها بين الرسول والنجاشي مكاتبات ووفود ، فجمع في مناسبة

واحدة ثلاث مهام هي : دعوة النجاشي الى الاسلام ، وتزويجه بأم حبيبة ، والطلب الى النجاشي تجهيز من قبله من المسلمين واعادتهم مع موافده عمرو بن أمية الضمري ، وبديهي ألا يطلب الرسول من النجاشي تزويجه من أم حبيبة واصداقها عنه في وقت يطلب اليه فيه اعادة من قبله من المسلمين ولكن أجل زواجه منها حتى ما بعد عودتها مع من بقي من المسلمين في الحبشة . كما ان ما يذكره من اسلام النجاشي امر غير مقطوع بصحته ولا نجد دليلا عليه في المصادر التي تدرس الموضوع بجد واهتمام .

والى جانب هؤلاء الستة الذين يذكرهم ابن سعد ، هناك موفدون آخرون تذكر المصادر اسمائهم والمهام التي اوكلت اليهم ، فمن بين موفدي الرسول، غير هؤلاء الستة يذكر ابن سعد عمرو بن العاص الذي بعثه الرسول سنة ثمان للهجرة الى جيفر وعبد ابني الجلندی وهما سيدا قبائل الازد النازلة في عمان يدعوهما الى الاسلام . وقد قبلا دعوة الرسول ودفعوا لموافده الصدقة ، فوزعها بين فقرائهم . كما ارسل الرسول بعد منصرفه من الجعرانة ، العلاء بن الحضرمي الى المنذر بن ساوي العبدی سيد البحرين يدعو به دعوة الاسلام . فكتب المنذر الى الرسول يخبره باسلامه وتصديقه واسلام بعض من أصحابه ، وبقاء آخرين منهم على اليهودية او المجوسية . فأجابته الرسول بأخذ الجزية ممن بقي على هذين الدينين . كما كتب الى أهل اليمن كتابا يخبرهم فيه بشرائع الاسلام وفرائض الصدقة في المواشي والاموال ويوصيهم بأصحابه ورسله خيرا . وكان رسوله اليهم معاذ بن جبل ومالك بن مرارة ، وأمرهما بجمع الصدقات والجزية . وكان مالك هذا رسول أهل اليمن الى النبي يعلمونه اسلامهم وطاعتهم ، فرده الرسول مع معاذ الى قومه وعهد اليه مع صاحبه بأمر الصدقات والجزية ، كما أسلفنا . ولم يكن معاذ ومالك موفدي الرسول الوحيدين الى اليمن، بل هناك عدد آخر منهم الى أمراء مقاطعات اليمن المختلفة تذكرهم المصادر وتعين الجهة التي ارسلوا اليها . كما ان المصادر تتحدث عن رسله الى بعض قبائل كندة وحضرموت ولخم والازد وبني الحارث وبني فهد وبني طي وبني سعد هذيم وبني زرة وبني اسلم من خزاعة وبني جهينة ومسيلمة الكذاب وبني غفار وصاحب هجر وأهلها وبني بكر بن وائل وبني عبد القيس وخثعم وكثير غيرها .

وهناك عدد من الكتب تذكر المصادر انه وجهها الى بعض الاساقفة النصارى وبعض الزعماء النصارى واليهود . ككتابه الى ضفاطر الاسقف وكتبه الى بني جنبه وهم جماعة من اليهود كانت تقيم بمقنا (مقنا موقع قرب أيلة) ، وكتبه الى يحنة بن رؤبة وسروات أهل أيلة ، والاكيدر زعيم دومة الجندل النصراني ، وبني غاديا اليهود، ويهود جربا وأذرح وغيرها . وتتضمن هذه الكتب اعترافا من الرسول لهم بحكم ما تحت أيديهم من اراض وبلاد مقابل اعلان خضوعهم له ودفع ما يترتب عليهم من جزية او زكاة (لمن اسلم) .

والى جانب هذا الفريق الذي باداه الرسول بالكتابة والدعوة الى الاسلام عن طريق الوفود والمبعوثين ، هناك فئة من الملوك والافراد أخذت هي بزمam المبادرة ، وكاتبـت الرسول معلنة اسلامها وخضوعها قبل أن يبادئها الرسول بذلك . ومن بين هذه الفئة الثانية فروة بن عمرو الجذامي الذي كان عامل الروم على عمان من أرض البلقاء ، أو على معان ، وقد بلغت فروة أخبار الرسول ومعلومات عن الدين الذي يدعو اليه ، فأسلم وكتب اليه يخبره بذلك ، وبعث اليه بهدايا كثيرة ، كان من بينها بقلـة بيضاء وفرس وحمار وأثواب لين وقباء سندس مخوص بالذهب . وقد بلغ ملك الروم اسلام فورة ، فطلب اليه العودة عن الاسلام ، فحبسه وقتله وصلبه .

وهكذا فقد استعمل الرسول أسلوب الوفود والسفارات في اخريات حياته ، واعتمده وسيلة لتحقيق نشر الدعوة خارج حدود الجزيرة العربية وداخلها ، واعتمده وسيلة لتحقيق نشر الدعوة خارج حدود الجزيرة العربية وداخلها ، على أن السبيل السلمي ، لم يكن ناجحا دوما ، واضطر الرسول في سبيل تحقيق شعار عمومية الدعوة أن يلجأ للقتال ، فكان أن أمر بتجهيز جيش أسامة بن زيد لغزو أطرف الشام الجنوبية ، ولكن بعث زيد لن يتاح له أن ينطلق الا في خلافة أبي بكر ، كما هو معلوم ، اذ أن المنية عاجلته صلوات الله عليه ، وانتقل الى الرفيق الاعلى ليسلم الراية الى اصحابه البررة ، الذين حملوا الامانة بكل صدق واخلاص .

وقد يكون لنا مع الوفود والسفارات في الفترات التالية وقفة أخرى ان شاء الله .

* * *

مسألة هروف الفلاحين من القرى في مصر بناء على الوثائق البريدية المعاصرة

د. فالح حسين
الجامعة الاردنية

تهدف هذه الدراسة الى القاء الضوء على ظاهرة هجرة الفلاحين المصريين لقراهم في فترة محددة هي اواخر القرن الاول وأوائل القرن الثاني للهجرة وكيفية معالجة الدولة لها ، هذه الهجرة التي تبدو هنا مختلفة عن الهجرة التي عرفت في نفس الفترة تقريبا ، في مصر آخر من أمصار الدولة الاسلامية ، الا وهي هجرة أهل القرى في العراق ، ووجه الاختلاف هنا هو أن هجرة فلاحى مصر لم تكن نحو المدن الجديدة أو مراكز الادارة السياسية والاقتصادية كما هو الحال في العراق بل الى أماكن أخرى من الريف المصري في الاغلب الامر الذي أدى الى الصاق صفة الهاربين بالفلاحين الذين تركوا قراهم ، لذا فضلنا هنا وضع كلمة هروب الفلاحين عوضا عن الهجرة . ومما يلفت الانتباه أن ظاهرة الهجرة في العراق تبدو أكثر وضوحا لأنها تشبه ما تعانيه كثير من المجتمعات الحديثة من هجرة أهل الريف الى المدن بغض النظر عما تخلفه هذه الهجرة من بلبلة في المدن ومن أثر سلبي على الحياة الزراعية في الريف ، في حين أن الوضع بمصر لا يمكن ان ينظر اليه على هذا النحو وان الدارس لوثائق هذه الفترة يلاحظ أن للظاهرة هذه خلفية مختلفة .

ان التشابه في نتيجة الهجرة في كل من مصر والعراق أدى الى اتخاذ الدولة اجراءات مشابهة لمقاومتها واعادة الامور الى طبيعتها . ولكن نتيجة هذه الاجراءات ليست متشابهة اذ نلاحظ نجاحها في العراق أكثر منها في مصر وربما يعود ذلك الى اتساع المشكلة في مصر أكثر من العراق . اضافة الى ان اتجاه الهجرة في العراق كان واضحا وبرز في المصريين الكبارين ، البصرة والكوفة ، الا أنه كان أكثر وضوحا في البصرة (١) . أما في مصر فان الولاية بأكملها كانت ميدانا لهذه الهجرة .

ويود الباحث هنا لفت النظر الى مصر لاننا نملك الكثير من الوثائق التي القت الضوء على حجم هذه المشكلة من خلال حديثها عن ردة فعل الدولة تجاهها عبر المراسلات التي دارت بين الولاة في الفسطاط وتابعيهم في الكور المصرية . كما نود أن

نذكر ان الدارس لتاريخ مصر يلمس هذه الهجرة في كثير من الفترات ، ولكن تركيزنا عليها في هذه الفترة يعود لوفرة الوثائق التي تحدثت عن الموضوع .

من الواضح أن الهجرة قد تفاقم خطرها في الربع الاخير من القرن الاول الهجري / السابع الميلادي مما يعني أنها لم تكن وليدة ساعتها بل نتيجة تراكمات بدأ يظهر أثرها الآن ، اذ أننا نسمع بالاجراءات الرسمية ضد الهجرة منذ أيام عبد العزيز بن مروان الذي حكم مصر بين ٦٥-٨٥هـ وأول اشارة لها جاءت على لسان ساويرس بن المقفع الذي وضع سير بطاركة الاسكندرية وقال انه اعتمد في تأليفه على وثائق الكنيسة والشهود العيان الذين دونوا السير المعاصرة لآباء الكنيسة (٢) . فقد بين أن عبد العزيز بن مروان حاول إيقاف الهروب من الارض الى الأديرة القبطية لما لاحظ موجة الترهّب التي تعنى ترك الارض الزراعية بل فرض جزية على الرهبان في مصر وكلف شخصا للقيام بهذه المهمة « فأنفذ صاحباً له اسمه يزيد ممن يأمن اليه ومعه آخر فأحصى جميع الرهبان في كل الكور ووادي هيب وجبل جراد وسائر الاماكن وجعل عليهم جزية دينار واحد على كل نسمة وامرهم أن لا يهربوا أحد بعد من أحصاه وهذه أول جزية وزنوها الرهبان » (٣) ، واستمر هذا الحال بعد عبد العزيز ولكن بشمولية أكبر ، اذ يذكر عن أيام عبد الله بن عبد الملك أنه أرسل شخصين هما عاصم ومزيد مع جماعة « وأوسموا الغرباء الذي وجدوهم على أيديهم وجباههم وأنفذوهم الى مواضع لم يعرفوها » (٤) . وهذه أول اشارة الى اتخاذ اجراءات عملية ضد الهاربين . ولم ينته الحال الى التغلب على المشكلة بل العكس ، اذ يبدو أن المسألة عادت بشكل أكثر حدة في أيام خلفه قره بن شريك (٩٠ - ٩٦هـ) ، اذ نسمع عن هرب الناس بعائلاتهم ، وهذا ما أفادته الوثائق اضافة الى ساويرس الذي يلمح لأول مرة الى المشاكل الاقتصادية ، فهو يقول « وكانوا الناس يهربوا ونساءهم وأولادهم من مكان الى مكان ولا يأويهم موضع من أجل البلايا ومطالبات الخراج وعظم ظلمه أكثر ممن تقدمه ثم أنه ولى انسان اسمه عبد العزيز من مدينة سخا وكان يجمع الهاربين من كل موضع ويردهم ويربطهم ويعاقبهم ويعيد كل منهم الى موضعه » (٥) ، وهذا ما ستؤكدّه الوثائق البردية التي عثر عليها من أيام قره كما سنرى (٦) ، ونجد لديه ما يدل على أن أحوال مصر كانت صعبة اقتصاديا دون أن يصرح بذلك اذ يقول « ثم انزل الله على أرض مصر وباء عظيم وصار من يموت في كل يوم لا يعرف عدده » (٧) .

ويستمر الحال رغم كل ما فعله قره من اجراءات ليأتي خليفته اسامة بن زيد فيتابع ما سار عليه سلفه ، واستمر الفلاحون بالهرب اذ حدث في أيامه « غلاء عظيم لم يسمع بمثله من الجيل الاول ومات في ذلك الغلاء أكثر ممن مات في الوباء وأشرفت جميع الاغنياء والفقراء على الموت » (٨) ، ومعنى هذا أن الازمة ازدادت شدة فما كان من اسامة الا أن شدد المراقبة على الهروب من الارض لأن الغلاء الذي أعقب الوباء لا بد

أدى الى تفاقم الهجرة فكانت تعليمات اسامة وأوامره صارمة فنراه يمنع ايواء الغرباء (الهاريين) في الكنائس والبيع وفلا طرد القائمون عليها « من كلن عندهم من الغرباء » (٩) وحاول تجديد ما بدأه عبد الله بن عبد الملك وعبد العزيز من قبل ، أي منع اللجوء الى الاديرة بحجة الرهبنة ، اذ قام باحصاء الرهبان وجعل لمن أحصاهم اشارة « وأوسمهم كل واحد منهم بحلقة حديد في يده اليسرى ليعرف ووسم كل واحد باسم بيعته وديره بغير صليب بتاريخ مملكة الاسلام وكان في سنة ست وتسعين للهجرة » (١٠) ، وهذا يعني أن الاوامر صدرت بعيد تسلمه ادارة خراج مصر فوراً وعاقب بشدة كل من عثر عليه في الاديرة بعد ذلك من الهاريين (١١) . وابتكر اسامة السجل أي ما يمكن أن نعتبره جواز سفر أو تصاريح التنقل لضبط الهروب من القرى والاراضي الزراعية ويذكر ساويرس أمر اسامة فيما يتعلق بالسجل كما يلي « وكان يكتب ويقول كل موضع يوجد فيه انسان ماشي أو يعدي من موضع الى موضع وطالع من مركب أو نازل وليس معهم سجله يؤخذوا وتنهب المركب وما فيه وتضرب بالنار » (١٢) وليس هذا وحسب بل أنه فرض غرامة على من يفقد سجله أو يدعي فقده مقدارها خمسة دنائير لقاء تجديد السجل . كما تابع عملية الكشف على الاديرة للتأكد من عدم ايواء هاريين جدد . ورغم كل هذه الاجراءات كان يعثر على المخالفين فيشتد في عقابهم وعقاب من قدم لهم المأوى وعندما كشف على الديارات « وجد فيها جماعة من الرهبان بغير حلق في أيديهم فمنهم من ضرب رقبتة ومنهم من مات تحت السياط ثم انه سمر باب البيعة بالحديد وطلب منهم ألف دينار » (١٣) .

ويلاحظ أن المشكلة لم تتغلب عليها الادارة الاموية في القسطنطينية رغم هذه الصورة القاتمة ، يدل على ذلك ما فعله القاسم بن عبيد الله بن الحجاب الذي تولى مصر أيام هشام بن عبد الملك الذي « ولى ولاية في كورة مصر أشد منه قوما جمعوا الناس الغرباء من الاسكندرية الى أسوان » (١٤) .

لقد آثر الباحث رسم هذه الصورة من خلال ما رواه ابن المقفع برغم ما يبدو فيها من مبالغة ، ولكن سنرى من خلال الوثائق أن الصورة العامة هذه قد أيدتها الوثائق العربية أو اليونانية والقبطية العائدة لنفس الفترة التي تبين سعة المشكلة بشكل لا لبس فيه .

وقبل المضي في الحديث لنا أن نتساءل عن سبب بروز المشكلة وعلى هذا النحو الذي يبدو مؤلماً ، دون أن تتمكن الدولة ، برغم شدة الاجراءات ، من ايقافها ولو جزئياً بدليل استمرارها منذ أيام عبد العزيز وحتى أيام ابن الحجاب وابنه القاسم الذي تولى خراج مصر لهشام بن عبد الملك أي ما يقرب من نصف قرن . وهذا يعني بالنسبة لنا أن الادارة الاموية تبدو وكأنها فقدت السيطرة على الارض وأهلها لأن ترك

الأرض (القرى) الى أماكن أخرى يعني بالضرورة اضطراب العلاقات الزراعية فيها نتيجة إهمال الأرض المزروعة التي يتركها العاملون عليها إضافة الى الانخفاض الحاد في الربيع الضريبي الحاصل من حرمان الدولة من ضرائب الأرض وما يتبعها من نقص المواد التموينية المؤدي بالضرورة للغلاء الذي تحدث عنه ساويرس أكثر من مرة . والتي جعلت قره بن شريك يطلب رسميا من تجار الصعيد حمل نصف ما لديهم من قمح واحضاره لبيعه في القسطنطينية (١٥) .

وهذا يجعلنا نذكر بتدابير الحجاج في العراق بنفس الفترة تقريبا ٧٥-٩٥هـ والتي لا نملك حيالها الا الروايات الواردة في مصادرنا التاريخية وهي لا تعطي الا صورة مشوشة عما جرى ، مؤداها الحديث عن ظلم الحجاج نتيجة محاولته إعادة أهل القرى الى قراهم . وهنا نريد الإشارة الى آثار أحداث العراق السياسية والثورات المتوالية ضد الدولة الأموية التي لابد وأنها أثرت على عمارة السواد (١٦) حتى أن الطبري يذكر أن مشاركة الكثيرين بالثورات كانت تسعى لعدم أداء واجباتهم للدولة (١٧) ، وقد شعر الحجاج بذلك فأبدى تشددا في الجباية أول الأمر حتى احتج الدهاقين (١٨) . ثم برزت في هذه الأونة على السطح مشكلة هجرة الفلاحين من القرى وكانت أكثر بروزا في البصرة منها في الكوفة نظرا لانتعاش أحوالها الاقتصادية واتخاذها ميناء تجاريا بعد فترة وجيزة من تمصيرها (١٩) . والنتيجة المتوقعة تراجع أحوال الزراعة لقلة المشتغلين في الأرض مما أدى فعلا الى كسر الخراج ، فكان إجراء الحجاج الحازم هو الأمر بإعادة أهل القرى الى قراهم بالقوة ، تماما كما حصل في مصر . فقد ذكر الطبري عن حمزة ابن ربيعة (أن عمال الحجاج كتبوا اليه أن الخراج قد انكسر وأن أهل الذمة قد أسلموا ولحقوا بالامصار فكتب الى البصرة (٢٠) وغيرها أن من كان له أصل في قرية فليخرج اليها (٢١) ويوضح ذلك الجهشيارى عندما ذكر أن الحجاج أرجع الفلاحين الى القرى وفرض عليهم الخراج (٢٢) .

وقد نلمس مما ذكره المبرد في الكامل أن للمسألة أبعادا سياسية إضافة لتعطيل الأرض إذ لما لاحظ الحجاج كثرة من انضم لابن الأشعث من الموالي قال (انما الموالي علوج وانما أتى بهم من القرى فقراهم أولى بهم فأمر بتسييرهم من الامصار واقرار العرب بها وأمر أن ينقش على يد كل انسان منهم اسم قريته) (٢٣) ، وهذا يذكر بما رواه ساويرس من إجراءات ضد الهجرة بمصر .

ويبدو أنه إضافة للمشاكل السياسية والخراب الذي الحقته في الزراعة ممانج عنه الهجرة أيضا فقد وقع بالعراق والمنطقة الطاعون في نفس الفترة (سنة ٨٠) ولكنه كان في البصرة جارفا حتى سمي بالطاعون الجارف (٢٤) وهذا يذكر بالوباء والغلاء الذي تحدث عنه ساويرس بن المقفع (٢٥) .

وفي محاولة من الحجاج للتغلب على المشكلة قام بتقديم القروض « السلف » للفلاحين ومنع أهل السواد من ذبح البقر لتكثر حيوانات العمل حتى ورد على لسان أحدهم شعرا :

شكونا اليه خراب السواد فحرمّ فينا لحوم البقر (٢٦)

كما ذكر ابن رسته القروض التي قدمها الحجاج وهي (الفي الف درهم) . وأما عن سبب منع ذبح البقر فيبين أنه (لتكثرة الحراثة والزرع) (٢٧) ومع كل ذلك، وما تذكره المصادر من حزم الحجاج ، فقد استمرت الهجرة في العراق ولم تتوقف (٢٨) .

بعد هذه الالتفاتة السريعة لمشكلة الهجرة في العراق ، نلاحظ قواسم مشتركة بينها وبين مشكلة الهجرة في مصر ، أهمها بروزها في الوقت نفسه تقريبا في القطرين، وشعور الدولة بالاثّر السلبي على عمارة الأرض ومحاولتها إيقافها بنفس الأساليب ، أي محاولة إعادة الفلاحين الى قراهم وان كانت الأساليب في مصر أكثر وضوحا نظرا لتوافر الوثائق التي تحدثت عنها ولكن ضخامة المشكلة كانت أصعب من أن تتغلب عليها الدولة بمثل هذه القوانين بدليل استمرارها في البلدين . الا أن الفرق الملاحظ بينهما هو أن أسباب الهجرة في العراق أكثر وضوحا منها في مصر .

فمع ان الاشارات واضحة نسبيا عن سبب الهجرة في العراق لكن الامر المستغرب صمت المصادر وحتى الوثائق والتقارير الرسمية والاوامر الصادرة عن الوالي ، مما عثر عليه حتى الآن، فهي لا تشير من قريب أو بعيد الى سبب الهجرة أو اثرها على الأرض انما ينصب حديثها على محاولة الدولة الوقوف امامها واعادة الهاربين الى قراهم ، ولا نراها تكشف ولو ضمنا عن وجهة نظر الهاربين وأسباب هربهم كما أن الروايات التاريخية لم تتطرق لذلك أبدا . وعليه فان ما نود الحديث عنه بخصوص مصر هو اتساع هذه الهجرة كما تدل الوثائق ، وكيفية معالجة الدولة لها دون محاولة البحث عن أسبابها وان كان اجتهادنا يؤدي الى القول أن الصلة بين الأرض وفلاحها وربما زيادة التكاليف المفروضة عليهم أو محاولة الحصول على طريقة كسب أسهل في المراكز الكبرى قد تكون مجتمعة أو منفردة السبب في محاولة الهروب عن الأرض في مصر . ومما يدعو الى الوصول الى هذا الاستنتاج أن الدولة كانت تلاحق الهاربين في أماكنهم الجديدة لدفع مبالغ الجزية فحسب . وهذا معناه أن من يسمح له البقاء يتخلص من التكاليف الأخرى . وكثيرا ما تحدثت بعض الوثائق عن تطمينات العائدين بأن الدولة لن تطلب منهم سوى الجزية فحسب (٢٩) . ولذلك فان سوء الأوضاع الزراعية قد يكون سبب هذا الهروب ، يدلنا على ذلك اضافة لما سبق أن الدولة كانت ترغم الهاربين غالبا على العودة الى الأرض للعمل بها مما يذكر بما فعله الحجاج . اما الهروب من الجزية تحديدا فيصعب على دارس الوثائق هذه الموافقة عليه ولكن المشكلة

بالنسبة للضرائب هي مشكلة الخراج أي ضرائب الأرض التي تتأثر سلبا فعلا باهمالها تماما كما ذكر عمال الحجاج لان نتيجة الهجرة هي خراب الأرض الزراعية ونتيجته انكسار الخراج بالفعل الذي لا ينتج من اسلام من أسلم بل من ترك الناس لارضهم ولذلك فان مقولة فرض الحجاج للجزية على من أسلم يجب أن ينظر لها بحذر كبير (٢٠) ، حتى ان رواية الجهشيارى التي ذكرها تقول (ما صنع الحجاج بأهل العراق من رده من من الله عليه بالاسلام الى بلده ورستاقه واخذهم بالخراج) (٢١)، فالمشكلة هي اعادة الناس الى قراهم ورساتيقيهم وفرض الخراج عليهم لانه بدون عودتهم لا يمكنه فرض الخراج الذي هو ضريبة الأرض . والباحث لا يرى علاقة بين الجزية وبين الهجرة واعادة الناس الى قراهم إلا اذا أخذنا بعين الاعتبار خلط بعض المصادر بين مصطلحي الجزية والخراج . وهذا ما لا نريد الحديث عنه هنا .

وهذا ما نلمسه بمصر اذ لا مشكلة بالنسبة لضريبة الجزية فهي مؤداة من المكلف أينما كان مقر اقامته . وكان الاجراء الاول في مصر فيما يتعلق بمقاومة الهجرة هو التركيز على الجزية حتى أنها فرضت على الرهبان ، فقد رأينا من أيام عبد العزيز بن مروان ان الهجرة اتخذت لباسا دينيا عندما بدأ الهاربون باللجوء الى الاديرة للرهبنة ففرض عبد العزيز الجزية على الرهبان (٢٢) ، ولدينا اعداد من الوثائق سواء كانت ايصالات بالدفع أو طلبات تحصيل لدفع الجزية من الرهبان - وكانت دائما دينارا واحدا - فأحدهما يذكر ضريبة جزية للراهب باسيليوس تبين أنه دفع دينارا (سوليدوس) لجزيته (٢٣) . ورأى البعض أن هجرة القبط كانت رغبة في التهرب من الضرائب (٢٤)، ولكن يجب أن لا نفهم من الضرائب هنا الجزية بالتحديد وانما مجموع التكاليف المطلوبة وهي أكثر من الجزية بكثير خاصة وأن الجزية كانت تجبى من الهاربين في أماكنهم الجديدة ولم تؤد الهجرة الى اعفائهم منها . لكنهم بالهجرة يتهربون من الخراج والتكاليف العينية الاخرى ، والدليل على أن قرارات الادارة في الفسقاط كانت تلاحق الذين يغيرون أماكن سكنهم بترخيص رسمي بأن عليهم دفع الجزية فيها هو الوثيقة التالية التي تطلب دفع الجزية عن شخص يسكن الفسقاط ولكن بلده الاصلي هو اشمون :

(هذا كتاب من عبد الرحمن عامل الامير عبيد الله بن الحجاب على كورة اشمون لجرجه بن لنجين من أهل .. ساكن الفسقاط أنه أصابك من جزية سنة ثلث عشرة ومائة دينرين وسدس وثمان ونصف قيراط منها من جزية رأسك دينرين .. (٢٥) .

ذلك لان الهجرة كما سبق واشرنا لا بد أن تؤثر سلبا على الاوضاع المالية والاقتصادية لان الهروب عن الأرض معناه تعطيلها وبالتالي تضاول الناتج العام وحرمان الدولة من الخراج ، ولذلك نجد قره بن شريك مثلا يطالب بعض أهالي القرى في مصر

د. فالح حسين

بالاموال المترتبة عليهم بعد ثلاث سنين من استحقاقها وهذه المطالبات مؤرخة بسنة ٩١ وتطالب بضرائب سنة ٨٨ (٢٦) .

وفي وثيقة اخرى نرى الوالي يصدر تراخيص خاصة للمسموح لهم بمغادرة قراهم ولكنه لفترة محددة كاجراء لتنظيم التنقل وهذا يؤكد ما ذكره ساويرس عن السجل . تقول الوثيقة :

(هذا كتاب من عبد الله بن عبيد الله عامل الامير عبيد الله بن الحجاب علي اعلا اشمون لقسطنطين ببسطاس شاب ائط بخده اثر وبعنه خالين سبط من اهل بسقنون من اعلى اشمون اني اذنت له ان يعمل بأسفل اشمون لوفاء جزيته والتماس معيشته واجلته شهرين من مستهل ذي الحجة الى انسلاخ المحرم من سنة (ثلث) عشر ومائة فمن لقيه من عمال الامير او غيرهم فلا يعترض له في ذلك من الاجل الا بخير والسلام على من اتبع الهدى وكتب طليق في مستهل ذي الحجة تمام سنة اثنتي عشرة ومائة) (٢٧) .

وهذا يعني ان الدولة تشددت بطريقة دراماتيكية في ملاحقة الذين يهربون من قراهم فلم تسمح بالانتقال الا بتصاريح خاصة (سجل) والذي سمعنا عنه اولا ايام اسامة بن زيد الذي تولى خراج مصر من سنة ٩٦-٩٩/٧١٥-٧١٨ واستمر الى ايام عبيد الله وابنه القاسم كما رأينا . وقد ورد في الوثائق القبطية ما يؤكد تطبيق نظام الجواز او تصريح التنقل اذ تتحدث احداها عن التماس ثلاثة من الرهبان للحصول على تصريح للذهاب الى الفيوم لذا فانهم يرجون الامير للحصول على تصريح لمدة ثلاثة اشهر مع العلم انهم دفعوا الضرائب المستحقة عليهم (٢٨) . ويبدو ان نظام التصاريح استمر فيما بعد اذ نجد وثائق تعود للربع الاخير من القرن الثاني الهجري تتضمن جوازات سفر احدها مؤرخ سنة ١٧٦/٧٩٢ (٢٩)، والثاني يعود لسنة ١٨٠/٧٩٦ (٤٠) .

ولنلق الآن نظرة على الوثائق البريدية التي عالجت قضية الهجرة بشكل مباشر ايام قره بن شريك ولنبدأ اولا بالوثائق البريدية المدونة باللغة العربية ، ففي رسالة من قره بن شريك الى باسيل صاحب كورة أشقوه ، أفروديتو بالوثائق اليونانية، فبعد المقدمة تقول الرسالة : « فان هشام بن عمر كتب الي يذكر جالية له بأرضك وقد تقدمت الى العمال وكتبت اليهم ألا يؤوا جاليا فاذا جاءك كتابي هذا فادفع اليه ما كان له بأرضك من حالته ولا أعرفن مارددت رسائله أو كتب الي يشتيك والسلاام على من اتبع الهدى . وكتب يزيد في جمادى الآخرة سنة احدى وتسعين » (٤١) . ووثيقة أخرى من نفس الوالي الى نفس المرسل اليه تتحدث عن الفرامة التي كان قره قد فرضها على الهاربين عند العثور عليهم واعادتهم الى قراهم ، وهي ناقصة من بدايتها تقول : ... كتب الي انك قد ارسلت الي بالنبطي .. الذي فر وبالأربعة الدنير

وثالث الدينز غرامته » وهي مؤرخة في شهر ربيع أول من تسعين أي بُعيد وصول قرّة لمصر واليا عليها مباشرة .

أما الوثائق البريدية المدونة باليونانية فلدينا أحداها التي تعود لفترة عبد الله ابن عبد الملك الذي يبدو أنه الذي بدأ الاجراءات ضد الهجرة وسار قرّة على نهجه اذ تبين البريدية رقم ١٢٢٣ من البرديات اليونانية المحفوظة في المتحف البريطاني بداية معالجة قضية الهاربين كالتالي : يقول الوالي الى عامله في كورة اشقوه : « ارسل اليهم رجالا قادرين من أهل الثقة وممن يستطيعون الكتابة وارسل معهم تعليمات بالذهاب الى المفوضين المسؤولين عن الهاربين وليكتب بحضورهم أسماء الذين هربوا كاملة ذاكرين المكان الذي هربوا منه والى أي كورة اتجهوا ثم تسجل أسماء الذين هربوا اعادتهم الى أماكنهم وأولئك الذين يسمح لهم بالبقاء على أن يدفعوا ضرائبهم (٤٢) فيها » وتنتهي الرسالة في الحث على تنفيذ الاوامر الصادرة بدقة (٤٤) .

أما الوثائق البريدية العائدة لفترة قرّة بن شريك فهي الوسيلة الوحيدة الواضحة التي تبين اجراءات الدولة في مقاومة الهجرة وقد نشرت وثيقتان ضمن مجموعة ليشكوف من البرديات الجورجية الروسية تتحدثان عن التدابير ضد الهجرة أيام قرّة تقول الوثيقة رقم (١) « ... في حالة وصول رسالتنا الحالية اليك اكتب اليينا حالا ماذا فعلت بشأن الهاربين ... نرجو أن يكون واضحاً لديك أنه في حالة عثوره (أي الرسول) علي أي لاجيء في كورتك ممن طلبنا اعادتهم الى قراهم فانه لن يقبل منك أو من أهل كورتك أي عذر بعد الآن » . ثم يطلب منه اعتقال كل من بقي من الهاربين في كورته وارساله مخفورا ... (وكتب الى صاحب الكورة التي جاءوا منها حول ارسالهم اليه ومن ثم اعادتهم الى قراهم التي هربوا منها . واحرص أن يكون كل اهتمامك لهذا الامر وكتب بدقة تامة حول عددهم لكي لا تتحمل أية مسؤولية ، واذا ما وجد رسولنا منهم شخصا واحدا فان العقاب الذي ينتظرك سيكون شديداً » . والرسالة تعود لسنة ٩١/٧١٠هـ (٤٥) . وتفصل الوثيقة رقم (٢) ضمن المجموعة نفسها الحديث عن قضية الهاربين فتقول : - « ... فقد أرسلنا الى أسفل الارض أشخاصا لكي يقوموا باعادة كل الاشخاص الذين هربوا من أرضك خلال العشرين سنة الماضية . وعند وصول كتابنا هذا اليك أبعث فوراً ثلاثة من الرجال الموثوقين للبحث عن الهاربين وليعرفوا من أي القرى هربوا ... لاستلام من يعثر عليه ومعرفة أعدادهم لاعادتهم اليك بعد تسجيل أسمائهم ، وكتب الى رؤساء قراهم ليؤمنوا سكنهم لمدة شهر وسنقوم ان شاء الله بدفع التكاليف لهم . واذا وجد شخص من كورتك غادرها في العام الماضي وعرف أهل قريته مكان اقامته فاكتب لنا عنه مع اسم المكان الذي هرب منه لترسله اليك ... » وبين في نهاية الرسالة أن الذي قدم له المأوى مكلف بدفع غرامة ثقيلة (٤٦) ، ونود هنا أن ننوه أن ملاحقة الهاربين تعود الى من هرب من قريته قبل

عشرين سنة وليس الهاربين حديثا ، اضافة الى ان الدولة حاولت تقديم المأوى العاجل للهاربين لمدة شهر مما يذكر بما فعله الحجاج من تقديم السلف للفلاحين . وهنا تبدو المعونة للمساعدة على اعادة ترتيب اوضاع المعادين الى قراهم .

اما البرديات التي نشرها Bell في مجلة Der Islam مترجمة من اليونانية الى الانكليزية ففيها كثير من الوثائق التي تلقي ضوءا ساطعا على تدابير قرّة بن شريك ضد الهجرة التي اراد السيطرة عليها . ولكنه لم يوفق كما يبدو ، وهذه الوثائق والتي تمثل رسائل الوالي المتضمنة الاوامر الصادرة بشأن الهجرة تعود لسنتي ٩٠-٩١ ، ونظرا لاهميتها في اجلاء الصورة هنا نرى استعراضها مباشرة : -

تتحدث البردية رقم ١٣٨٤ عن غرامات فرضها قرّة على الهاربين ومن يساعدهم على الهرب أو يتوانى في منع الهرب من مسؤولي الكور ، وتشجيع عملية البحث عن الهاربين برصد الجوائز لمن يدلي بمعلومات تعين على القاء القبض عليهم . تقول الرسالة ... (عند استلامك كتابي هذا أجمع الزعماء والجيش في كورتك واقرا عليهم هذه الرسالة ومرهم ان يكتبوا نسخة عنها لكل مكان في كورتك لتقرأ على الناس وتشر في كنائسهم) ثم يطلب ارسال من لديهم من الهاربين خلال مهلة محددة (واذا أثبت بأن لديهم هارباً فسجل اسم كل واحد منهم واسم والده والمكان الذي هرب منه وغرمه ٥ سوليدوس واجلده ٤٠ جلدة وأرسله الينا مخفورا) ... ثم يتابع أمره : (لذا فاننا سنرسل رجلا الى كورتك لاجراء تحقيق دقيق بخصوص الهاربين واذا وجد أن أي شخص قد دخل كورتك بعد اصدار القائمة فيجب تغريمه ٥ سوليدوس والشخص الذي قدم له المأوى ١٠ سوليدوس وزعماء قريته والشرطة التابعة له يغرم كل منهم ٥ سوليدوس) ، ثم يعلن مكافأة لمن يدلي بمعلومات عن أي هارب ٢ سوليدوس ، وتنتهي الرسالة كمادة قرّة في الرسائل العربية أيضا بالتهديد والوعيد اذا ما بدى من صاحب الكورة أي تقصير في تنفيذ ما صدر اليه من اوامر (٤٧) .

وتطلب الوثيقة رقم ١٣٣٤ من المرسل اليه أن يحضر الى الفسطاط ويحضر معه سجلا بأسماء الهاربين من كورته كاملة ، وذلك ضمن التقرير الذي يجب احضاره عن أموال الكورة (٤٨) . وتحمل البردية رقم ١٣٤٣ اوامر أكثر تفصيلا مما سبق فيما يتعلق بموقف الدولة من الجلاء أو كيفية معالجته وتبدأ بالحديث عن الهاربين ، مع العلم أن بداية الوثيقة مفقودة ، اذا مر صاحب الكورة « .. بارسالهم الينا مع عائلاتهم واكتب سجلا بأسمائهم الكاملة والاماكن التي هربوا اليها من كورتك ومقدار ممتلكاتهم بحيث يتضمن السجل أسماء كل من وجد في الكورة منتهكا للاوامر التي اصدرناها والزمن الذي مضى على هروبه في الكورة وما يملك واسماء من سمح له بالبقاء في كورتك .. ثم يقول : أننا امرنا رسولنا أن لا يغادرك حتى ترسل معه كل الاشخاص حتى اخرهم من عثر عليه في كورتك منذ عشرين عاما وما بعدها وترسل معه أيضا في

سجل خاص اسماء جميع الاشخاص الذين سيتم ارجاعهم .. وبعد الحديث بلهجة التهديد في حالة التقصير بفرض الغرامات المالية والعقاب على الهاربين والمسؤولين في كورتهم ومن يأويهم يطلب الوالي قراءة الرسالة على جميع سكان الكورة ونشرها في كنائسهم ، يقول : .. وإن شاء الله أننا لن ندع كورة من كور مصر الا وسنرسل لها الرجال الاكفاء والعمال المخلصين مع تعليمات بالتفتيش والبحث عن الهاربين بكل حرص ودقة . وسنقوم بتخصيص مبالغ كبيرة لكل من يقوم بالادلاء بمعلومات تتعلق بالهاربين الذين أمرنا بترحيلهم . وكل من يصل إلينا أنه قدم المأوى لهارب بعد رجوع رسولنا إلينا فانه سيرى أن الاموات محظوظين عندما يواجه العقاب الذي ينتظره لقاء عصيانه الاوامر « (٤٩) » ، ويبدو أن كل هذا التهديد لم يجد نفعا ولم يؤد الى نتيجة مرضية ، لذا نرى الوالي يرسل رسالة أخرى وتحمل رقم ١٣٤٤ يشكو فيها بوضوح من عدم تنفيذ الاوامر وأن صاحب الكورة لم يقم بإرسال أي من الهاربين اليه .. ويبدو أن الوالي لم يبق لديه الا التهديد بالرسائل ربما لان الامور وصلت درجة من عدم الانضباط جعلت اوامره دون جدوى ، لذا نجده يقول : « .. لذلك قم بحث الاشخاص في كورتك فيما يتعلق بأمر الهاربين من أنصنا لان أيا منكم لن يجد له عذرا فيما اذا عثر في المكان الذي يعيش فيه على أي من الهاربين سواء في كرمه أو ساحة بيته أو بستانه فأحرص على حياتك وحياة أهل كورتك » (٥٠) . وهذا يذكرنا بما ذكره ساويرس بن المقفع عن تعليمات اسامة بن زيد عندما طلب عدم ايواء الهاربين (٥١) . وتمثل بردية قبطية ايصالا بوصول الهاربين المعادين الى أمكانهم ، اذ أرسلت رسالة الى الوالي بخصوص بعض العائلات التي هربت الى طيبة ولكنها أعيدت من قبل حاكم المدينة الى قراها الاصلية . وتمثل هذه الوثيقة اثباتا بأن جميع هذه العائلات قد عادت فعلا ، ولذا قلنا انها تمثل ايصالا باستلام هذه العائلات فعلا (٥٢) . ومن هذه الوثيقة نلاحظ بعض النجاح في ملاحقة الهاربين .

إن مثل هذه المراسلات لدليل واضح على مدى اتساع المشكلة وعلى ضيق الدولة من استفعالها . فقد بينت الوقائع أن هذه الاجراءات لم تتمكن من ايقاف الهجرة ، على الرغم من صرامتها ، والغرامات التي كانت تفرض على الهاربين وعلى من يأويهم ومن يتقاضى عنهم ، وعلى الرغم من اعلان الجوائز لمن يدلي بمعلومات تسهل مهمة التفتيش ، واللجان الخاصة التي شكلت لالقاء القبض على الهاربين واعادتهم . وتشعر الوثائق أن نجاح هذه الاجراءات كان ضئيلا ، كما تدل أن الادارة سمحت للبعض بالبقاء في مناطق الاقامة الجديدة مع التذكير بأن عليهم دفع التزاماتهم (بخاصة الجزية) فيها ، وقد يفهم من هذا اعتراف الدولة بعجزها تجاه الهجرة ولو ضمينا . والدليل ان الدولة اضطرت للتعامل مع الواقع الجديد أن بعض القوائم الضريبية أشر فيها مقابل بعض اسماء المكلفين بكلمة « ساح » (٥٣) أي أن المعني ترك مكان اقامته وذلك

لحصر وتدقيق الضرائب كما نعتقد ، ورغم أن هذه الوثيقة تعود لفترة لاحقة إلا أنها تدل على أن عملية الهجرة استمرت فيما بعد حتى أن المخزومي الذي وضع كتابه « المنهاج » في أواخر القرن السادس الهجري يتحدث عن مسألة الهاربين وعملية حصرهم في السجلات الضرائبية ويسميه الهارب (٥٤) . ويبدو من أحد التقارير، الذي كتبه بعض الموظفين المسؤولين عن ملاحقة أحد الهاربين ، أن مسألة الفقر لا تمثل أساس الهجرة أو لا تحتل الدرجة الأولى على الأقل بالنسبة لهذه الحالة ، وهي تتحدث عن ملكية هذا الشخص الذي هرب واسمه جرجه جاء في تقرير الموظفين المكلفين بملاحقة الجلاء الى رئيسهم ما يلي : (. . فدخلنا في قريته . . فوجدنا له ١٦٢ ضانية و ٦٢ خروفاً ومن البقر ٢٥ بين صغير وكبير وسبعة من البراذين وثلاثة أجمال وبكرا وخمسة أحمر بين صغير وكبير) (٥٥) . فلماذا يهرب من يملك كل هذه الماشية رغم أن التقرير لم يتطرق الى ملكيته من الأرض ونستطيع أن نقول باطمئنان أنه لم يغادر قريته هرباً من الجزية لانه قادر على دفعها من جهة ولأن الجزية لا تسقط عنه بالهروب كما لاحظنا مما سبق من وثائق . ولذلك لابد أن يكون هروبه لسبب آخر فهل كان سوء الاوضاع الاقتصادية بشكل عام . . ؟ ، وهل كان العمل في الأرض والماشية غير كاف لتلبية متطلبات الحياة اضافة للوباء . فهل كان الفلاء والوباء وراء استفحال الهروب ، أو السعي الى المدن سعياً وراء كسب أسهل ؟ . كل ذلك ممكن وان كنا نعتقد أن الغرض الاخير قد يصدق على العراق باللجوء نحو البصرة أو الكوفة ، ولكن الهجرة هنا مختلفة إذ ليس لدينا أي نوع من التذمر حول مجيء أهل القرى للمدن كالفسطاط ، ولكن هروبهم كان نحو الكور الاخرى التي لا تختلف من حيث ظروف المعيشة عن المنطقة التي هاجروا منها ، ولذلك فهذا مستبعد بالنسبة لهجرة الفلاحين في مصر . أما سوء الاحوال العامة وعدم مقدرة الأرض على اعادة أهلها وتقديم ما عليهم من تكاليف فتبدو هنا أكثر قبولا ، لاننا عثرنا على وثائق يطمئن مصدرها الهاربين بأنهم لن يطلب منهم شيء سوى الجزية اذا ما عادوا الى قراهم (٥٦) .

وأخيراً نود أن نبين أن الوثائق كانت تتحدث باستمرار عن الصعيد في حين يمكننا القول أن الصورة اكتملت عن طريق ما رواه ساويرس بن المقفع لانه تحدث عن مصر السفلى ، ولا حظنا توافق ما رواه في كثير من الاحيان مع ما ورد في الوثائق الرسمية .

ويمكننا أن نتحدث عن سوء الاحوال الاقتصادية بناء على ما ذكره ساويرس الذي بين أن هذه الاحوال ساءت ابتداء من أيام عبد الله بن عبد الملك عندما تحدث عن القحط وغلاء الاسعار الذي اجتاحت مصر سنة ٨٧هـ (٥٧) ، اضافة لما ذكره ابن تغري بردي من أن النيل بلغ أقل من أربعة عشر ذراعاً في سنة ٨٦هـ ، وفي السنوات الثماني

التالية لم يصل فيضان النيل الى السبعة عشر ذراعا الا مرة واحدة (٥٨) ، ومصر لا تروى الا عندما يصل النيل الى الثمانية عشر ذراعا . ولذلك لاحظنا تفاقم الهجرة وزيادة مدتها في هذه الاونة خاصة أيام قره بن شريك ، الذي انشأ ادارة خاصة وجعلها بادارة شخص يذكره ساويرس باسم عبد العزيز من سخا ، وكانت مهمته ملاحقة الهاربين والقاء القبض عليهم وفرض عقوبات صارمة وغرامات عليهم وعلى من يتستر عليهم ، ثم اعادتهم لقراهم (٥٩) ، ومع كل ذلك لم يكتب لقرة النجاح بايقاف الهجرة لذا تابع خلفاؤه أسامة بن زيد وعبيد الله بن الحجاب وابنه القاسم المهمة باجراءات أكثر حزما ، أما في العراق فأننا نعتقد أن مشكلة الهجرة كانت أضيق نطاقا وامكانية السيطرة عليها اكبر لانها كانت من القرى الى المدن ولذلك كانت الاجراءات اكثر نجاحا مع انها لم توقفها تماما .

* * *

الهوامش

Becker, C. H. , Neue arabische papyri des Aphroditofundes , Der Islam Vol. 2 , 1911 , p. 256 Nr. 4 (Becker , NAPA , Der Islam) .

Arabische papyri des Aphroditofundes, Zeitschrift für Assyriologie , Vol. 20 , 1907. p. 83. Nr. 7 (Becker , PAF , ZA) .

Becker, Papyri Schott-Reinhardt I , Heidelberg , 1906 (Becker, PSRI) .

(١٦) البلاذري - أحمد بن يحيى بن جابر (٢٧٩ هـ)
فتوح البلدان ، تحقيق دي غويه ، بريل -
ليدن ١٨٦٥ ص ٢٩٢ - ٢٩٣ ، ٢٩٤ (البلاذري ،
فتوح) .

أنظر قدامة بن جعفر الكاتب (٣١٦ هـ)
الخراج وصناعة الكتابة ، تحقيق محمد حسين
الزبيدي ، بغداد ١٩٨١ ص ١٦٩ - ١٧٠ .
(قدامة بن جعفر - الخراج) .

(١٧) قارن مع الطبري ، ج ٦ ، ص ٢٥٧ .
(١٨) جمال محمد جودة ، العرب والارض في العراق
في صدر الاسلام ، عمان ، ١٩٧٩ ، ص ١١٣
جمال جودة ، العرب والارض) .
(١٩) صالح العلي ، التنظيمات ، ص ٢٣٣ .
(٢٠) هنا يجب ملاحظة ذكر البصرة تحديدا ربما
لتفتي الهجرة اليها .

(٢١) الطبري ، ج ٦ ، ص ٢٨١ ، أنظر صالح
العلي ، التنظيمات ، ص ١٠٠ - ١٠١ .
(٢٢) الجهشاري ، محمد بن عبدوس (٣٣١ هـ) ،
الوزراء والكتاب ، تحقيق مصطفى السقا
وآخرون ، نشر مكتبة ومطبعة مصطفى البابي
الحلي . الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٨٠
ص ٥٧ . (الجهشاري) .

(٢٣) المبرد ، أبو العباس محمد بن يزيد (٢٨٥ هـ) ،
الكامل في اللغة والادب ، جزاء في مجلد

(١) الطبري ، محمد بن جرير (٣١٠ هـ) تاريخ
الرسيل والملوك ، ١٠ أجزاء ، تحقيق محمد
أبو الفضل ابراهيم ، دار المعارف ، الطبعة
الثانية ، القاهرة ١٩٦٦ - ١٩٧٠ ، ج ٦ ،
ص ٢٨١ (الطبري) أنظر صالح أحمد العلي
- التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة
في القرن الاول الهجري ، دار الطليعة ، الطبعة
الثانية ، بيروت ، ١٩٦٩ ص ٢٣٣ (صالح
العلي ، التنظيمات) .

(٢) ساويرس بن المفتح (القرن الثالث الهجري) ،
سير أباء الكنيسة القبطية في الاسكندرية ،
تحقيق س. ف. سيبولد ، لوبلا ١٩٠٤ ص ٨
(ساويرس) .

(٣) ساويرس ص ١٤٣ أنظر المقرئ ، تقي الدين
أبو العباس أحمد بن علي (٨٤٥ هـ) ، الخطط
المقرئية ، جزاء ، مطبعة بولاق ، القاهرة
١٨٥٣ ، أوفست ، ج ٢ ، ص ٤٩٢ (المقرئ ،
الخطط) .

Grohmann, Adolf. probleme der
arabischen papyrusforschung,
Archiv orientalni Vol. 6. 1934.
p. 128 (Grohmann, Av. or.)

(٤) ساويرس ، ص ١٤٥ .
(٥) ساويرس ، ص ١٤٩ .
(٦) أنظر الوثائق في ثانيا البحث
(٧) ساويرس ، ص ١٤٩ .
(٨) ساويرس ، ص ١٥٠ .
(٩) ساويرس ، ص ١٥١ .
(١٠) ساويرس ، ص ١٥١ .
(١١) ساويرس ، ص ١٥١ .
(١٢) ساويرس ، ص ١٥١ .
(١٣) ساويرس ، ص ١٥٢ .
(١٤) ساويرس ، ص ١٥٤ .
(١٥) جروهمان ، أدولف ، أوراق البردي العربية
في دار الكتب المصرية ، ٦ أجزاء ، نشر دار
الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٩٣٤ ، ج ٣ ،
ص ٨ (جروهمان ، أوراق البردي العربية) .

قارن مع فالح حسين ، حول الجزية والخراج
بمصر في القرن الاول الهجري ، المجلة العربية
للعلوم الانسانية ، مجلد ٨ عدد ٣٠ ، ١٩٨٨ ،
ص ٧٧ وانظر أيضا في الهامش رقم ١٦ (فالح
حسين ، حول الجزية والخراج ، المجلة
العربية للعلوم الانسانية) .

Grohmann , Ar. Or. Vol. 6, p. 147 - 148 . (٢٤)

جروهمان ، أوراق البردي العربية ج٣ ، ص
١٣٥ وثيقة رقم (١٨٠) . (٢٥)

Becker , PSRI , p. 108 - 113 Nr. a - m . (٢٦)

وانظر جروهمان ، أوراق البردي العربية ،
ج٣ ، ص ٤٨ - ٤٩ وثيقة رقم (١٦٠) ص ٥٢
رقم ٦١ ص ٥٤ ، رقم (٦٢) ص ٥٥ ، رقم ١٦٣ .

جروهمان ، أوراق البردي العربية ، ج٣ (٢٧)
ص ١١٩ وثيقة رقم ١٧٥ وانظر ص ١١٦
الوثيقة رقم ١٧٤ المؤرخة سنة ١٠٣ هـ اومدة
الاجل فيها خمسة أشهر من شعبان الى ذي
الحجة من نفس العام . وانظر أيضا :

Becker , PAF , AZ, Zo , p. 102 - 103 Nr. 7.

Till , W. Die Koptische Rechturkunden der papyrussammlung der Österreichischen Nationalbibliothek, Wein , 1958 p. 27 - 28 (Till, KR) Hussein, Das Steuersystem in Ägypten - p. 164 . (٢٨)

Grohmann , Adolf. Aprecu de papyrologie Arabe , Etudes de papyrologie, Cairo ,1952 p. 50 (Grohmann, Apreçu .) (٢٩)

Grohmann, Ar. Or. Vol. 6. p. 392 (٤٠)
Becker , NAPA , Der Islam , 2, p. 257 - 258 . Nr. 6 (٤١)

PAF , AZ , Zo p. 96-97 , Nr. 16,
PSRI , p. 96 Nr. 12

واحد ، مكتبة المعارف ، بيروت ٤ . ج ١
٢٩٧ (المبرد ، الكامل) .

(٢٤) ابن قتيبة ، عبد الله بن مسلم (٢٧٦ هـ) ،
المعارف ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٩٨٧ ،
ص ٦٠١ (ابن قتيبة ، المعارف) ، الطبري ،
ج ٦ ، ص ٣٢٥ .

(٢٥) ساويرس ، ص ١٤٩ - ١٥٠ .

(٢٦) ابن حوقل ، أبو القاسم محمد بن علي
(٣٥٦ هـ) ، صورة الارض ، دار مكتبة الحياة ،
بيروت ص ٢١١ .

(٢٧) ابن رسته ، أحمد بن علي (٢٩٠ هـ) الاعلاق
النفسية ، تحقيق دي غوبه ، بريسل - ليدن
١٨٩١ أوفست مكتبة المنى ، بغداد ص ١٠٥
(ابن رسته) .

(٢٨) انظر لتفصيل ذلك ، جمال جودة ، العرب
والارض ص ١١٥ .

(٢٩) انظر :

F. Hussein, Das Steuersystem in Agypten von der arabischen Eroberung bis zur machtergreifung der Iulunden 19 - 254/639 (mit besonderer Berücksichtigung der Papyrusur - Kunden) Verlag Peter Iang, Frankfurt/M-Bern. 1982, p. 160 (Hussein , Das Steuersystem in Agypten ..)

(٣٠) قارن مع جمال جودة ، العرب والارض
ص ١١٥ :

(٣١) الجبشيارى ، ص ٥٧ .

(٣٢) ساويرس ، ص ١٤٣ ، المقرئى ، خطط ج ٢ ،
ص ٤٩٣ .

Grohmann, Ar. Or, Vol. 6. p. 128.

Till, W. Die koptischen Ostraka der Papyrussammlung der Österreichischen Nationalbibliothek , Denkschr. Bd. 78, Abt. I. Wien, 1960, P. 535 Nr. 10, P. 532 Nr. 1 (Till, KOS) . (٣٣)

- (٥٣) انظر جروهمان ، أوراق البردي العربية ، ج ٣ ، ص ٢٣ - ٢٤ وثيقة رقم ١٥١ .
- (٥٤) المخزومي ، علي بن عثمان بن يوسف القرشي المخزومي (٥٨٥ هـ) ، مخطوطة ، **النهاج في علم الخراج بمصر** ، مكتبة المتحف البريطاني رقم Add 23483 ورقة ٧٨ وجه
- (٥٥) وهي غير مؤرخة
Grohmann , Ar. Or. 6, p. 148 .
- (٥٦) قارن مع
Till, W, KR., p. 48 , 215 , 218 , 224 , 225 , 228 .
Till, Koptische Schutzbriefe Mitteilungen des Deutschen Instituts für Ägyptische Alterumskunde in Kairo. Bd. 8, Berlin, 1939, p. 84-85 Nr. 18 , 20 , 21 , p. 88, Nr. 22-28. P. 93 Nr. 39-40, P.95, Nr.41
Crum, W. E. **Coptic Ostraca « From the collections at the Egypt Exploration - Fund »** . London, 1902 p. 21 Nr. 108, 110.
Hussein, Das steuersystem in Ägypten , p. 160 .
- (٥٧) ساويرس ، ص ١٤٥ .
- (٥٨) ابن تفردي بردي ، جمال الدين أبو المحاسن يوسف (ت ٨٧٤ هـ) .
النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، القاهرة ١٩٦٦ بالانفست ج ١ ص ٢١٣ وما بعدها .
- (٥٩) قارن مع ساويرس ص ١٤٩ .
- (٤٢) جروهمان ، أوراق البردي العربية ، ج ٣ ، ص ٢٣ - ٢٤ وثيقة رقم ١٥١ .
Becker , NAPA , Der Islam , 2, p. 263 Nr. 10 .
- (٤٣) جروهمان ، أوراق البردي العربية ، ج ٣ ، ص ٢٥ - ٢٦ وثيقة رقم ١٥٢ .
المقصود هنا الجزية بالذات كما بينت الوثائق الأخرى .
- (٤٤) Bell , H. I. Translation of the **Greek Aphrodito Papyri in the British museum, Der Islam, 2, P. 269-70 (Bell, Der Islam)** .
- (٤٥) Zereteli , G. **Papyri Russ-Georg. Sammlung, Die Kome-Aphrodito Papyri der Sammlung lichacov 11, p. 6-7, Nr. 1 (Zereteli)** .
- (٤٦) Zereteli , p. 9-10 Nr. 2
- (٤٧) Bell, Der Islam, 2, p. 379-80
- وانظر أيضا الوثيقة رقم ١٣٨٢ ص ٣٧٩ .
- (٤٨) Bell, Der Islam, 2, p. 273 .
- (٤٩) Bell, Der Islam, 2, p. 274-75 .
- وهذا يذكر بالعقاب الذي تحدث عنه ساويرس أيام قره وبعده .
- (٥٠) Bell, Der Islam, 2, P. 275 - 76.
- (٥١) انظر ساويرس ص ١٥١ .
- (٥٢) Kenyon , **Greek papyri in the British museum, Catalogue with texts Vol. IV , London , 1917 .**
حيث نشر Kenyon فيه بعض الوثائق القبطية الى جانب الوثائق اليونانية التي نشرها Bell .

طريق الحرير ١٩٩١

الطريق وسيلة وصل حضارية بين الشعوب

د. ساطع محلي

جامعة دمشق

الطريق شرط أساسي من شروط استمرار الحياة ، عليها يقضي المرء جزءا كبيرا من حياته ، وبوجودها يتقدم الانسان ويزدهر نشاطه ، وفي غيابها نكبة وعزلة قاتلة . وهي وسيلة طيبة للمعرفة والكشف ونقل البضائع والمتاع والافكار ، بواسطتها تمزج الثقافات ويتصل الانسان بالانسان في الاصقاع القريبة والبعيدة على سطح الارض . وهي ما زالت في عصر الفضاء ، بأشكالها ودرجاتها المختلفة ، لم تفقد أهميتها على مر الزمان . قطعها الناس مشيا على الاقدام وعلى ظهور الحيوانات ثم ، مع اختراع الدولاب ، بوسائل النقل المختلفة ، من العربة الى القطار الحديدي ، ثم بالسفينة والسيارة ..

وقد ازدهرت في تاريخ العالم طرق برية مهمة كانت تصل بين مناطق النشاط البشري القديمة أدت الى نشوء عدد كبير من المراكز العمرانية المستقرة كمحطات لقوافل المسافرين والبضائع في الاماكن التي كانت تتمتع بظروف طبيعية مناسبة يتوافر فيها الامن . وكانت هذه الطرق تتحاشى الاخطار وتجنب مصاعب الطبيعة بوسائل مختلفة أهمها الانتقال من مكان الى مكان ، اذ لم تكن ، بمعظمها ، مقيدة بمسارات ثابتة على الارض الا في الامكنة التي لا يمكن التحول عنها ، كالخنادق الجبلية ومعابر الانهار . فهي في هذا المعنى حرة طليقة تسير حيث يسهل السير وتتوافر لها الحماية والطقس المناسب والماء والغذاء .

وأكثر الطرق شهرة في الماضي كانت تلك الطرق ذات الصفة الدولية ، أي التي وصلت بين الشعوب وانتقلت عليها ، بالإضافة الى البضائع ، الثقافات والافكار ، وعليها سارت قوافل التجار والمكتشفين والباحثين عن المعرفة والدعاة الى الدين قبل أن يستخدمها المحاربون والطامعون في ثروات الآخرين . وبذلك كانت طرق التجارة هي الأكثر مرونة لاستيعاب جميع النشاطات الانسانية تقريبا .

لقد تحدث الناس على طريق الكهرمان ، وهو نوع من الحجارة الكريمة خفيفة

(*) شارك د. ساطع محلي في بعثة « طريق الحرير - طريق الحوار » التي نفذتها منظمة اليونسكو الى آسيا الوسطى عام ١٩٩١ .

دراسات تاريخية ، العددان ٣٩ و ٤٠ ، كانون الاول ١٩٩١ .

دراسات تاريخية - ٤٩ -

الوزن زجاجية الشكل بنية اللون ، أصلها من تحجر صمغ الاشجار الصنوبرية الذي كانت تقذف بها أمواج بحر البلطيك على شواطئ القسم الشرقي من أوربا الشمالية . وتحديثا على طريق القصدير الذي كان ينقل قصدير انكلترا الى البر الاوربي مارا بأودية أنهار الالبى والراين والسين والرون والدانوب ، وعلى طريق الملح والذهب ، الذي كان يعبر الصحراء الكبرى قادما من شواطئ البحر المتوسط قاصدا الى وسط القارة الافريقية والسودان . وهناك الطرقات الرومانية التي كانت تصل بين أجزاء الامبراطورية الرومانية المختلفة وتستخدم للتجارة أيضا ، وان كان الهدف الرئيسي من انشائها في الاساس السيطرة على المستعمرات وخدمة الاغراض العسكرية ، ويقال بأن طولها بلغ في زمن تراجان ٨٠ الف كم ، ومنها أجزاء تشاهد حتى الان في أماكن كثيرة في القطر السوري بما يبدو من بقاياها المرصوفة بالحجارة الكبيرة وما بقي عليها من جسور وشواهد مادية أخرى .

ومثل هذه الطرقات عرفت القارات الاخرى ومنها بلاد العالم الجديد ، ففي أمريكا الجنوبية اشتهر شعب الانكا بانشاء شبكة من الطرق التي تصل مناطق كثيرة في مرتفعات جبال الانديز بعاصمة دولة الانكا القديمة ، مدينة كوزكو . وهي الطرق التي استخدمها فيما بعد الاوربيون للتوغل في البلاد الحديثة والاستيلاء على الارض ونهب ثرواتها .

وقد انفرد من الطرق في التاريخ طريق رئيس وطرق فرعية عبرت اسيا من شرقها الى غربها ومن غربها الى شرقها ، وأتى ذكرها بأسماء مختلفة منذ ما قبل ميلاد السيد المسيح الى عصرنا الحاضر . لقد أخذت هذه الطرق اسماءها من غلبة هذا النوع أو ذاك من البضائع التي كانت تنقل عليها بوسائل النقل التقليدية المعروفة ، وهي الجمال والخيول والبغال . فهي طرق للشاي والتوابل والذهب والحجارة الكريمة ، وبخاصة طرق للحريز ، وهي من جهة أخرى طرق التواصل الحضاري ونقل المعرفة ، وفي الاوقات العصيبة طرق الجيوش أيام الحرب .

ومن الطرقات الأكثر شهرة في العالم القديم قبل الاسلام وبعده تلك التي كانت تنطلق من الجزيرة العربية في الشتاء والصيف الى البلاد المجاورة وتعود اليها ، وتسير عليها قوافل تتجه الى الجهات الاربع لاسيا واسيا الصغرى وافريقيا ، في رحلات منظمة دخلت أخبارها في كتب التاريخ واشتهر منها ، غير ما اشتهر من أصناف التجارة ، أصناف من المقاصد النبيلة التي دخلت في باب التراث العربي الاسلامي خدمت الدين والمعرفة والعلم والادب .

مسار طريق الحرير : من خلال المواقع والمراكز البشرية عليه

لم يعد الاعتقاد القديم ساريا بوجود طريق واحد للحرير يصل بين الصين

والغرب، ظل محافظا على مساره طوال مئات السنين . والطرق التجارية الأخرى التي كانت تسير عليها القوافل إلى الجنوب والجنوب الغربي نحو بلاد فارس والهند والآناضول وشبه الجزيرة العربية لا يمكن اعتبارها منفصلة عنه .

ويرى أوليغ Uhlig (١) أن طريق الحرير بدأ أول ما بدأ في شرق آسيا من قانسو في « جبال السماء تيين شين » إلى ما يسمى بمنطقة الغابات في المناطق الآسيوية الجنوبية من روسيا ، ومنها إلى مصب نهر الدون ثم إلى بحر آزوف ، ومن هناك يذهب فرع منه ليصل مناطق شمال آسيا بأوروبا الشرقية والشمالية .

ويؤيد أوليغ القائلين باتجاهات ثلاثة رئيسة لطريق الحرير : الأول الذي يربط الصين بالهند وجنوب شرق آسيا ، والثاني الذي يربط الدول الآسيوية القديمة بأوروبا (أو ما يعرف بطريق الحرير الشمالي أيضا) ، والثالث الاتجاه الذي عناه فرديناند فون ريشتهوفن (٢) ، وهو الطريق الجنوبي لمبور القوافل بين الصين وغرب آسيا الذي اشتهر باسم « طريق الحرير » .

وهذه الاتجاهات الرئيسية الثلاث التي تشكل المحاور الكبرى يتفرع عنها عدد من الطرق الفرعية التي خدمت خلال التاريخ الغرض نفسه ووردت في المصادر اليونانية والرومانية والعربية . والقرائن التي تدل على الصلة بينها وبين الاتجاهات الرئيسية المذكورة سابقا وجدت في عدد من المكتشفات الأثرية وأكدت على الصلات الوثيقة بينها وبين بلاد طريق الحرير ومنتجاتها الحضارية الثقافية والمادية . وأهم هذه الفروع للتاريخ العربي والإسلامي هو الفرع الذي يتجه نحو الجنوب الغربي قادمة من بلاد « ما وراء النهر » وجنوبي بحر الخزر إلى بلاد فارس والرافدين وبلاد الشام .

يفترق هذا الفرع لطريق الحرير على جانبه الغربي في رأي أوليغ أيضا متجها إلى مدينة مرو ويحاذي الشاطئ الجنوبي لبحر الخزر ويسير إلى همدان ، في الشمال الغربي من إيران ، ثم يتفرع إلى فرعين اثنين آخرين ، أحدهما يذهب إلى سلوقيا باتجاه الخليج العربي بينما يتجه الفرع الآخر الأكثر أهمية نحو مدينة تدمر في بادية الشام التي كانت على الدوام مركزا تجاريا متقدما بين الشرق والغرب والشمال والجنوب ، فيها تمر جميع البضائع تقريبا التي عرفها العالم القديم وليس بضائع طريق الحرير فقط ، وفيها يجري التبادل التجاري بين جميع المناطق الحضارية في منطقة اتصال القارات القديمة الثلاث أوروبا وآسيا وأفريقيا . ويؤكد أوليغ على أهمية تدمر بقوله : « كانت تدمر نقطة التقاء الجميع وحافظت على غناها

Uhlig, H. Dieseidenstrasse 1990.

(١)

Franz H. C., Diéseidentrasse 1987.

(٢)

وازدهارها التجاري مئات السنين ، بل كانت أغنى وأجمل المدن المعروفة على طريق الحرير الغربي ، وهذا ما تؤيده الآثار العظيمة التي لا تزال حتى الآن بادية فيها . . . ومظاهر بناء مدينة تدمر تبدي الاهتمام بالجانب التجاري الرئيس فيها فوصفها بأنها مدينة الالهة عائد الى تلك الشوارع الضخمة ذات الاعمدة والاسواق الجميلة التي كانت ممثلة بالبضائع المتجمعة فيها من جميع أنحاء العالم « ويقدر أوليغ المسافة التي كانت تقطعها القوافل بين عاصمة الصين وتدمر بمسيرة ست سنوات للذهاب والاياب . وهذه في رايه مسافة قصيرة في ظروف ذلك الزمن لقرب تدمر من مراكز التجارة الاخرى في جنوب الاناضول والبحر المتوسط والبتراء والبحر الاحمر في الطريق الى الاسكندرية . وهذه الاخيرة لم تكن اهميتها التجارية بالنسبة للبضائع الثمينة تقل عن مدينة روما .

ومهما يكن من أمر فان تحديد مسار طريق الحرير الدقيق مع فروعه كان صعبا ولا يزال كذلك لاسباب كثيرة منها القطيعة الطويلة التي سببتها حدود صعبة العبور خلفتها التطورات السياسية خلال العقود الاخيرة وخاصة وجود كتل كبيرة ثلاثيمر فيها الجزء الاكبر من طريق الحرير مثل الصين الشعبية والاتحاد السوفيتي ودول أوروبا والبلاد الاخرى في غربي اسيا وجنوبها الاوسط . ومنها اختلاف اسماء المراكز العمرانية والمواقع التي وردت في تراث الدول التي مر بها طريق الحرير عن الاسماء المستخدمة أو المعروفة حاليا نتيجة لاسباب كثيرة منها التحريف الذي لحق بها ومنها الاخطاء التي حصلت في النسخ والطبع ، ونتيجة للترجمة والقراءات المختلفة للاسماء الواردة في لغات متعددة . ومعرفة المراكز العمرانية والمواقع ضرورية جدا لتحديد مسار طريق الحرير لانها في الواقع نقاط مهمة وعلامات لا بد من اعتمادها لتحديد مسار أي طريق في الماضي وخاصة في اوقات لم تستخدم فيها في انشاء الطرقات مادة مقاومة للطبيعة تبقي على المسارات واضحة على الارض الواسعة التي تخضع لعوامل الطبيعة غير المناسبة لبقائها ، ولعوامل بشرية واقتصادية كثيرة أدت الى اندثارها عن عمد أو عن غير قصد .

وهناك نقطة اخرى تجعل من الصعب تحديد الطريق تحديدا تاما ، وهي الدمار الذي أصاب بعض المراكز العمرانية التي كانت ، في الماضي محطات للقوافل، وجعلها تختفي نهائيا من الواقع . ولذلك لا بد من التأكد من مواقعها عن طريق دراسة ميدانية علمية دقيقة تشترك فيها أساليب التنقيب والاكتشاف لتحديد الصورة الصحيحة للمواقع في سبيل التوصل لمعرفة الواقع في الماضي .

فكثيرا من المواقع القديمة اختفت اسمائها الحقيقية بشكل أو بآخر على الرغم من وجود آثار لمواقعها . والخطأ يحصل عند الدراسة لاسماء لاحقة بعيدة عن الاسماء

الحقيقية لها ، فهي اما أسماء أعطيت لها وهي في الواقع مجاورة أو أنها اسماء تداولها السكان في أمكنة مجاورة أو القاب أطلقها عليها آخرون أخذوها من الطبيعة المحيطة بها ونسبوها الى أسماء وضعوها هم . . الخ . وبذلك ضاعت الاسماء الحقيقية مع الزمن ولهذا يقترح وولفرام ابرهارد W. Eberhardt الذي صدرت له موضوعات كثيرة حول الصين وشعوب آسيا الوسطى ، أن يحل الخلاف على صحة الاسماء القديمة للمواقع والمعاصر بالاعتماد على الحفريات والتنقيب والاستدلال على مواقع المراكز المندثرة بالقرائن الموجودة في الارض مثل الحجارة والوثائق والنقوش والمخلفات المادية المختلفة . فهذه المكتشفات تعطي معلومات كثيرة عن صحة المواقع وأدوارها وعلاقاتها بمواضيع الدراسة وتحديد الطرقات والمظاهر البشرية والاقتصادية التي كانت سائدة أثناء حياتها .

وقضية التنقيب والاستكشاف هذه لمعرفة مسار طريق الحرير والنشاطات الانسانية التي رافقته طوال العصور الماضية كانت مطلباً لعدد كبير من العلماء المشتركين في بعثة « طريق الحرير - طريق الحوار ١٩٩١ » وكان من التوصيات الهامة الاولى التي وجهت الى منظمة اليونسكو مديد المساعدة على كشف المواقع الاثرية المندثرة أو التي أصابها الضرر في جميع أراضي آسيا الوسطى ، وانشاء معهد للبحث العلمي ومراكز دراسة متخصصة في آسيا الوسطى لهذا الغرض ، وجمع جميع ما كتب عن طريق الحرير وحضارات الشعوب التي لها علاقة به في جميع البلاد وجميع اللغات ومتابعة البحث لاستكمال المعلومات الصحيحة حول طريق الحرير منذ نشأته وحتى الان .

طريق الحرير والشروط الجغرافية

أ - **المحاور الرئيسة والمحاور الفرعية :** طريق الحرير اذن طريق تجاري رئيس بين مراكز حضارية مهمة في قارات العالم القديم ، أوروبا وآسيا ، وتتفرع عنه طرقات الفرعية ظروف التطور التاريخي لشعوب المناطق التي تمر بها ، وبخاصة الشروط فرعية متشعبة تذهب في جميع الاتجاهات تقريبا ، وتتحكم في مساره الرئيس وطرقاته الطبيعية ، فتؤدي الى تمطل الحركة عليها أو تعمل على تحويل اتجاهاتها للمحافظة على استمرار عملها . الا أن الاتجاه الرئيسي فيه محور يتجه في البر من سورية ، الدولة الأكثر نشاطا ، والتي تمتلك مفرق الطرق التجارية بين الشرق والغرب والشمال والجنوب . ففيها دمشق ، المنفذ الرئيس الى بلاد الحجاز وإلى مصر ، وانطاكية التي تسلم بضائع آسيا الى مراكز البحر المتوسط لتنقلها الى برينديزي والبندقية وجنوه ومن ثم ، عبر الطرق البرية الاوربية ، الى مدينة قادش على المحيط الاطلسي ، وفيها تدمر التي تتجه بأبوابها الشرقية الى بلاد الرافدين لتسلم البضائع

الى ثلاث طرق تجارية للحريـر فيها تأكد من وجودها المنقب الانكليزي سمبسون(*) . ومن بلاد الرافدين يتجه الطريق الى ايران وافغانستان والباكستان للاتصال بالمحور الاساسي في آسيا الوسطى .

في آسيا الوسطى يمكن أيضا أن تلمح مسارين رئيسيين متوازيين يتجهان من الشرق ليلتقيان في الاناضول في الغرب ويخرج منهما فرع الى سيبيريا الغربية وجبال الاورال . يمر المحور الرئيس الشمالي بعدد كبير من المدن الكبيرة التي ازدهرت في الماضي ولا تزال مزدهرة في الحاضر ، وبمدن أخرى ومراكز حضرية أو بدوية كانت عامرة وانقلبت مع تحول وظيفة الطريق وانقطاعه الى خرائب ومواقع أثرية تحظى الان باهتمام عدد كبير من المؤسسات العالمية في دول اسيا الوسطى والعالم .

يمر المحور الشمالي في رأي العديد من الباحثين بمدينة سمرقند (قديما افراسياب التي خربها جنكيز) ومدينة تاشكند بعد أن يقطع نهر سرداريا ويمر بمدينة انديجان شمال مدينة قوش ويتابع سيره ليمر جنوب بحيرة ايسيكول والى قوتشا وكورلا وطرفان وهامي في الشرق باتجاه الاراضي الصينية جنوب منغوليا ، أي أن هذا المحور يسير في المناطق السهلية وسفوح جبال آسيا الوسطى (جبال تيين شين الوسطى الشمالية) محاديا مناطق صحارى آسيا الوسطى . ويضطر الى عبور عدد من الاودية الواسعة (مثل وادي فرغانا) والمعابر الجبلية السهلة مستفيدا من المصادر المائية المهمة التي تأتي من الجبال فتوفر للعابرين مياه الشرب والاستعمالات المختلفة بالاضافة الى المصادر الغذائية التي يوفرها الرعاة مربو الاغنام والخيول ، وتوافر الجمال التي كانت ، مع الخيول ، وسائط نقل هامة في المناطق الجافة وشبه الجافة التي يمر بها طريق الحرير .

والمحور الغربي - شرقي الموازي الاخر يمر في آسيا الوسطى على السفوح الجنوبية لجبال آلاي وتيين شين وأوديتها المتطاولة وعابرها شمال جبال البامير الشاهقة متجنباً القمم والمرتفعات (يصل ارتفاعها الى ٧٤٩٥ م) . ويتجه الى الشرق من مدينة كاشغر الى الاطراف الجنوبية من حوض تاريم الجاف مار بـمدن جرقند وخوتان وتشيرشيك شمال جبال كون لون متجها الى تونوانغ بالصين ليلتقي بالمحور الشمالي الآخر الذي أتينا على ذكره . ويلتقي هذان المحوران الرئيسان بطرق موازية أخرى تصل بينهما مثل الطريق المار بكاشغر نحو الشمال الشرقي الى مدينة اكسو

(*) في وثيقة علمية قدمها في إحدى ندوات « بعثة طريق الحرير ١٩٩١ » في اسيا الوسطى .

وقد سبق لسمبسون أن عمل في القطر العربي السوري في تل النبي مند .

شمال نهر تاريم ، أو الطريق الذي يمر بالقسم الشمالي من أفغانستان شمال جبال هندوكوش فيعبر بلخ وقندس وشمال كشمير وجنوب جبال البامير باتجاه مدينة كاشغر .

هذه المحاور الرئيسة اختارت في آسيا الوسطى المسارات المضمونة ذات المناخ الملائم لسيرها معظم أيام السنة متجنباً الأراضي الجبلية ذات البرد القارس المكسوة بالثلوج ، كما تجنبت الصحارى الجافة عن طريق اختيارها للمناطق التي يضمن حكامها سلامة القوافل أثناء عبورها . وسيان لهذه الطرق أن مرت بالحواضر الزراعية والتجارية أو بالمناطق الرعوية ، فكلما الشكّلين من المواقع قاما بدور المنظم الحامي لطريق الحرير خلال تاريخه الطويل* .

ب - طريق الحرير - طريق السهوب :

يبدو أن الطبيعة لعبت الدور الأساسي الأول في تحديد مسار طريق الحرير في وسط آسيا . ولكن تظل الشروط الجغرافية الأخرى هي العوامل الأولى في ذلك التطور التاريخي الهام ، وعاملاً للامن والسلامة في مقدماتها .

والشروط الطبيعية يمكن تلخيصها بشرطين اثنين . أولها طبيعة الأرض وتوزيع الجبال والوديان والسهول في آسيا الوسطى . وثانيهما المناخ والطقس وتوزيع المياه والصادر النباتية وما يتبع ذلك من نتائج تنعكس إيجاباً أو سلباً على النشاط البشري،

* كان هذا موضوع الندوة العلمية الأولى في بعثة « طريق الحرير - طريق الحوار ١٩٩١ » في مدينة خيوة بآسيا الوسطى بين ٢ - ٣ أيار ١٩٩١ بعنوان « أهمية محطات القوافل والمدن على طريق الحرير الشمالي » ، وموضوع الندوة العلمية الثانية للبعثة في مدينة ألماتي بتاريخ ١٧ حزيران ١٩٩١ التي ركزت على العلاقات المشتركة بين المراكز الحضرية والرعوية على طريق الحرير . فالمراكز الحضرية والمراكز الرعوية قدمت في آسيا منجزات ثقافية ناضجة متقدمة في ميادين الفكر والفن ، والثقافة بعامة بين جميع المدن والواحات ومحطات القوافل والمراكز التي ثبتت على الأرض ردحا كافياً أفاد المجال لظهور نشاطات ثقافية كنت تختص بها المدن عادة .

قدم في ندوة ألماتي - الندوة العلمية ٢٧ موضوعاً ركزت أفكارها حول رفض الفكرة السائدة عن الدور الضئيل الذي كانت تلعبه الشعوب الرعوية في المنجزات العالمية . ودافع عدد من المتحدثين عن الدور الإيجابي للشعوب الرعوية خاصة السيد سمبسون الذي اعتبر أن طريق الحرير كان بمثابة المبرر لشعوب كثيرة . منها البدوية ، حملت الحضارة إلى المناطق التي زارتها ونزلت بها . فالبدو كانوا ناقلين حضارة عالية لا تعترف بالحدود على الكرة الأرضية ، كذلك فعلت مصر وبلاد الرافدين ودول الشرق الأدنى التي انتشرت فيها طرق القوافل ، ومنها الطريق بين خوارزم وسبيرييا الغربية والبلطيك . كما أكدت المؤرخة الروسية السيدة ليفيا على العلاقات الطيبة التي كانت للشعوب الآسيوية البدوية مع المستقرين في مناطق العبور وأيدها الأستاذ بوريانكوف من المعهد الأثري في مدينة سمرقند باعتقاده بوجود نظام كبير متوازن مترابط بين البدو والمستقرين .

وبصورة خاصة ما يتعلق بالزراعة والتجارة ونشوء المراكز المستقرة . ومنعكساتها على جميع أنواع النشاط الأخرى ، السلمية وغير السلمية .

لقد أدى تحرك الصفيحتين ، الآسيوية الجنوبية الهندية - الإيرانية - الأفغانية من جهة ، والروسية - السiberية الشمالية من جهة أخرى ، أثناء حدوث ما يسمى بالالتواءات الالبية الهملائية في الحقب الجيولوجي الثالث الى ظهور معقد جبلي التوائي مرتفع (وسطي ارتفاعه ٤٠٠٠م فوق سطح البحر) في الوسط في مناطق بامير والتائي والهمالايا وقره قوروم وهندوكوش وكون لون وتبين شين . وهذه الجبال المرتفعة شكلت بسبب ارتفاعها الشديد وغطاء قممها الثلجي طوال أيام السنة تقريبا عقبة أمام المواصلات بين الجنوب والشمال ، باستثناء ممرات جبلية قليلة عبر أودية ضيقة ليس من السهل الاحتفاظ بصلاحياتها للعبور دائما . وساعدت في ذلك بقاع سهلية في الجبال صغيرة المساحة صالحة للزراعة تستطيع تقديم الشروط الضرورية للمزروعات الغذائية . كما ساعدت على الانتقال المجاري الأولى لأعظم وأكبر الأنهار في آسيا الوسطى التي تتجه نحو الشمال مثل المجاري العليا لنهري سرداريا وأموداريا (سيحون وجيحون) وروافدهما . وكذلك فعلت في اتجاهات أخرى حين عبرت مجاريها الدنيا مناطق سهلية منخفضة نسبيا قليلة الأمطار يشرف عليها من علو « سقف العالم القديم » ، من أمثلتها صحارى قره قوم وقوزول قوم وتاكلاماكان وغوبي . فكان لزاما على « طريق الحرير » مسابرة تضاريس آسيا الوسطى والبحث عن أقل المعابر الجبلية مشقة وأكثر الأمان سهولة وأمانا . وهذه الشروط كانت تقدمها أطراف الجبال وهوامش الصحارى الإيرانية الطورانية والأراضي المنخفضة حول بحر آرال وبحيرة بالخاش .

ومن الأمور المهمة التي أثرت في مسارات طريق الحرير واستمراريتها الشروط المائية . فمعظم الأمطار التي تتأثر بها آسيا الوسطى تأتي من مصدرين بحريين هامين في الغرب هما : المحيط الأطلسي والبحر المتوسط . في حين تحجب سلاسل هندوكوش وقارا قوروم وهملايا ، الأمطار الموسمية الجنوبية . وتلج الرياح الشمالية الى سفوح جبال تبين شين لتسهم في إعطائها غطائها النباتي الأخضر ، في حين تندد الأمطار في المناطق الداخلية المنخفضة المؤطرة بالجبال مثل حوض تاريم الواسع (زهاء ٤٠٠ كم^٢) الذي تعزله جبال تبين شين في الشمال وبامير في الغرب وقره قوروم وكون لون والتون داغ في الجنوب ، وتصل الى ارتفاعات شاهقة تتراوح بين ٧٠٠٠ - ٨٠٠٠م وتترك بينها أكثر صحارى آسيا الوسطى جفافا وهي صحراء تاكلاماكان ، التي لا تصل الأمطار السنوية في غربها الى أكثر من ٦٥ مم في مدينة كاشغار مثلا ، وإلى ٩ - ١١ مم في الشرق في المنطقة المحيطة بـ « لوب نور » .

وترتفع الحرارة في الصيف في واحة طرفان في أكثر المناطق انخفاضا (- ١٥٤م) الى ٤٧ درجة مئوية .

وهذه الظروف المناخية الشديدة التطرف تجعل السير صعبا في جو جاف ينتشر فيه الغبار وتقل المياه ، بينما تشتد الرياح المغبرة الرملية الناشئة عن التفاوت الحراري بين قمم الجبال المحيطة المفظة بالثلوج والمنخفضات البالغة الحرارة . ومع ذلك لم يتقاعس تجار طريق الحرير عن انشاء المدن على أطراف الصحراء المذكورة الشمالية والجنوبية لتكون مراكز راحة وتموين بالماء والغذاء .

أما في الاودية والمعابر المرتفعة التي كانت تمر بها طرق الحرير الرئيسة والفرعية فكانت الظروف المائية أحسن حالا ، اذ كان الماء يتوافر في المجاري العليا للانهار التي يغذيها ذوبان الثلوج على الجبال المرتفعة ، وعشب الماشية والغذاء توفره السهول الخصبة على ضيقها في سفوح الجبال وبخاصة الشمالية ، بالإضافة الى الواحات التي كانت تعتمد على ري الانهار والاقنية الصناعية التي برع بها سكان آسيا على غرار ما كان يجري في بادية الشام في استنباط الماء الباطني وجره الى سطح الارض بطريقة ذكية .

ويعجب المرء حقا بالجهود التي بذلها في الماضي أناس استطاعوا ، على فقرهم وعدم امتلاكهم الادوات اللازمة للتعامل مع الارض الخشنة ، لحفر اقنية باطنية تحت الارض (كهاريز) ينفذ اليها من سطح الارض بفتحات شبيهة بفتحات الابار استعملت للحفر وتستخدم لصيانة القنوات وتوسيعها ، كانت تجمع المياه الباطنية من أماكن وجودها في ذيول المرتفعات الى الاماكن الأكثر انخفاضا في دهايز تحت الارض محمية من التبخر والتلوث ، لتخرج الى سطح الارض مشكلة سواقي جارية تروي ظمأ المحتاجين وتسقي بساتين الخضار والفاكهة (بلغ عددها في واحة طرفان ١٢٠٠ وبلغ طول الواحدة منها بين ١ و ١٠ كم) .

هذا النوع من الاقنية الباطنية (الفجارات في شمال افريقيا) استمرت في الحاضر في شكل عدد كبير من أقنية الري الحديثة الكبيرة والصغيرة في آسيا الوسطى تنقل الى مساحات واسعة من المناطق الداخلية الجافة مياه الانهار الكبيرة مثل سرداريا ومورداريا ، ومياه كثير من البحيرات الداخلية العذبة المتخلفة عن الامطار وذوبان الثلوج ، بالإضافة الى استنباط الماء الباطني بالمضخات (هنا تذكر قناة قره قوم وفروعها التي يبلغ طولها زهاء ١١٠٠ كم التي يطمح لايضالها الى بحر الخزر) .

هذه الطريقة في استنباط الماء الباطني واسالته على سطح الارض في سواقي مكشوفة تجري فيها مياه عذبة تحمل الحياة والخير للإنسان والحيوان والنبات عرفت في القطر السوري منطقة الغوطة في دمشق ومنطقة القلمون ومناطق أخرى كثيرة في

أطراف البادية السورية . والتقنية المستخدمة فيها هي نفسها في آسيا الوسطى لان الظروف الطبيعية السائدة هي نفسها . وهذا لا يمنع من قبول التفسير الذي يؤكد وجود صلة بين زراع البلاد المختلفة في العروش المختلفة نتيجة للاتصال التاريخي القديم بين الجماعات وتبادل الخبرات خلال حقبات طويلة ، عن طريق الرحلات والانتقال الكبير بين اقطار المشرق القريب والبعيد .

ولعل من الشروط الهيدرولوجية الايجابية لمنطقة آسيا الوسطى وجود بحيرة آرال في بقعة واسعة ارتخائية منخفضة من الارض تحتلها رسوبات لحقية رباعية تحفظ بصورة جيدة بالمياه القادمة اليها من محيطها الفني بالمياه وخاصة من مياه نهري أموداريا وسردريا ، أي النهرين اللذين استحوذا على اهتمام القدماء منذ عصر اليونانيين تحت اسم أراكس Araxs وأكسوس Axios بسبب غزارتهما بالماء واستطاعتهما عبور مناطق شاسعة في مجار متحولة مترنحة كانت تتغير اتجاهاتها على الدوام فتؤثر من قريب أو بعيد على مناطق استقرار البشر وتجوأهم وهذا يفسر أيضا خراب عدد كبير من المراكز العمرانية التي ترى آثارها الان في مناطق بعيدة عن مجاري المياه ، وابتعاد مجاري الماء عنها هو السبب الرئيس في خرابها ، من بين أسباب أخرى منها عدم استقرار الامن وتحول طرق التجارة عنها .

وقد تحققنا من ذلك في رحلة خاصة بثلاث طائرات هيلوكوبتر حلقت فوق « سهب الجوع » باتجاه مدينة أبحاث الفضاء السوفيتية لينينسكي في موقع بايكاتور بصحراء قزقستان ومراقبة الارض من الجو ، والهبوط في عدد من التلال الاثرية التي أجريت فيها تنقيبات أيدت بشكل أكيد بما عثر فيها من أدوات وبقايا بشرية وحيوانية نشوء مراكز عمرانية كثيرة محصنة في المناطق الغربية من سرداريا وأموداريا اللذين كانا يشقان طريقهما نحو بحر الخزر في العصور الغابرة قبل أن يتحولا نحو بحيرة آرال .

ومن البقايا التي عثر عليها هناك عدد من الآنية والحلي تدل على بقايا اسلامية تلقب في لغة المنقبين الاجانب بالتركية وفيها كسرات آنية مصنوعة من الزجاج السوري .

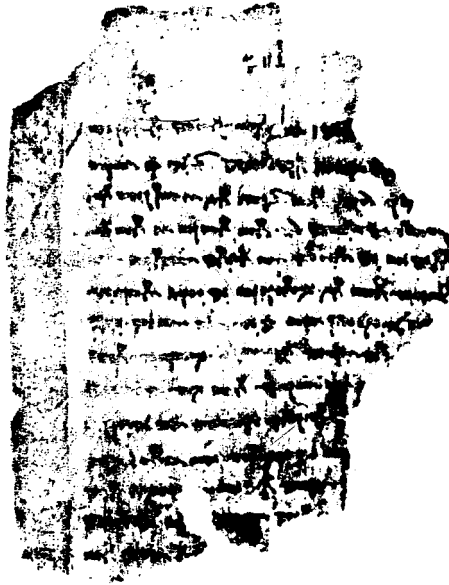
طريق الحرير في آراء علماء آسيا الوسطى والعلاقة الوثقى بين شرق آسيا وغربها

نال « طريق الحرير » في نفوس المؤرخين والجغرافيين والرحالة العرب تقديرا خاصا لدوره في كشف البلاد البعيدة ونشر العقيدة واستقصاء المعارف وتبادل البضائع . وهذه غاية أشار اليها ابن خرداذبة في كتابه « المسالك والممالك » حين عدد ما كان يحمله التجار القادمون من الصين والهند من مسك وعود وكافور وذهب وحرير وبخور وقرنفل وحجارة كريمة ، في قوافل كانت في « مروج الذهب » للمسعودي

« متصلة من السند الى اخراسان وكذلك الى الهند » ، وخاصة ما ارتصف على هذا الطريق من مراكز العمران الكبيرة الجميلة التي وصفها الادريسي بحماس في « نزهة المشتاق في اختراق الافاق » في مثال مدينة بخارى التي « تزهى على المحاسن نظرا فرجة الارحاء والجهات كثيرة الاشجار والثمرات » ، وسمرقند « حسنة كبيرة على جنوب وادي السند فيها شوارع ومجالات وقصور سامية وفنادق وحمامات وخانات » وايده في ذلك ابن حوقل في كتبه « صورة الارض » : « وهي مدينة فيها أسواق كبار وفيها ما في المدن العظام من المحال والحمامات والخانات والمساكن » .

وفي السنتين الماضيتين حظي طريق الحرير بعناية عدد كبير من العلماء فيما كان يسمى بالاتحاد السوفيتي وخاصة في معاهد البحث العلمي والجامعات واكاديميات العلوم ، في جمهوريات آسيا الوسطى الاسلامية قبل وائناء التحضير لبعثة « طريق الحرير - طريق الحوار » التي نظمتها اليونسكو لعام ١٩٩٠ و ١٩٩١ ، ودفعتهم الى التجاوب مع هذه المنطقة الثقافية الدولية في الهدف المعلن من قبائها - وهو الحوار بين الشعوب - السياسية الانفتاحية للدولة تجاه العالم ، وبخاصة الدول الغربية ، وجعلت العديد من علماء آسيا الوسطى يشتركون بحماس في تأييد الدور السلمي العالمي الذي كان لطريق الحرير في الماضي كصلة وصل بين الشعوب وما يمكن أن تسهم اللقاءات العالية حول طريق الحرير في المستقبل في ترسيخ سياسة الوفاق الدولي وفتح ما كان منفلقا على العالم في آسيا أمام جميع الراغبين فيه .

والى « طريق الحرير » يعيد العالم سعدوليف A.S.Sagdulaev ازدهار النقل والتجارة وتجارة الترانزيت محليا ودوليا منذ القرن الثاني ق.م . وخاصة في باكتريا ومارغيانا والصفد - أي منذ بدأت حملات الاسكندر الاكبر - الى آسيا الوسطى ، ويركز بصورة خاصة على انتشار الافكار الروحانية ومظاهر الحضارات من بلاد فارس وبلاد الرافدين وبلاد آسيا الصغرى باتجاه آسيا الوسطى . وتذكر السيدة مالكييفا Malkeeva بأثر الشعراء والحجاج من الاديان المختلفة ، بالاضافة الى الرحالة والتجار ، في نشر الثقافة بما في ذلك الموسيقى والغناء ، وتلك حقيقة يلاحظها المرء في التشابه بين الآلات الموسيقية الوترية والمزامير المستخدمة في الهند وتركستان وآسيا الغربية (مثل آلة الدبيرة المستخدمة في آسيا الوسطى القريبة من البزق) . وكذلك يفعل شفيقياكوف A.I. Schevyakov في تلمس التشابه الكبير في تراث وفولكلور شعوب المناطق ، وخاصة في القصص الشعبي والخرافات .



كتابة كنسية بالخط السرياني القديم (اسطرنجيلي) عثر عليها في حوض تاريم
(متحف باليم في برلين)

وتدل بقايا النقود التي عثر عليها في بكتريا والصغد وخوارزم وغيرها على تشابه كبير فيما بينها يؤكد انتشار استعمالها في التجارة الرائجة آنذاك ثمنا للمواد الاساسية التي كان يرغب الناس في شرائها ومنها بشكل خاص الذهب والفضة والمرايا والبرونز والزجاج . وهذه المواد عثر عليها في اماكن كثيرة واسعة جرى فيها التنقيب كما تقول السيدة بوغا شينكوفا G.A. Bugachenkova من بينها الزجاج السوري الذي وجد في التلال الاثرية في مناطق دلتات نهري سرداريا واموريا (سيحون وجيحون) جنوب بحر آرال جنبا الى جنب قريبا من هياكل عظمية تعود الى فرسان قادمين من الغرب من تركيا* .

وثمة مظاهر أخرى في آسيا الوسطى تكاد تكون مألوفة تماما في الوطن العربي ، تظهر في التشابه الكبير في عادات الشعوب وتقاليدهما في الحياة اليومية ومواقفهما المشتركة بعضهما تجاه البعض الآخر وتجاه الشعوب المجاورة والقريبة . فالعقيدة

* والبلاد التركية بالنسبة للباحثين هناك هي البلاد الاسلامية الواقعة في الغرب والجنوب الغربي ، وتعبر الثقافة التركية يعني الثقافة الاسلامية بغض النظر عن مصادرها الاصلية ، فهي ان أتت من الغرب في الكتابات الاجنبية (ومنها الروسية) تركية ولو كان مصدرها من بلاد الرافدين أو شبه الجزيرة العربية .

الاسلامية تجمع بين معظم الشعوب التي تسكن في المناطق المتاخمة لطريق الحرير . في هذه المناطق تقدس الحياة الاسرية وتتمتع المرأة بمكانة خاصة فهي دائما في الحياة العامة وراء الرجل ، ولكنها رئيسة للأسرة في جميع شؤونها البيتية الداخلية ، عليها واجب رعايتها وتنظيم البيت والقيام بالاعمال الكثيرة المطلوبة منها ، مع انصراف الرجل الى العمل خارجا للقيام بجميع الواجبات المالية تجاه أسرته .

ومن النشاطات المعتادة تنقل الرعاة وراء أغنامهم وخيولهم في المراعي التي يترددون عليها في نجعة تقليدية فيهاجرون مع حيواناتهم صيفا الى الاراضي المرتفعة والجبال ويعودون بها الى الاراضي المنخفضة شتاء ، تلازمهم وتخدم نشاطاتهم الخيام المصنوعة من اللباد (الصوف) الملون ، بالإضافة الى صناعة السجاد والمنسوجات اليدوية ذات الالوان الزاهية والملابس المزركشة ، وأغطية الرأس التي تستخدم في البيت والعمل وخاصة في الاحتفالات العامة .

والنشاطات اليومية متماثلة أيضا في جميع أنحاء آسيا الوسطى وهي قريبة من عادات الاجزاء الاخرى من آسيا ، من التعامل مع الجيران والاقارب وفقا للعادات القبلية والعصبية البدوية الى طريقة تنظيم الافراح والأتراح وتناول الاشربة والاطعمة .

ومما يذكر بالحياة البدوية المألوفة في الوطن العربي تشابه الاطعمة المعروفة والعادات المتعلقة بها واشترك جميع جمهوريات آسيا الوسطى بها تقريبا في قزستان او قرغيزيا او طاجيكستان او اوزبكستان . هنا ينتشر لحم الغنم ، ولحم الحصان ، والحليب ومشتقاته ، وفي المقام الاول حليب الحصان او ما يسمى هناك « الخمس » جنبا الى جنب مع انواع الخبز المهيئة محليا وبأشكال مختلفة منها المالح والحلو ، وانواع الاطعمة المصنوعة من الحبوب والخضار الفضة والمجففة والكثير من اصناف الطعام الاخرى .

ومهنة الرعي مهنة رئيسة في بلاد آسيا الوسطى على طريق الحرير . والتقاليد البدوية تبدو في معظم المظاهر العامة وتحكم التعامل داخل البيت وخارجه . وحب الفروسية والحفاظ على مظاهرها من الامور المقدسة ، والحصان ، كأداة للنقل وخاصة الركوب وكمادة يفتخر بها ، من المشاهد المألوفة في آسيا الوسطى أمام البيوت وفي الطرقات والمراعي . وقد يظنى منظره على قطعان الاغنام والاصناف الاخرى من السوائم . والحصان في آسيا الوسطى لا يزال يحافظ على منزلته العالية ويرافق جميع الفعاليات اليومية ويرد ذكره في جميع المناسبات تقريبا ويرافق الرجال في تجوالهم في الارياف والمدن يتباهى به المرء في الطرقات ويسود قطعان كبيرة على المروج يتحرك عليها بحرية كاملة يعنى مقتنوه بصفاء اصوله وعلو نسبه . ولبنه يفضل على جميع

الاشربة الاخرى ويرافق الشاي في الافطار والغداء والعشاء في البيوت والخيام ، في الحياة اليومية وفي المناسبات السعيدة والتعيسة .

وخيمة « اليورتا » في لغة القزق و « بوزوي » بلغة القرغيز لها في نفوس اهل آسيا الوسطى ما لخيمة البدو وبيت الشعر في بلادنا ، فهي المنزل المحبب الذي يحمله الرعاة معهم في البراري ويستخدمونه بسهولة ويسر ، ينصبونها في ربع ساعة ونيف وبها يصدون جميع عوامل الحر والبرد . وهي الان في تقاليد الشعوب هناك المنزل المفضل لدى الباحثين عن الراحة والاستجمام من اهل المدن يقضون فيها - في امكنة منتقاة في الارياف - العطل والاجازات . فهي مرنة جميلة يتباهى مستعملوها باقتنائها وامتلاك جميع الادوات الاخرى المرتبطة بها التي تساعد على تحقيق جميع الاحتياجات المطلوبة لاستراحة تطول أو تقصر في مناطق ليست أمكنة استقرار ثابت .

وخيمة « اليورتا » حجرة دائرية الشكل مصنوعة من اللباد الصوفي الملون على الغالب الذي يغلف هيكلًا من أعواد الخشب تستند عليه جدران الخيمة وتستمر في السقف لتنتهي بفتحة علوية ارتفاعها زهاء ثلاثة أمتار للتهوية تفتح وتغلق حسب الحاجة كالاطراف السفلية من الجدران . والفسحة الداخلية التي يدخل اليها المرء من باب صغير خشبي على الغالب تتسع لاسرة من بضعة اشخاص تفرش أرضها بأصناف البسط والسجاد كالجدران الداخلية المستورة بأنواع زاهية الالوان من البسط المزركشة والسجاد الصوفي وجميع الانواع الثمينة من المقتنيات الاسرية التي يفاخر رب الخيمة بها مثل الفراء والوسائد للنوم وجاوس الضيوف وفرش النوم وصندوق الخشب والصور وعدة اشاي والطعام وخاصة (السماور) للشاي وزبادي القيشاني التي تستعمل لشرب الشاي وشرب لبن الخيل . وفي ركن من الاركان تبرز فيها المقتنيات المذكورة تعلق الآلة الموسيقية الوترية الرشيقة المسماة « الدنبرة » عند القزق و « القُمز » عند القرغيز* ، رفيقة المغنين والمغنيات من افراد الاسرة أو من المهتمين من الاقارب والاصدقاء وأبناء العشيرة تداعبها الانامل في ولائم اليورتا أثناء تناول الطعام على الارض أو حول المائدة المنخفضة العامرة بأنواع الطعام المحضر بالطريقة البدوية المعروفة ، وصنفه الرئيس هو اللحم الذي يطبخ خارج الخيمة في قدور كبيرة على مواقد يستخدم فيها الحطب . والمضيف ينتصب في جانب من الخيمة ليقوم بواجب الضيافة بالحث على الطعام وتناول الشاي وحليب الخيل من يدي زوجته ، أو ابنته الكبرى ، التي تبقى واقفة طوال الوقت تتفانى في الخدمة وفقا لعادات دقيقة حتى الانتهاء من الطعام ، بوقوف الضيوف ومفادرة الخيمة بالسلاام « رحمة » .

* آلة بثلاثة أوتار صندوقها صغير وعنقها طويل دقيق تصاحب جميع أصناف الغناء الشعبي تقريبا ، ويمكن استخدامها مع آلات موسيقية أخرى مشابهة .

طريق الحرير - طريق الحوار في برامج اليونسكو

طوى النسيان سيرة طريق الحرير الجميلة بعد الدمار الذي حدث على يد قادمين من وسط آسيا وشرقها قطعوا الرؤوس وحرقوا الكتب والقوها في الانهار . لكن ردة الى الماضي التراثي حدثت في السنوات القليلة الماضية أعادت الى طريق الحرير شيئاً من اعتباره ، واخذ التلفاز في دول العالم المختلفة يعرض سلسلة من الافلام الوثائقية الشائقة لطريق الحرير صورها فريق علمي ياباني طاف مناطق واسعة في الصين وآسيا الوسطى والغربية ، ووضعت منظمة اليونسكو في برامجها الثقافية لآخر الثمانينات ولأوائل التسعينات مشروعات ثقافية جلية الاهمية حول طريق طريق الحرير نفذ بعضها وما زال البعض الاخر قيد التنفيذ ، ومنها تلك البعثات العلمية على طريق الحرير ، اي بعثة طريق الحرير في الصين ، وبعثة طريق الحرير البحرية ١٩٩٠ ، وبعثة طريق الحرير البرية عام ١٩٩١ ، والرحلة الثالثة التي ستنفذ في العام ١٩٩٢ نحو طرق الحرير عبر سيبيريا الغربية وجبال الاورال .

١ - بعثة طريق الحرير البحرية ١٩٩٠ :

تحديد الطريق او الاصح الطرق البحرية اقل صعوبة على الدارس، كما ان المراكز التجارية على هذه الطرق يسهل معرفتها لاضطرار الملاحة البحرية في الماضي الى اللجوء اليها والاستراحة فيها بعد عناء طويل طوال الابحار في خضم واسع لا قرار له ، ورغبة التجار في تبادل البضائع في مواقع محددة ثابتة وراءها برّ فسيح الارعاء . وان كان ثمة تغيير في مسار طريق الملاحة فهو جزئي تفرضه طبيعة الابحار في الماء والبحث عن طريق الامان وتجنب سبل المهالك .

واليونسكو وسعت دون ريب مفهوم الطرق البحرية وجعلت امتدادها من شواطئ الصين الشرقية الى شواطئ البحر المتوسط الشمالية والشرقية والجنوبية، وهذا يدخل في مجال بحار الملاحين العرب . كما ان جزءاً كبيراً من هذه البحار ، اي بحر العرب وخليجانه وجانب من المحيط الهندي والبحر الأحمر والبحر المتوسط ، كان في معظم الاوقات في قبضة العرب والمسلمين . وجعلت المنظمة معظم الموانئ الشهيرة في بحر الصين الشرقي والجنوبي وشواطئ آسيا الجنوبية الغربية وشواطئ المحيط الهندي الجنوبية وسواحل افريقيا والبحر المتوسط مراكز مهمة على طرق الحرير البحرية . وفي هذا اعتراف واضح بالاسهامات القيمة لشعوب هذه البحار في الوصل بين الحضارات المتنوعة في بلاد العالم القديم في القارات الثلاث ، آسيا وافريقيا وأوربا، منذ زهاء ٣٠٠٠ عام . واختارت الامم المتحدة في غمار التطورات العالمية المعاصرة هدفاً منشوداً ينبغي إعادة التفاهم السلمي بين الشعوب الذي كان العرب قد حملوا لواءه

خاصة في القرنين الثامن والتاسع بسفنهم التي جابت الافاق قبل أن يتعلم البرتغاليون صناعة السفن والملاحة في القرن السادس عشر ، كما يقول السيد فريدريكو ماجور المدير العام لليونسكو في نشرة Integral Study of the Silk Roads .

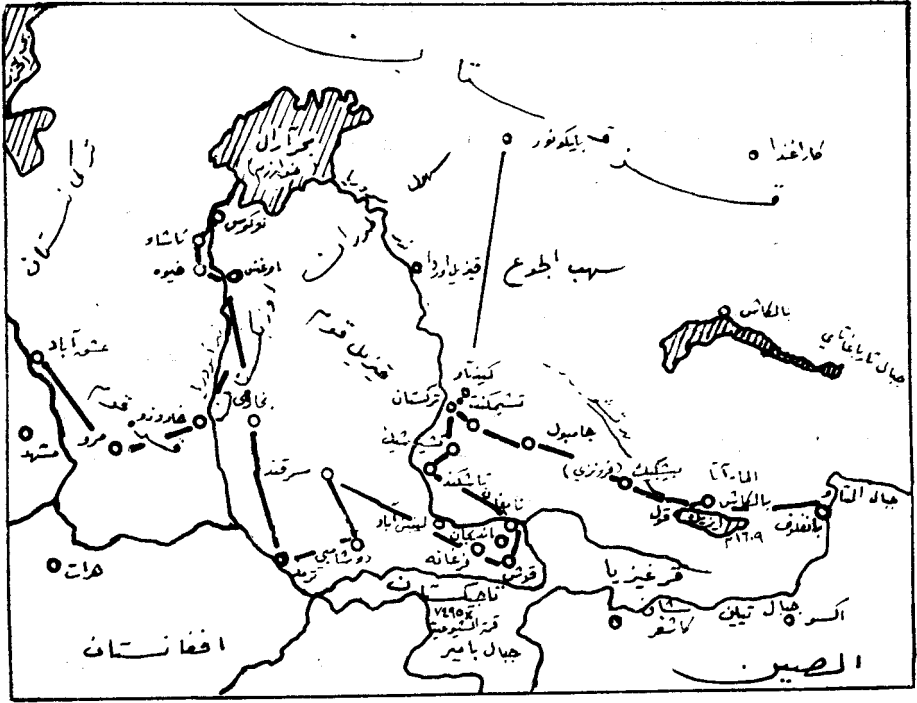
في تظاهرة اعلامية عالمية أبحرت سفينة « فلك السلام » العمانية تحمل مشتركي الرحلة البحرية لليونسكو طوال أربعة شهور من ما سمي بـ « النافذة الغربية لطريق الحرير البحرية المفتوحة على الشرق » أي من البندقية ، مدينة البحار ماركو بولو (الذي يرتبط اسمه بطريق الحرير أيضا بسبب المعلومات التي أتى بها بحار أوربي عن هذا الطريق) لتمر بشواطئ خمس عشرة دولة أوروبية وآسيوية وتصل الى مدينة أوزاكا اليابانية ، أي ميناء نايفما القديم الذي كان يبحر منه في القرن الثامن الرهبان اليابانيون الى الصين . وحملت هذه السفينة فريقا من العلماء والمصورين اجتمعوا وتناقشوا وبحثوا وصوروا وكتبوا ليعيدوا الى الازدهان أمجاد الطرق البحرية القيمة القديمة المندثرة .

٢ - بعثة طريق الحرير البرية ١٩٩١ :

أما الطرق البرية فهي من وجهة نظرنا نحن العرب ذات الاهمية الاكثر في تاريخنا لمرافقتها لاكثر المنجزات الثقافية العربية الاسلامية التي بدأت بالفتوح العربية الاولى ونشر الاسلام في بلاد آسيا الوسطى . وقد أسهمت حملة منظمة اليونسكو الى آسيا الوسطى ضمن مشروع « طريق الحرير - طريق الحوار » في القاء الضوء مرة أخرى على مكانة الطرق البرية والادوار التي كانت لها في الماضي ويمكن أن تسهم بها في الحاضر والمستقبل ، في تقارب الشعوب وتمازج ثقافاتهما .

كان عنوان البعثة وكان لي شرف الاشتراك بها «دراسة ميدانية لطرق الحرير - طرق الحوار» . وهي رحلة استكشاف للطرق السهبية ومعالمها والمواقع الهامة والاثار المنتشرة فيها . وبدأ تنفيذ الرحلة في ١٩ نيسان انطلاقا من مدينة عشق آباد واختتمت في ١٧ حزيران ١٩٩١ في مدينة الما - آتا .

كان الوصول الى نقطة الانطلاق بالطائرة ونقطة الختام بالطائرة أيضا . وأما وسيلة الانتقال في بر آسيا من الحدود الجنوبية الغربية (للاتحاد السوفياتي) الى حدود الصين فكانت بواسطة رتل من السيارات الصغيرة والكبيرة وضع بعضها تحت تصرف البعثة مرسلا مع فريق من الاداريين من باريس تحت امره السيد دين منسق الرحلة (وهو في الاصل من دولة السنغال) والبعض الاخر من الجمهوريات في آسيا الوسطى، مع فريق من العلماء والاداريين من اكاديميات العلوم في تلك الجمهوريات بالاضافة الى وسائط نقل أخرى كالعربات الصحية وطائرات الهيلوكوبتر .



خط سير الرحلة

كان برنامج السير على النحو التالي :

- التجمع في مدينة عشق آباد عاصمة جمهورية تركمانستان يوم ١٩ نيسان لمدة ثلاثة أيام . ومن النشاطات هنا زيارة آثار مدينة نيسا القديمة والسوق التقليدية .
- زيارة مدينة ماري يوم ٢٢ نيسان لمدة ثلاثة أيام للاطلاع على آثارها ومعالمها الهامة وتنفيذ مهمات علمية ، والاطلاع على الفلوكلور الشعبي في المنطقة .
- زيارة مدينة شارجو في ٢٥ - ٢٦ نيسان والاطلاع على تنقيبات ريتجيك ، ورحلة الى منطقة هالاج Hallaj لمشاهدة العادات والتقاليد هناك .
- زيارة تاشاو على نهر اموداريا وكونور اورغينش يوم ٢٧ نيسان .
- السفر الى مدينة نوكوس في ٢٨ نيسان والبقاء فيها يومين وزيارة متحفها ، وبحر ارال وفردخار وطويروكالا .

د. ساطع محلي

- زيارة أورغينش خيوه من ٣٠ نيسان الى ٤ ايار . والاشتراك بالمؤتمر العلمي حول « أهمية محطات القوافل والمدن الواقعة على طريق الحرير الشمالي » . وزيارات لمتاحف خيوه ودراسة لطوبروكالا وبيرتقول وجانباسكالا واكاديمية العلوم في أوزبكستان .
- زيارة مدينة بخارى ومتاحفها ومكتبتها ومدارسها القديمة وقلعتها في ٤ ايار .
- زيارة غارشى في ٨ ايار وحضور بعض النشاطات الفنية المسرحية .
- ٩ ايار السفر الى مدينة ترمذ والاطلاع على معالمها .
- ١٠ - ١٣ ايار زيارة الى دوشامبي والاطلاع على معالمها ومتاحفها ومسرحها ، وزيارة وادي كارسوب على الطريق الى مدينة سمرقند .
- زيارة سمرقند بين ١٤ - ١٧ ايار والتجول في معالمها التاريخية الهامة وخاصة المدينة القديمة أفراسياب والابنية التاريخية التي رعاها تيمورلنك مثل الجوامع والمدارس والترب بالإضافة الى المرصد الفلكي فيها .
- ١٨ - ١٩ ايار زيارة لمدينة لينين آباد .
- ٢٠ - ٢٢ زيارة مدينة أوش .
- ٢٣ - ٢٤ ايار زيارة وادي فرغانا ومدينة ناماغان .
- السفر الى مدينة تاشكند في ٢٥ ايار والبقاء فيها حتى ٢٨ ، ولقاء في معهد الدراسات الشرقية والتاريخ ورحلة الى بحيرة تاشكند ، ولقاء مع اذاعة تاشكند
- ٢٩ - ٣٠ ايار رحلة الى تركستان لمدة يومين .
- ٣١ ايار زيارة مدينة شيمكنت والاطلاع على مدينة اترار القديمة التي خربها وحرقها جنكيز خان .
- زيارة مدينة جامبول في ١ حزيران في منطقة الانهار السبعة التي تعرضت للدمار والتخريب في القرن الثالث عشر . وزيارة وادي طلس الادنى في منطقة الشعوب الساردية القديمة . وزارة كوس توبي التترية القديمة وجامكيت بالاس وعدد من التلال الاثرية في دلتا نهر سرداريا (سيحون) وزيارة مدرسة سباق الخيل ومضارب خيام اليورتا ومقام زبداي .
- ٢ - ٤ حزيران السفر الى مدينة فرونزي عاصمة جمهورية قرغيزيا (الان بيشكيك) وهو الاسم القديم لها) .

٥ - حزيران السفر الى وادي تشو في سفوح جبال تيين شين وأرض القازاخانية والقرغيز في موقع العاصمة القديمة بلاساغون في موقع بورنا حيث توجد مكتشفات اسلامية كثيرة ومقابر كتبت شواهدا بالعربية . وخاصة زيارة الاقلية الصينية في مدينة دونغان .

٥ - ٧ حزيران زيارة عدد من مواقع الاثار في منطقة القرغيز وخاصة في بادوك وحضور مهرجان الفروسية ، والاطلاع على معالم شولبون آتا والمواقع الاثرية التي تعود الى العصور الحجرية على مقربة من بحيرة ايسكول ، ورحلة في السفينة في البحيرة .

٨ - ١٢ حزيران زيارة مدينة بانفلوف والمسجد الصيني فيها والاطلاع على معالم المنطقة قرب الحدود الصينية ، والمرور عبر ممر كيشين باتجاه مدينة الما - آتا .

١٣ - ١٧ حزيران السفر الى مدينة الما - آتا عاصمة جمهورية قزقستان والبقاء فيها حتى ١٦ حزيران والاشتراك بعدد من النشاطات ومنها زيارة الاكاديمية والمتاحف وعقد مؤتمر صحفي وانعقاد المؤتمر العلمي الثاني بعنوان « العلاقات بين الثقافات الحضرية والثقافات الحضرية والثقافات البدوية على طريق الحرير » ثم وضع التوصيات بعد مناقشة النتائج التي توصل اليها المشتركون ببعثة « طريق الحرير - طريق الحوار » .

عناوين الموضوعات العلمية التي نوقشت في الندوات العلمية خلال بعثة طرق الحرير البحرية ١٩٩٠

- في البندقية بايطاليا (١٣ - ٢٣ / ١٠ / ١٩٩٠) : أدب الرحلات ، نشأته ودوره .
- اثينا باليونان (٢٥ - ٢٨ / ١٠) : التطورات الثقافية والتجارية بين المشرق والعالم اليوناني .
- كوزاداسي بتركيا (٢٩ - ٣١ / ١٠) : آثار طريق الحرير في الثقافة التركية والفن التركي .
- في الاسكندرية والقاهرة والسويس بمصر (٢ - ١١ / ٧) : التطورات الثقافية بين مصر والبلاد الاخرى على طريق الحرير خلال الفترة الاسلامية .
- في سلالة ومسقط في عمان (١٣ - ٢٥ / ١١) : أهمية التراث العماني في طرق الحرير .
- في كراتشي في باكستان (١١ / ٢٧ - ١٢ / ٣) : السند والملاحاة العربية - الثقافة والتجارة والعمران .

- في مورموغاو وغوا في الهند (٥ - ١٢/٩) : اللقاءات البحرية بين القرن الخامس عشر والقرن التاسع عشر .
- في كولومبو في سريلانكا (١١ - ١٢/١٧) : سريلانكا كمركز متوسط على طرق الحرير بين الشرق والغرب ومركز تلاقي ونقل للفلسفة البوذية .
- مدراس في الهند (١٩ - ١٢/٢٤) الهند والعالم الروماني بين القرنين الاول والرابع الميلاديين - الصلات الثقافية الهندية بين القرنين الرابع والثالث عشر .
- بورت كيلانغ ومالاقا في ماليزيا (١٢/٢٨ - ١٩٩٠/١/٦ - ١٩٩١) : التقاليد البحرية الماليزية .
- سورابايا في أندونيسيا (٩ - ١/١٤) : المدن والموانئ على طرق الحرير .
- بانكوك في تايلاند (١٨ - ١/٢٣) التجارة القديمة والصلات الثقافية في جنوب شرق آسيا .
- بروناي (٢٧ - ١/٣١) : تأثير الطرق البحرية على ثقافة بروناي .
- مانिला في الفلبين (٢/٣ - ٢/٧) : مانिला البندقية الثانية .
- هوانغبو وغوانغزو هو (كانتون) في الصين (٩ - ٢/١٩) الصين وطريق الحرير البحرية .
- بوزان يونكجو في كوريا (٢٢ - ٢/٢٦) الثقافة الكورية وطرق الحرير .
- هاكاتا أوزاكانبارا في اليابان (٢٧ - ٣/٩) : طرق الحرير والفن . بيت الخزينة اليابانية في نارا - نقل القيشاني على طرق الحرير .

لائحة الموضوعات العلمية التي نوقشت بين ١٥ - ١٦ حزيران ١٩٩١

حول العلاقات بين الشعوب الرعوية والمستقرين على طرق الحرير

اشترك في الندوة العلمية تحت هذا العنوان معظم العلماء في بعثة طريق الحرير ١٩٩١ ويمكن تلخيصها بما يلي :

- * العلاقات التاريخية بين الصينيين المستقرين والرعاة في الشمال * أعمال استكشاف في قزقستان ونموذج من العلاقة بين الحضارة الرعوية وحضارة المستقرين
- * المدن والارياف في بلاد الرافدين * طريق الحرير العظيم والوضع الانتوغرافي والانتروبولوجي في اوراسيا * الازدهار في فترة كوشان وطريق الحرير * التشابه في الوظيفة والمخطط بين المنازل البدوية والمنازل الحضرية في الشرق الأدنى الغربي *
- * العلاقات بين الحضارة الرعوية والحضارات المستقرة في طريق الحرير * تقنية من

(طريق الحرير - طريق الحوار)

البادية والمدينة * المغول القدماء وعلاقاتهم بالشعوب المجاورة * الرعاة في منطقة آرال والخزر * آسيا الوسطى والعناصر الحضارية في الشرق الاقصى في منطقة كوريا القديمة * المجتمع الرعوي كحضارة قائمة بذاتها * الموسيقى الكورية وعلاقتها بالموسيقى الاسيوية * المدن كمنظومة واصلة بين المجتمعات الحضرية والمجتمعات البدوية *

ملخص بالتوصيات النهائية التي وافق عليها أعضاء وفود بعثة

« طريق الحرير - طريق الحوار » في مؤتمر الما - آتا في ١٦ حزيران ١٩٩١

- * العمل على تنظيم وتمويل زيارات للدارسين من الدول الفقيرة بمعرفة لجنة طريق الحرير لحضور المؤتمرات العلمية وزيارة المكتبات والمتاحف والاشتراك بجميع نشاطات طريق الحرير .
- * نشر عدد من الكتب وتنظيم حلقات دراسة وندوات وفق برنامج لجنة اليونسكو لطريق الحرير والاحتفال بالشخصيات البارزة التي يرتبط اسمها بطريق الحرير .
- * استخدام التقنية الحديثة المتوفرة لدى اليونسكو وخاصة فيما يتعلق بوسائل الاتصال عن طريق الاقمار الصناعية وبنك المعلومات واشراك موسكو ولينغراد والجمهوريات السوفيتية بها ووضع لوائح بالكتب والنشرات والدارسين والطلاب والمنظمات التي لها علاقة بطريق الحرير .
- * القيام بعمليات ترميم وحماية بوساطة لجنة خبراء بالتعاون مع جمهوريات آسيا الوسطى واستعمال كل ما يتيسر من الخبرات التقنية .
- * ترحب اللجنة بمساعي الجمهوريات في الكشف عن آثارها وتحض على التوسع في دراسة التصحر في منطقة بحر آرال ونشر المعلومات عنه بالتعاون مع الاونيب .
- * وضع خريطة معدلة لطريق الحرير وأدراجها في برنامج أطلس اليونسكو .
- * نشر ما يتعلق بطريق الحرير وبرنامج من خلال السينما والتلفزيون والاذاعة والمقالات في المجلات والبرامج الثقافية والرحلات .
- * العمل على افتتاح مركز أو مراكز للبحث العلمي يختار مكانه أو أماكنها في جمهوريات آسيا الوسطى وبمساعدة اليونسكو .
- * الدعوة لاسهام اليونسكو في الدراسات الاتنوغرافية والدينية واللغوية والفولكلورية وتقنية الصناعات التقليدية المعدنية والزجاجية والقيشاني .

* الفريق الدولي يحث اليونسكو والامم المتحدة على دعوة السلطات الافغانية والعراقية على حماية ثرواتها الاثرية والفنية .

* وجوب ضم الجانب الغربي لطرق الحرير الى برنامج نشاطات اليونسكو المتعلقة « بطريق الحرير - طريق السهب » .

* العمل على حماية ودراسة وترميم زهاء ثلاثين موقعا اثريا في جمهوريات تركمانيا وأوزبكستان وطاجيكستان وقرغيزيا وقزقستان بالتعاون مع حكومات هذه الجمهوريات .

وتجدر الاشارة الى الاقتراح الذي تقدم به الى منظمة اليونسكو موفد القطر العربي السوري الى بعثة « طريق الحرير - طريق الحوار ١٩٩١ » وبعد التشاور مع بعض موفدي الاقطار الاسلامية الصديقة ، المتضمن دعوة الى ايلاء القطر العربي السوري أهمية خاصة في نشاطات طريق الحرير بالاضافة الى افغانستان وايران والعراق وتركيا ، وهذا نصه :

لقد نجحت بعثة « طريق الحرير - طريق الحوار » في تحقيق معظم الاهداف التي نظمت الرحلة من أجلها ويسرني أن اقترح عليكم التفضل بدراسة امكانية اعطاء عنايتكم لاحد الجوانب الاخرى التي لها ارتباط وثيق بطريق الحرير ، وأعني بذلك الاهتمام بالجوانب الفكرية والعلمية التي حمل شعلتها في الماضي رواد من العلماء المسلمين في الدول التي مرت بها طريق الحرير كانت لهم الصفة الدولية فارتفعوا عن قيود الحدود القطرية وأسهموا في حضارات قيمة اشتركت جميعا في ثقافة اسلامية امتزجت بالثقافات الاخرى وأسهمت في خلق جو من التعاون الثقافي والعلمي بين جمع الامم الاخرى بغض النظر عن اختلاف الاديان والاجناس .

وتحقيقا لذلك يمكن للمنظمة الدولية اليونسكو الدعوة الى مؤتمر يمكن أن يعقد مرة واحدة أو أكثر خلال الاعوام الثلاثة القادمة في احدى الدول التي ازدهرت فيها الثقافات المذكورة مثل سورية أو افغانستان أو ايران . وتكون من بين الموضوعات الرئيسية فيه تسليط الضوء على عالم من علماء المسلمين الذين نشطوا على طريق الحرير ويمكن أن يكون التركيز مثلا على الفارابي أو الخوارزمي أو غيرهما .



المصادر والمراجع :

- زيارات ميدانية لمواقع جغرافية وتاريخية وأثرية في جمهوريات اسيا الوسطى .
- نشرات متعددة أصدرتها اليونسكو حول طريق الحرير البحرية ١٩٩٠ وطريق الحرير البرية ١٩٩١ .
- محاضر الندوات المرافقة لبعثة طريق الحرير ١٩٩١ ، ولقاءات علمية مع العلماء المشتركين في بعثة طريق الحرير - طريق الحوار ١٩٩١ .
- الموسوعة البريطانية والموسوعة الألمانية وغيرها .
- ساطع محلي ، مخطوط يمد للطبع بعنوان طريق الحرير ١٩٩١ .
- = « محلي ، امريكا اللاتينية ١٩٨٠ .
- « محلي ، افريقيا جنوبي الصحراء ١٩٨٢ .
- « محلي وعبد الرحمن حميدة ، دليل العالم - أرقام ووقائع .
- « محلي ، النقل والمواصلات ١٩٩٠ .
- عبد الرحمن حميدة ، اعلام الجغرافيين العرب ١٩٨٤ .
- كلاوس ديثمان ، السودان ، المجلة الجغرافية ١٩٨٢ .
- غازي طليمات ، من أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم لمحمد بن احمد المقدسي - المختار من التراث العربي ١٣ ، منشورات وزارة الثقافة دمشق ١٩٨٠ .
- احمد رمضان ، الرحالة المسلمون ، دار البيان العربي .
- مجموعة من المؤلفين ، أطلس التاريخ الاسلامي جامعة برستون ١٩٥٤ ، ترجمة وتحقيق ابراهيم زكي خورشيد .
- Franz, H. G., Herausg. Die Seidenstrasse . Akademisch, Druck - U. Verlag . Graz 1987.
- Hallbach, Uwe . Materielle Krise. Islam u. Nation in Sowietisch . Vierteljahres Beruhte, Sept. 1991 . Hevausg . Friedrich - Ebeot - Zentralosien. Stiftung .
- Uhlig, Helmut. Die Seidenot rasse , Baskei Luebbé 1990.



طريق الحرير والطرق التجارية الاقدم

د. علي ابو عساف

المديرة العامة للآثار والمتاحف

يدل اهتمام المنظمة الدولية للتربية والثقافة والعلوم (اليونسكو) بطريق الحرير، على أن هذا الطريق من عناصر التراث الحضاري العالمي الممتاز الذي نعتز به . فالطريق لم يكن تجاريا تسلكه القوافل وحسب ، فعبرة اتصل الشرق بالغرب ، ونقل رجال القوافل معهم الافكار والخبرات في كلا الاتجاهين وفي مجالات عدة ، وكانوا كثيرون العدد ، ينتمون الى طبقات متنوعة مختلفة ، تماما كالاغراض التي سعوا من أجلها . وقد جمعوا في طريقهم الملاحظات الكثيرة عن حياة سكان المدن التي حطوا رحالهم بها ، وعن عاداتهم وتقاليدهم ، وصناعاتهم وزراعتهم ، وافادوا منها بعد عودتهم الى أوطانهم ، كما فعلوا بالنسبة الى سكان المدن التي نزلوا بها .

وقبل أن ندخل في بعض التفاصيل نشير الى أن تجار الحرير سلكوا طريقين بريين وطريق بحري ، (انظر المخطط المرفق) .

اول الطرق البرية يدعى طريق الواحات ، الذي يمتد بين مدن الواحات في صحاري وبوادي آسيا الوسطى . وثانيها طريق البوادي الذي سيطرت عليه قبائل البدو الخيالة ، وجابوا بوادي أوراسيا الى الشمال من طريق الواحات . أما الطريق البحري فهو الى الجنوب من الطريقين الاولين ، ويمر في بحر الصين ، والمحيط الهندي ، وبحر العرب ، والبحر الاحمر ، ثم البحر المتوسط ، ثلاثة طرق تباعدة لكنها كالشرايين في جسم واحد ، هو قارة آسيا ، تخترقها من الصين الى سواحل المتوسط الشرقية ، وأهمها طريق الواحات الذي يهمننا في بحثنا هذا . فمتى نشأ هذا الطريق ومن أين بدأ والى أين انتهى ..

لا تزال الأبحاث جارية لتحديد عصر نشوء الطريق ، وأخص بالذكر منها الابحاث الاثرية . فقد قام العلماء السوفييت بتحريات سطحية وأجروا أسبارا اختبارية ، في واحات صحاري أواسط آسيا ، وعلى الاخص في تركستان الغربية ، كشفت عن أطلال مدن وبلدان محصنة يرجح أنها تعود الى الفترة الممتدة ما بين القرنين السادس والرابع ق.م . ونذكر من بين هذه المدن ياز - دبا (Yaz-Depe) التي أرخت أطلالها في الفترة من القرن الثامن الى الرابع ق.م . والتي تقع في تركمانيا السوفييتية ، وكوزيلي - جير (Kyuzeli - gyr) في أوزبكسيا السوفييتية ، والتي عاشت من القرن السادس الى الخامس ق.م . وإلى جانب هذه المدن المحصنة كشف عن حصون دائرية الشكل في كواي - كريلكان - كالا (Koi - Krylgan - Kala) تعود الى القرن الرابع ق.م (١) . ولا شك أن هذه المدن قد حصنت ليسهل الدفاع

عنها ، ولحماية قاطنيها من هجوم الاعداء وعلى الاخص البدو الخيالة . ولا نعتقد بأن نشأتها ارتبطت بطريق الحرير ، بل ان طريق الحرير ارتبط بها ، فدخلت بعد نشأتها في النشاط التجاري بين الشرق والغرب ، وأصبحت محطات قوافل تسهل حركة السير والتنقل بين جناحي قارة آسيا . فهي تعود الى العصر الاخميني ، بينما يقول الاستاذ التهامي أن التاجر الصيني الشهير تشانغ-ك-يان (Chang-K-ien) قد قاد قافلة تجارية من الشرق الى الغرب في عام ١٠٦/م . مع العلم بأن التجارة مع الصين كانت نشطة منذ عام ٧٠/ق.م ، وفق ما رواه المؤرخ أبولود وروس من مدينة أرتيميتا (Artemita) الواقعة على الطريق من سلوقيا (Seleukeia) على الدجلة الى اقبتان وهيكاتوم بيلوس وبكترا (٢) .

وتظهر المكتشفات الاثرية أن التجارة مع الهند - أي تجارة الحرير - قد انتعشت في الفترة ما بين عامي ٦١ ق.م - ٩٠ م . وإذا ما أخذنا بعين الاعتبار أن التأثيرات الفنية في فنون منغوليا الخارجية ، التي وفدتها من جنوب روسيا ، ومن الاغريق ، ومن البكتريين ، تعود الى القرن الثاني ق.م . وأن هذه التأثيرات ما كانت إلا نتيجة علاقات تجارية طويلة ، فاننا نرجح أن النشاط التجاري بين مشارق ومغرب آسيا ، يعود في جذوره الى القرن الثاني ق.م . وهو التاريخ المقبول لنشوء طريق الحرير ، الذي دام استعماله حتى القرن الثامن ميلادي ، أي نحو من ألف عام ، وذلك إبان عصر الاسرتين الهانية والتانكية في الصين ، والعصر الساساني في بلاد فارس ، والعصر الروماني البيزنطي في بلاد غربي اسيا ، وشرقي أوروبا .

كانت تشانغان (كسيان) Changan (Xian) القطب الشرقي لطريق الحرير في الصين ، وروما قطبه الغربي ، ثم ما لبثت أن اصبحت ليونغ (Luoyang) قطبة الشرقي في الصين ، والقسطنطينية قطبه الغربي ، وقد قدّر طول هذا الطريق بنحو تسعة الاف كم ، واجتاز مناطق خطرة مثل صحراء تكلاما كان Takla - Makan التي كانت حتى وقت قريب توصف بأنها البلاد المجهولة ، وكذلك صحاري التنشان (Tenshan) وكونلونشان (Kunlunshan) وبامير (Pamir) وقره قوم (Karakum) وكيزيلكوم (Kyzylkum) وجبال الهندوكوش (Hindukush) (٣) .

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فان بلدانا عديدة ساهمت في إنشاء طريق الحرير مثل الصين ، ومنغوليا والهند والباكستان وأفغانستان والاتحاد السوفياتي وإيران والعراق وسورية وتركيا ، بالإضافة الى دول حوض البحر المتوسط الاخرى، واليابان.

وفي هذا المكان نشير الى أن عالم الجغرافيا الشهير الالماني فرديناند - فون - رشت هوفن (Ferdinand Von Richthofen) هو الذي أطلق على هذا الطريق اسم (طريق الحرير) ، وذلك في القرن التاسع عشر ، ومنذ ذلك الحين توالى الأبحاث وتشعبت حوله ، ولا حاجة الى ذكر المزيد من المعلومات عنه ، بل سنعرض الى بعض صفاته ، وخصائصه ، التي تهمنا في الدراسة المقارنة بينه وبين الطرق التجارية الاقدم.

صحيح أن طريق الحرير قد ربط بين جناحي القارة الآسيوية الشرقية والغربية، غير أنه في اعتقادنا قد نشأ وتماظم شأنه لأن طرقاً تجارية أخرى قد نشأت قبله ، وأن سكان هذه القارة في عصر نشوء طريق الحرير قد ساروا على تقاليد من سبقهم ، من الأمم فاستفادوا من تجاربهم وزادوا عليها .

فمنذ نشأت الحضارة في بلاد النهرين والشام ، تطورت التجارة تطوراً سريعاً ، وسعى الناس إلى الحصول على بعض المواد الخام من البلدان المجاورة . وكان من بين المواد التي ازداد الطلب عليها ، منذ الألف الثالث ق.م ، الحجر الأزرق اللامع ، الذي يلفت النظر بلونه وشكله ، ويرضي ذوق طبقة غنية من الناس ، تجمعت لديها ثروة مكنتها من أن تطلبه ولو في الصين . علماً بأنه من الأحجار الكريمة العادية المطواعة بين أيدي الحرفيين ، وقد عثرنا على ما أنتجه هؤلاء من هذه المادة على شكل حلبي ، واختام أسطوانية ، وقطع زخرفية الخ . . في العديد من المواقع الأثرية الهامة ، مثل الوركاء وأور في جنوبي العراق ، وماري وأبيلا في سورية ، وتحدثت عنه الوثائق (السومرية والأكادية – الأيلولية – البابلية والآشورية) كسلعة تجارية هامة من غير أن تذكر مصادره . ومن المعلوم أن هذا النوع من الحجارة متوافر في أفغانستان ، لذا اهتم الباحثون بمعرفة كيفية الحصول عليه ، والطريق التي سلكها تجار هذه المادة من أفغانستان حتى تلك المدن .

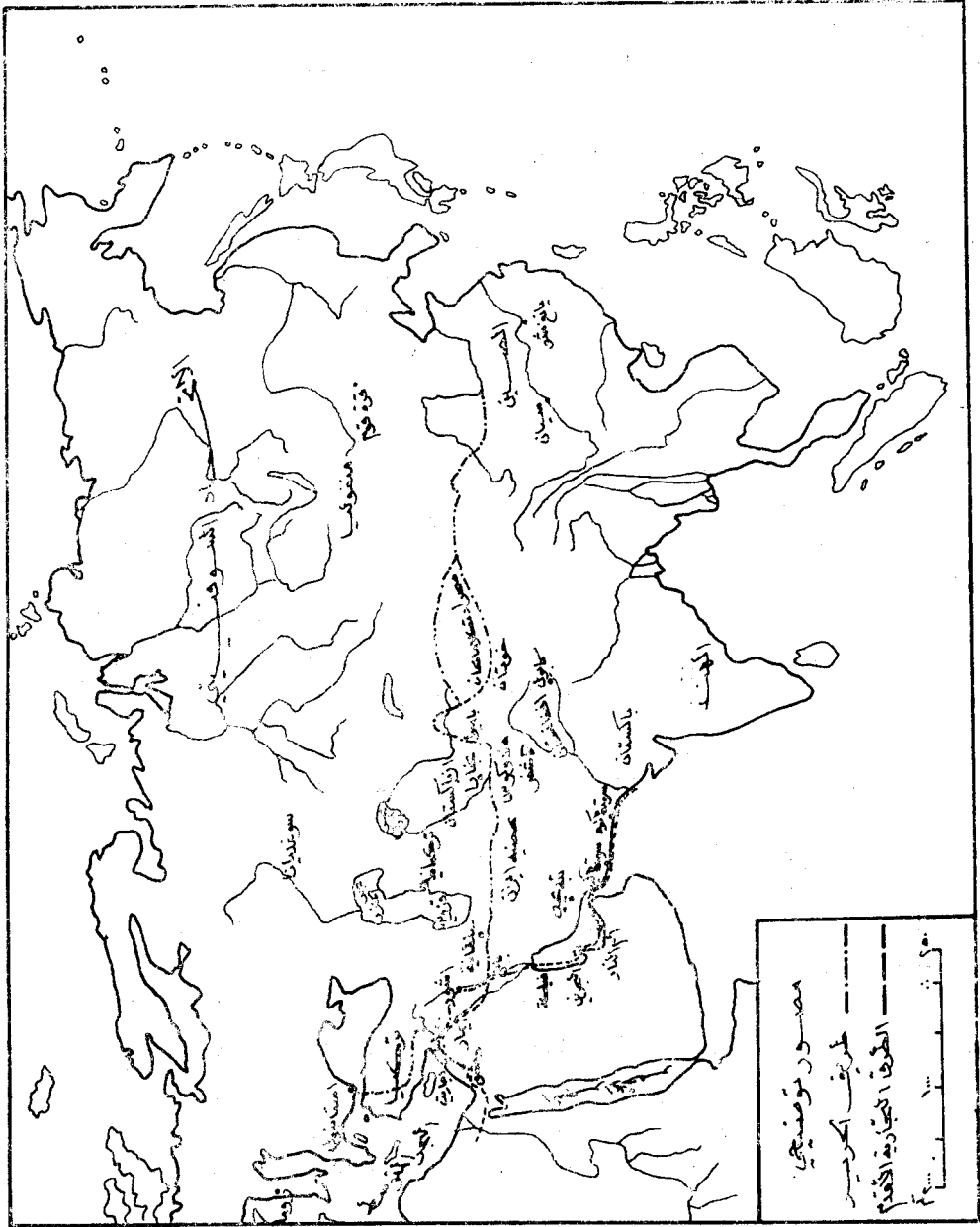
أثبتت التنقيبات الأثرية التي جرت في عام ١٩٧٢ بموقع شار إسوختا (Shar-I-Sokhta) بجنوب شرقي إيران قرب كرمان : أن حرفيي هذه المدينة ، التي لا نعرف اسمها القديم ، قد صنعوا هذه المادة في محالهم ، التي حوت بين أنقاضها على كتل من حجر اللازورد الخام والمصنع . وإلى الغرب من هذا الموقع نجد موقعا آخر مشابها للموقع السابق وهوته – يحيى ، الذي كان هو الآخر مركزاً لتصنيع اللازورد وتجارته . ونرجح أن هذين الموقعين كانا محطتين على طريق تجارة اللازورد ، والممتد من كابول إلى هذين الموقعين ، والخليج العربي (٤) .

ولما كان هذا الطريق بعيداً إلى الجنوب ، عن مدن بلاد النهرين والشام التي ذكرناها أعلاه ، افترضنا وجود طريق آخر إلى الشمال من هذا الطريق . وقد أثبتت التحريات الأثرية التي جرت في موقع تبه – هيسار إلى الشرق من طهران ، أن هذه المدينة القديمة قد تاجرت بالأحجار الكريمة مثل اللازورد وغيرها ، وصنعت أيضاً في مشاغلها ، وذلك منذ الألف الثالث ق.م . ومما لا شك فيه أن المحطة الثانية على هذا الطريق كانت تبه – سيالك إلى الجنوب من طهران ، ومنها انتقلت إلى بلاد النهرين والشام ومصر عبر الطرق التجارية المألوفة ، والتي امتدت من بابل إلى ماري وقطنة وحاصور ثم مصر .

أذن كان هناك طريقان لهذه المادة : الأول شمالي يمتد من كابول مجتازاً إيران عبر تبه هيسار وتبه سيالك إلى جنوبي العراق (أو إلى مدينة آشور في الشمال) ،

(طريق الحرير - طريق الحوار)

ومن ثم الى شمالي سورية وجنوبها حتى مصر . والثاني يمتد من كابول الى شار
السوختا ، وتبه يحيى ، فالخليج ، حيث تنقل بحريا الى سواحل الهند ، وشبه
الجزيرة العربية .



هذا باختصار عن طريق اللازورد ، وقد ذكرنا أعلاه ، أن هذه المادة قد رغب بها الاغنياء ، وصنعت تلبية لرغباتهم كحلي واختام وعناصر زخرفية . وفي اعتقادنا أن مادة الحرير - أقمشة الحرير المتنوعة - قد صنعت ، هي الأخرى ، خصيصا ، كي تصلح كهدايا للملوك ، والأمراء ، والمشايخ ، والزعماء . وقد حملتها قوافل الجمال من محطة الى أخرى ، وقطعت بها مسافات طويلة ، الى حيث تباع لطبقات الناس التي ذكرناها أعلاه .

هذه ناحية من النواحي التي جمعت بين تجارة اللازورد وتجارة الحرير ، فكلتا المادتين كالميتان ، راجت تجارتهما تلبية لذوق طبقات معينة من المجتمع .

وكانت مادة النحاس سلعة تجارية هامة تدخل في صناعة حاجيات عديدة منها الاسلحة والادوات المنزلية وغيرها . الخ . ولم يكن النحاس متوافرا في بلاد النهرين والشام ، وإن كانت له مناجم فقيرة في سيناء ، وأخرى في منطقة واحة البريمي على الطرف الشرقي لشبه الجزيرة العربية المتاخمة لسواحل عمان الغربية ، لذا كان لا بد لسكان هذه البلاد من استيراده من مناطق عدة .

ومن الوثائق التي اكتشفت في مدينة أور ، والتي تعود الى النصف الثاني من الألف الثالث ق.م ، تعلم أن النحاس قد أستورد من باكستان بطريق البحر ، أي بواسطة السفن التي كانت تبحر من جزيرة فيلكة حذاء الساحل الشرقي لشبه الجزيرة العربية ، مارة بالبحرين وأم النار ، حتى مضيق هرمز ، محملة بالحبوب والسمسم والنسيج ومنها الى موانئ سوتكاكين (Sutkagen) ودور (Dor) ، وسوتكاكوه (Sotka-koh) حيث تفرغ حمولتها وتعود محملة بالنحاس . وهذا الطريق هو الطريق عينه الذي سلكته السفن التي نقلت سلع الحرير من الشرق الى العراق ، فالبادية الشامية ، عبر تدمر الى أنطاكية ، وبلدان البحر المتوسط (٥) .

وفي هذا السياق عن تجارة النحاس ، نعرض الى التاجر الشهير ايسا - ناصر من مدينة أور ، الذي عاش في عصر الملك رم - سن (١٨٢٢ - ١٧٦٣ ق.م) ملك لارسا ، واكتشف بيته مع وثائقه في تلك المدينة . والذي يهمنا هنا أن هذا التاجر كان يدفع ، على الغالب ، ثمن النحاس وغيره من الحاجيات الفضية ، مما يدل على أن الفضة كانت متداولة كمادة تقدر على أساسها قيمة السلع التجارية . وقد كانت قيمة الفضة مستقرة نسبيا ، ومرتبطة بنقاء هذه المادة ووزنها . وهي فوق ذلك غالبية الثمن ، خفيفة الوزن ، يسطحها التاجر معه بسهولة لدفع ائمان بضائعه . وإلى جانب هذه الخاصة الممتازة ، فإن الفضة لا تتشوه بسهولة ، وتحفظ لفترات طويلة .

ولذلك قامت في هذا العصر ، وعلى هذا الشكل ، مقام النقود وإن لم تكن مسكوكة (٦) ، وازداد استعمالها باطراد بما يتناسب وحجم التجارة . وهذا يذكر بظاهرة ازدياد صك العملة الفضية عند البارثيين في إيران في عهد مئري - داتس الثاني (Mithridates II) ، وذلك بسبب ازدهار التجارة مع الصين وخاصة تجارة الحرير (٧) .

أشرنا أعلاه الى المكتشفات الاثرية في تركستان الشرقية والغربية ، وقلنا ان مدن واحات تركستان المحصنة قد دخلت في الحركة التجارية بين الشرق والغرب . وقد لعبت دورا نشيطا في حركات النقل والسير والتجارة ، وتاجرت بالسلع التي اتتها من الشرق والغرب . وجنت من ذلك فوائد عديدة ، إما على شكل ضرائب استوفتها مباشرة من القوافل ، أو اتتها مما جمعته ممالك البدو ، التي كانت تسيطر على مدن الواحات . ونذكر من هذه الممالك تشيونغ - نو (Xiongnu) ، التي حلت محل يوزيهي (Yuezhi) ، وغزت مدن الواحات في شرق تركستان ، كما فعل غيرها من قبائل البدو في اواسط آسيا . ومن المواد التي تاجرت بها اليشب الذي كان يُنتج من منطقة كُنلون (Kunlun) ، وينقل الى الصين بوساطة الكوش (يوزيهي) — Yuezhi — الذين نقلوا ايضا الحجر الفيروزي والتمائم المعروفة بخزرة العين من آسيا الغربية ، وعلى الاخص من سيناء ، الى الصين ، حيث كانت تدرج مع التحف الهامة . ولها قيمة عالية . وبالمقابل فان مدن واحات تركستان الشرقية ، قد نقلت من الصين منسوجات البروكار والاسلحة الحديدية ، التي كانت مشهورة باسم حرير - سيرس ، والخناجر الحديدية (Sers Silk and Iron Blade) . وانطلاقا من هذه التسمية ، يُعتقد أن قبائل السيرس (= Yuezhi وفيما بعد Gush) هي التي قامت بهذه المهمة في شرق تركستان (٨) .

ومما يدل على أهمية هذه القبائل ، وعراقلة تجارتها بالحرير ، أن اسم الحرير في الصين وإيران ، وفي بعض البلدان الاوروبية ، مثل اليونان وإيطاليا قد اشتق من اسمها . أو صيغ منه بتحويلات وتبديلات طفيفة . فاسم الحرير باللغة الصينية (سي) و (سيار) . وفي بلاد فارس سيري وفي السنسكريتية سيراى . أما في التوخارية فنجد كلمة ساريق تدخل على ثوب الحرير ، وهي شبيهة بالكلمة الفارسية سيري ، التي انتقلت الى العربية بصيغة السَّرَقَة وتعني الشقة من الحرير (٩) .

كان هذا بعضا من ملامح الدور الذي لعبته تركستان الشرقية في طريق الحرير ، وهو لا يقل أهمية عن الدور الذي لعبته تركستان الغربية والمملكة البارثية ، التي كانت اقوى الممالك التي أسسها البدو الخيالة في آسيا .

قام البارثيون بدور الوسيط في التجارة الدولية ، فقد نقلوا السلع التجارية الآتية من الشرق الى دول البحر المتوسط حتى روما . ومن المرجح ايضا أنهم عملوا على نقل بعض السلع التجارية ، التي أتت من روما وسورية ، كالوانى الزجاجية ، والتمائم الزجاجية (خزرة العين) ، والكتان ، والمنتوجات الذهبية ، والفضية ، والوانى الفخارية ، الى الشرق . وبذلك تضاعف دخلهم ، وجنوا الارباح الطائلة من هذه الوساطة (١٠) .

ويستفاد مما ذكرنا أعلاه أن ممالك المدن التركستانية ، والمملكة البارثية ، قد قامت بدور الوسيط في تجارة طريق الحرير . وهذا يذكرنا بدور كل من إيمار وماري على الفرات .

تقع ماري على الضفة اليمنى لنهر الفرات ، وتحيط بها السهول الخصبة ، التي تروى من مياهه . وقد ذكرت في وثائقها أسماء العديد من المدن والمناطق القريبة والبعيدة ، مثل تلمون (البحرين) ، وحاصور بسهل الحولة في فلسطين ، وجبل / بيلوس ، أجريت ، وحتوشة في الاناضول ، والاشيا / قبرص ، وكبتارو / كريت . وما كان لهذه الاسماء أن يتردد ذكرها في وثائق ماري ، لولا مكانة هذه المدينة الاستراتيجية البالغة الاهمية ، ومكانتها التجارية العالية ، اضافة الى أنها تمتاز بموقع متوسط في بلاد النهرين وتخرج منها طرق عدة ، ومنها الطريق الصحراوية التي تمتد على ضفة الفرات اليمنى ، ثم تعبر الصحراء مروراً بواحاتها ، كالطيبة ، وآكوم ، والسخنة ، ثم تدمر فقطنة . ومن قطة تسير غرباً الى الساحل ، أو نحو الجنوب الغربي الى فلسطين فمصر .

ان طريق الضفة اليمنى هذه تستمر حتى إيمار ، ومنه تتجه غرباً الى حلب ، فساحل المتوسط ، أو شمالاً الى كركميش ، فهضبة الاناضول ، أو جنوباً لتلتقي بطريق البادية التي ذكرناها . وإلى جانب هاتين الطريقين ، ثمة طريق محاذية للخابور ، تصل ماري بآشور ، أو بهضبة الاناضول .

كان للملك ماري قوافل تجارية خاصة بهم يرسلونها الى تلمون / البحرين ، أو الى بابل ، كما كانت تحط فيها قوافل التجار الآتية من تلمون ، أو من أماكن أخرى من شمال سورية . ولذلك كان لها دور مزدوج ، كمحطة لمرور القوافل ، أو لتفريغ البضائع ثم إعادة شحنها الى أماكن أخرى . ومن المواد التي وردت الى ماري ووزعت منها الى بلاد النهرين ، وسورية ، التوتياء والنحاس والخشب .

نعمت ماري بهذا الموقع الاستراتيجي الهام ، فزادت ثروتها من الضرائب التي فرضتها على التجارة ، أو من الهدايا التي حملها التجار الى القصر الملكي ، وإلى أمثالهم من تجار ماري ، أو من الأرباح التي حصلت عليها من تبادل البضائع . وفي الوقت نفسه كان هذا الموقع وبلا عليها ، فهاجمها حمورابي ، وأحرقها ، حتى يَبْقَى السيطرة على الطرق التجارية في يد بابل .

وكما ذكرنا أعلاه ، فان هذا الحدث قد تكرر في تركستان الشرقية ، على أيدي قبيلة شيونغ - نو ، التي طردت قبيلة يوزهي ، وسيطرت على محطات القوافل ، لتتحكم بالطرق التجارية وتقوم بدور تجاري مزدوج .

وتمتعت إيمار بموقع استراتيجي هام كماري ، وقامت بدور بارز في تجارة المنطقة يفوق دور ماري . وقد عرف أهلها كيف يحافظون على التوازن بين مصالح الدول القوية المجاورة ، مثل ماري وإيلا ، ويمحاد / حلب ، وكركميش . وفي إيمار تجمع أشخاص كثيرون من الشرق والغرب وانتشر تجارها في جميع مناطق الشرق الأوسط تقريباً . وقد عانت هذه المدينة من غزوات البدو ، وخاصة عشائر البنيامين ، التي سطا أفرادها على القوافل التجارية ونهبوها ، أو رعت قطعانهم حقولها الزراعية ،

فانخفض انتاجها من الحبوب . وقد اشرنا الى هذه الحالة لانها كانت شديدة التأثير على إيمار ، لانها لم تقو على مخاصمة البدو ، كممالك ماري وبمحاد وكركميش وتوتول التي اتقت شرور البدو ، وقاومتهم ، بخلاف إيمار هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ، نرى أن هذه الحالة قد تكررت مرة أخرى في مدن الواحات بأواسط آسية ، التي مر بها طريق الحرير ، فقد أحيطت تلك المدن بالأسوار المنيعة الحصينة لحمايتها من هجوم البدو الخيالة ، الذين كانوا يغيرون على القوافل بين الفينة والاخرى لسلب البضائع أو لتقاضي الفدية عنها .

وفوق هذا كله ، ساهم البدو الخيالة في نقل البضائع الحريرية من الصين نحو الغرب عبر بوادي اوراسيا ، فأصبحوا المنافسين الرئيسيين لسكان وتجار مدن الواحات (١١) . لقد دخل البدو الخيالة ، في أقاصي الشمال من القارة الآسيوية ، في تنافس شديد مع مدن الواحات للسيطرة على الخطوط التجارية بين الشرق والغرب ، كما تثبت الوثائق التاريخية . لقد حاولت كل من مملكتي خوتان (Khotan) وسوغديانا (Sogdiana) ، وغيرها من ممالك الواحات ، أن تنتج الحرير في القرنين الرابع والخامس ق.م . وتدخل في تنافس شديد مع المنتجين الآخرين ، وتنقله نحو الغرب . ولتحقيق هذه الغاية كان على مشاهير تجار سوغديانا ، أن يقيموا علاقات متينة مع البدو الخيالة ، مثل قبيلتي الترك (Turk) واليفور (Uighur) ، حتى يتمكنوا من تصريف بضائعهم (١٢) .

إن هذه السياسة التي سارت عليها خوتان وسوغديانا ، كانت قد سبقت إليها إيمار في القرن التاسع عشر من الألف الثاني ق.م . وكما أسلفنا لم تكن لدى إيمار قوات كافية لشن الغارات ، أو مهاجمة مدن أخرى ، أو قبائل البدو في أراضيها ، لذلك وطدت العلاقات معهم وآوت الفارين منهم في أراضيها اتقاء لشرهم ، ولم تستجب الى طلبات ملكي ماري يخدون - ليم ، وزمري ليم للتحالف معهما ضد عشائر البنيامين الذين انتشروا على ضفاف الفرات بين هاتين المدينتين .

وكما ذكرنا في البداية ، لم يكن طريق الحرير طريقا تجاريا وحسب ، بل سار فيه هواة الرحلات ، ورجال الدين ، نذكر منهم الراهب البوذي فكسيان (Faxian) من إقليم جين (Jin) الشرقي ، الذي قام برحلة شاقة عبر الصحاري الجليدية في القطب الشمالي والباير ليصل الى الهند ويزور أماكن العبادة البوذية ، ومنها عاد الى الصين بطريق البحر . وبعده بسنوات قام راهب بوذي آخر هوشوان - زوانغ (Xuan Zhuang) برحلة من دون - هوانغ (Dunhuang) الى تركستان الغربية ، ثم الهند ليجمع المخطوطات البوذية وينقلها الى الصين ، ولما عاد الى الصين ، ترجمها الى الصينية ، وتمتع بحماية الامبراطور تايزونغ (Taizong) من سلالة التانج . وقد ساعد هذا الراهب على نقل البوذية الى الصين بوساطة الطلاب اليابانيين ، الذين تتلمذوا على يديه .

إن هذه الظاهرة ، ظاهرة الرحيل من بلد الى آخر طلبا للتعرف على المعتقد الديني ، والايمان به ، شديدة البروز في الديانات القديمة ببلادنا ، مثل ظاهرة نقل

تمثال رب من مدينة الى اخرى ، ونحن هنا لا ندخل في تحليل مدلولية هذه الظاهرة ، بل نعرض الى وقائعها بغرض المقارنة .

كان الرب هدد اعلى ارباب مدينة إيمار / مسكنة ، والبدو والحضر يحجون الى بيته في إيمار . ففي رسالة لاجي ايل ، نجد إشارة الى شخص يدعى ياكون - حمو ، قريب أيتالم ملك أباتم ، التي كانت في المنطقة المجاورة لقلعة جعبر على ضفة الفرات اليسرى (قبالة مدينة الثورة) . وكان قد رغب في زيارة إيمار ، لتقديم الاضاحي لأربابها . فكان له ما أراد ، وبحماية الملك أيتالم ملك أباتم . وهو لم يقطع المسافة الطويلة ، التي قطعها الرهبان البوذيون من الصين الى الهند ، إنما جمعت بينهم فكرة واحدة ، هي السفر والتنقل للقيام بواجبات دينية تحت حماية ملك . كان ذلك في عهد زمري ليم ملك ماري (١٧٨٢ - ١٧٥٩) ، الذي هو نفسه قدم الاضاحي الى الرب دجن في مدينة توتول ، قرب الرقة (لعلها تل البيعة شرقي الرقة) .

لم يكن زمري ليم الملك الوحيد ، الذي قدم الاضاحي للرب دجن ، بل نجد أن بانوما - هدد ، ملك زلماقم (على البليخ بين الرقة وتل أبيض ، ولعلها تل حمام التركمان) ، قد أراد ، هو الآخر تقديم الضحية الى الرب دجن التوتولي ، فاجيب الى طلبه ، شريطة أن يحضر برفقة عشرين رجلا فقط (١٢) . وذلك حسب نصيحة إيمار . إن هذه الظاهرة قد تدرج تحت عنوان وحدة دينية جمعت بين مدينتين في منطقة واحدة ، ولعلها مشابهة للوحدة الدينية بين بعض أقاليم الهند والسند من جهة والصين وتركستان من جهة اخرى ، وهي الدول التي زاد طريق الحرير من تقاربها .

صراع القوى على الطرق التجارية :

عندما اعتلى يوليوس قيصر عرش روما ، وضع نصب عينيه قهر المملكة البارثية أولا ، ثم السيطرة على التجارة المزدهرة بين الشرق والغرب . إلا أن موته الفجائي عام ٤٤ ق.م ، لم يمكنه من تحقيق هذا الهدف ، ولم يتمكن خلفه ماركوس أنطونيوس من تحقيقه أيضا ، بل لحقت به ، على يد البارثيين هزيمة نكراء . وبعد ذلك تارجحت العلاقات بين روما والبارثيين بين فتور وصداقة ، وازداد حجم السلع الشرقية الواردة الى ايطاليا زيادة كبيرة ، ومعظمها كان من السلع الكمالية . وتوسعت شبكة الطرق التجارية الى مناطق النفوذ الروماني حتى لا تكون تحت سيطرة دولة واحدة ، فازدادت أهمية تدمر ، كمركز تجاري هام ، تقاد اليه القوافل الآتية والقادمة من والى المملكة البارثية والامبراطورية الرومانية (١٤) .

وقبل ذلك بمئات السنين ، كان الصراع على أشده بين ماري وإيبلا للسيطرة على الطرق التجارية بين بلاد النهرين والشام ، في منتصف الالف الثالث ق.م . ثم احتدم الصراع بين أكد وإيبلا للغاية نفسها ، فانتصرت أكد على إيبلا في عصر نارام - سن (٢٢٥٩ - ٢٢٢٣) ق.م .

ولما انتقلت السلطة الى القبائل العربية الكنعانية الامورية عند نهاية الالف الثالث ق.م ، شهد القرنان الاولان من الالف الثاني ق.م نشوء ممالك عديدة في بلاد النهرين والشام ، تصارعت على السلطة ، وتنافست على فرض هيمنتها على الطرق التجارية . وفعل حمورابي (١٧٩٢ - ١٧٥٠) ما فعله نارام - سن الاكدي فوحد بلاد النهرين ، واتجه غربا نحو الشام ، فاحتل ماري ودمرها ، وسيطر على بلاد آشور . وبذلك يكون قد سيطر على الطرق التجارية بين الشرق والغرب .

وبتهديم ماري ، تحولت عنها طريق بابل - آسيا الصغرى ، الى آشور فشوبات انليل وكرميش ، ومن آشور اتجهت الى دور كتليمو على البليخ ، ثم الى ترقا على الفرات ، ومنها الى إيمار فحلب . . . الخ .

لا شك أن الطرق التجارية بين الشرق والغرب ، قد عرفت باقة متنوعة من أهمر التجار ، ذوي الشأن في ازدهار التجارة ، وتطوير العلاقات بين الدول وتقويتها ، ونذكر منهم ، على سبيل المثال لا الحصر ، التاجر مان-باخ الصفدي (Soghdian) الذي أسهم اسهاما جليلا في تحسين وتنمية التجارة بين الشرق والغرب ، وقد ترأس بعثة بلاده التجارية الى دايزابولوس ، وخاكان القرية التركية ، وتنقل بين معسكر خاكان في وادي يول دوز ، وستي سفون (عاصمة الاسرة الساسانية) ، وبيزنطة ، حتى يبيع الحرير الصيني . وبالمقابل ، قدمت بعثة يرأسها اليوناني زي مارخوس الى معسكر خاكان أوفدتها بيزنطة . واذا عدنا الى القرن الثامن عشر ق.م ، وجدنا أن ملك ماري زمري ليم كان له سفير في كرميش ، وهو صدقم لاناسي ، يهتم بالامور التجارية ، ويعمل على تقويتها .

اما في إيمار ، فقد كان هناك وكلاء تجاريون يسهلون عمليات الترانزيت ونقل البضائع وتخزينها . ونذكر من تجار إيمار التاجر (هاباتان) ، الذي كان له مقر في ماري ، يعمل به موظفون ينظمون حركة نقل بضائع هذا التاجر بين ماري وإيمار (١٥) .

فيما مضى من سطور ، أبرزنا بعض معالم الشبه بين طريق الحرير والطرق التجارية في مشرقنا العربي ، في الالف الثالث والقرنين الاولين من الالف الثاني ق.م . من غير أن نظهر أوجه الخلاف والافتراق . وعلينا أن نقر حقيقة هامة ، وهي أن الكثير من الاسس والقواعد التجارية لا تتغير ، من ذلك الطرق ، المحطات ، الاسواق ، الموانئ ، الضرائب ، الارباح ، اختيار البضائع التي تناسب أذواق الناس . . . الخ . ونتيجة لما تقدم ، نرى أن أسس وقواعد التجارة ، قد صيغت في هذه المنطقة ، وأن مبدعي حضارة بلادنا قد طوروا هذه الاسس ، ونشروها في بلاد الجوار ، الذين قاموا هم بدورهم ، فاستفادوا منها وأضافوا اليها .

الحواشي

- (١) The grand Exhibition of Silk Road Civilizations. The Oasis and Steppe Routes, Nara (1988) Catalogue p. 13 - 14 .
- (٢) F. Altheim , Welteschichte Asiens Im Griechischen Zeitalter Halle (1947) , p. 347f.
- (٣) المصدر المذكور في الهامش رقم ١/ / ص ١٢ .
- (٤) H. Klengel , Handel und Handler Im Alten Orient , Leipzig (1979) p. 25f.
- (٥) The grand Exhibition of Silk Road Civilizations . The Sea Routes Nara (1988) Catalogue p. 154 .
- (٦) H. Klengel , op. Cit . p. 36f.
- (٧) F. Altheim . op. Cit . p. 348 .
- (٨) The Grand Exhibition of Silk Road Civilizations , The Oasis and Steppe Routes . p. 14 .
- (٩) F. Altheim . Op. Cit . p. 66 - 68 .
- (١٠) F. Altheim . Op. Cit. p. 14 .
- (١١) نفس المصدر المذكور في الملاحظة رقم ٩ - صفحة ١٥ وما بعد .
- (١٢) نفس المصدر المذكور في الملاحظة ١٠ ص ١٦ - ١٧ .
- (١٣) Jean - Marie Durand , La Cité - État D'Imâr a L'époque des Rois De Mari , MARI 6 (1990) , p. 50 - 51 .
- (١٤) The Exhibition of Civilization of Syria , (1988) , p. 156 .
- (١٥) Jean - Marie Durand, Op. Cit, p. 75.

طريق الحرير بين ابن بطوطة و ماركو بولو

د. عبد الرحمن حميدة

جامعة دمشق

من غير اليسير على الباحثين تفسير قيام وازدهار و جلال مدن عريقة ، كانت تؤلف معالم الطريق البري الآسيوي العظيم ، كتدمر والري (قرب طهران الحالية) والرقه وبالس وبخارى وكاشغر ، دون التعرض لمواد أولية ثمينة كانت ترد من الشرق الأقصى ، مروراً بالمدن المذكورة ، وهي الحرير والحجارة الكريمة من ياقوت وعقيق ولازورد ، والفراء الذي كان يجلب من مجاهل سيبيريا .

ولكن اذا كانت طريق الحرير تبدأ شرقاً من الصين فقد كانت تخترق فيافي منغوليا وحوض نهر تاريم الصحراوي وفجاج وممرات أفغانستان وبلاد فارس ، كي تخترق بلاد الرافدين ومنها الى بلاد الشام ، كي تتفرع الى فرعين . الاول : بري يخترق الاناضول الى القسطنطينية ، عاصمة بيزنطة ، ومن ثم مقر الخلافة العثمانية بعد عام ١٤٥٣م (٨٥٧ هـ) لمدة أربعة قرون من الزمن ، أو نحو موانئ البحر الابيض المتوسط ، مثل اسكندرونة وطرابلس كي تنطلق المراكب منها الى جنوة أو البندقية ، أو مرسلية .

ولقد ظلت هذا الطريق مهوى أفئدة تجار أوروبا ومغامريها وسبب الشغور المرير بالحسد لديهم تجاه تجار المشرق العربي ، في مصر أو بلاد الشام ، الذين كانت توأبل الشرق الأقصى والحرير والحجارة الكريمة تمر من خلال أيديهم ويجنون من ورائها الارباح الطائلة ، اذ كانوا مضطرين ، صاغرين ، الى شرائها بوساطة المشاركة القسرية .

ومن المفارقات العجيبة ان يقصد الصين ، مصدر الحرير ، الذي كانت تتلطف على شرائه الاوساط المترفة ، بعد تحويل شرائقه الى أقمشة ، طبعاً ، من شعوب الشرق الأدنى وأوروبا وأفريقيا ، أقول ان يقصد بلاد الشرق الأقصى اثنان من مشاهير الرحالة ، ينتسب أولهما الى دولة ذات تقاليد بحرية عريقة ، هي جمهورية البندقية ، وأقصده ماركو بولو M. Polo ، الذي بلغ الصين عن طريق البر ، عن سابق تصميم ، في حين بلغ ابن بطوطة الطنجي الصين ذاتها ، ولكن عن طريق البحر ، بصورة رئيسة ، وهو المنحدر من قبيلة لواته البربرية ، والمنتسب الى مملكة المغرب التي لم تكن تملك أسطولا كبيراً ولا تقاليد بحرية عريقة ، حتى أن سلفه الرحالة ابن جبير

دراسات تاريخية ، العددان ٣٩ و ٤٠ ، كانون الاول ١٩٩١ .

قصده الحج على متن سفينة جنوبية . كيف لا وقد أطلق العرب على البحر المتوسط اسم بحر الروم ، بعد أقول نجم سيادتهم عن حوضه ، اللهم الا في خلافة عثمان بن عفان سنة ٢٨هـ / ٦٤٩م . وقد كانت آخر محاولة للبحرية العربية في عهد معاوية سنة ٦٧٤م ولكن الاسطول العربي اضطر للانسحاب بعد أن استعمل البيزنطيون النار اليونانية ، وقال شاعر عربي :

البحر مرّ المذاق صعب لا جُعلت حاجتي اليه

ليس ماء ونحن طين؟ فما عسى صرنا اليه

كما روي عن الشاعر أبو العرب الصقلي يشكو ضعف قوة العرب البحرية بالموازنة مع بحرية بيزنطة وأسطول جمهوريتي البندقية وجنوة :

لا تعجبن لرأسي كيف شاب أسي وأعجب لأسود عيني كيف لم يشب

البحر للروم لا تجري السفين به الا على غررٍ والبرّ للعرب

وكان على العرب عامة والمسلمين خاصة أن ينتظروا حتى القرن السادس عشر الى أن يظهر خير الدين بربروس أمير البحر في عهد السلطان العثماني سليمان القانوني ، الذي قهر أسطول آندريا دوريا الجنوبي (١٤٦٦ - ١٥٦٠) والذي سبق له بدوره أن قهر الاتراك في معركة بلانوزا Planoza ، أو بعبارة أخرى أعاد بربروس ذكرى انتصار معركة ذات الصواري في أيام الخليفة معاوية الاول .

* * *

واذا كان ماركو بولو ينحدر من أسرة تملك بيوتات تجارية ، في موانئ شرقي البحر الابيض المتوسط ، وكان يريد استكشاف الطريق التجارية البرية الذي كان حكرا على المسلمين ، مما يجعل من ماركو بولو شبيها في دوافعه بكريستوف كولومب الذي كان يبحث عن طريق تقوده للهند مصدر التوابل و سلع الشرق الأقصى للتخلص من هيمنة العرب على تجارة هذه المواد الغالية ، فان ابن بطوطة كان أقرب الى سائح وصوفي وعالم فقيه .

والواقع لم تحقق معرفة الارض ، في أوروبا ، خلال الفترة الممتدة من عصر الاسكندر المقدوني الكبير أو الثالث (٣٥٦ ق.م - ٣٢٣ ق.م) حتى القرن الثاني عشر الميلادي ، أي تقدم يستحق الذكر . وظلت جغرافية بطليموس هي المصدر الكبير للمعلومات الجغرافية عن العالم . وبالطبع كانت هناك رحلات وأسفار ، فوق متن البحار وعلى الطرق البرية ، قام بها العرب منذ القرن الثامن الميلادي (الثاني الهجري) بلغوا فيها الصين ذاتها برا أو بحرا .

ولهذا كان لاول كتاب يظهر في لغة أوروبية بعد فراغ في قائمة المستكشفين امتد على ١٥٠٠ عام في القارة الأوروبية وهو كتاب ماركو بولو ، صداه الواسع المدى وتأثيره . ففي خلال هذه الحقبة لم يرد ذكر للقارة السوداء أو آسيا البعيدة ، غير أن التعطش للمعرفة ظل يقظا ومتحفزا ، ومتجها نحو قطب الفضول العلمي ، أي نحو الهند ، وكان هاجس ارتياد طرق الشرق الأقصى ، الذي حققه الاسكندر ، والذي شغف به آخرون من قبله ، أقول راح هذا الهاجس يدغدغ بشكل مكتوم ، وخلال خمسة عشر قرنا ، ادمغة سكان السواحل الشمالية للبحر المتوسط . وقبل أن يندفع كريستوف كولومب فوق عباب بحر الظلمات (المحيط الاطلنطي) كانت أوروبا ترسل رهبانها ، وتجارها ، وسواحها ، نحو مجاهل الاراضي الشرقية . فلم يقم فاسكو دوغاما برحلته ، التي طاف بها حول أفريقيا واكتشف رأس الرجاء الصالح ، وتوقف في موزمبيق وبلغ الهند ، وما كانت رحلة كريستوف كولومب ، الا بقصد الاستيلاء على الكنوز الاسطورية التي كنب عنها رحالة سابقون ، والتي لا يمكن بلوغها الا بالالتفاف من خلف الحاجز الاسلامي الذي كان يفلق الطريق في ذلك العصر في وجه النفوذ الغربي الى الصين .

فحتى ذلك الوقت كان الشرق ، في انظار الأوروبيين ، مرادفا للرعب والمخاوف بعد فشل الحملات الصليبية المتتالية . وفي أعقاب الاجتياح المغولي الكبير الذي لم تنج منه أوروبا الا بمعجزة في ١٢٤١ م ، لم تحقق السفارتان اللتان قام بهما عدد من الرهبان الفرنسيين أي نجاح يذكر ، والتي كانت أولاهما برئاسة جان دوپلان كاربان Carpin (١٢٤٥ - ١٢٤٧ م) ، والثانية بقيادة غليوم دو روبرك G. de Rubrock (١٢٥٣ - ١٢٥٤ م) ، بعد أن وصلا الى كورو كوروم ، عاصمة المنغول في أواسط القرن الثالث عشر ، وكانت مهمتهما تنحصر في تسليم (الخان الكبير) رسالتين من البابا اينوسان الرابع ولويس التاسع ، ملك فرنسا وقائد آخر الحملات الصليبية . وقد رجع پلان دو كاربان الى أوروبا حاملا الجواب الشهير من امبراطور المغول والذي يقول فيه : « نحن نعبد الرب ، وبلاستعانة به ، سنقوم بغمر الارض بالاطلال بدءا من الشرق حتى الغرب » .

ومن الجدير بالذكر أيضا التنويه برحلة بنيامين الطيطلي ، الذي يعود أصلا الى اقليم نافار في اسبانيا ، والذي قام قبل قرن من رحلة ماركو بولو وظل خلال ١٤ عاما يرتاد أرجاء آسيا بقصد « زيارة واحصاء كل اليهود من أتباع الديانة الموسوية المنتشرين على سطح الارض » . وقد ارتحل بنيامين المذكور من القسطنطينية الى بغداد ، ومنها الى سمرقند وجزيرة سرنديب (سيلان أو سريلانكا الحالية) وبلغ الصين كي يعود الى الحبشة ، وقدم ملاحظات أدت لتوسيع المعلومات الجغرافية الأوروبية في ذلك العصر ، عن أصقاع آسيا الداخلية .

ماركو بولو (١٢٥٤ - ١٣٢٤) :

وقد كانت أسرة بولو Polo تملك مؤسسة تجارية عريقة في القسطنطينية ، ومكتبا تجاريا فرعيا هاما في شبه جزيرة القرم ، كما كانت أسرة بولو ، في الوقت ذاته على اتصال وثيق مع بلاد الشام ، ولا سيما في حلب «خان البنادقة» ، ومع امبراطورية التتر ، وهذا عندما قام الاخوان نيكولو ، وعمه ماتيو ، بالانطلاق في سنة ١٢٦١ نحو الصين ، وجرى لهما استقبال في بلاط الامبراطور كوبيلاي خان^(١) الذي عهد اليهما بمهمة السعي لدى البابا لارسال «مائة من علماء وجهابذة الفنون السبعة» . وبعد عودتهما الى البندقية في ١٢٦٩ استأنفا رحلة العودة الى الصين مصحوبين بالشباب ماركو ، الذي كان عمره آنئذ ١٧ عاما ، وحملهم البابا غريغوار العاشر رسالة وهدايا للامبراطور كوبيلاي ، الذي استقبلهما سنة ١٢٧٥ في مقره الصيفي في مدينة شانغدو (كايبينغ اليوم) بعد رحلة استغرقت ٤ سنوات ، اجتازوا خلالها بلاد فارس وهضبة بامير والتركستان الشرقية ، وطريق غانسو (اليوم كانسو) وبلاد خطاي (الصين الحالية) . ولم يفادروا الشرق الاقصى الا بعد ١٦ عاما ، أي في ١٢٩١ ، كي يبلغوا موطنهم في البندقية في عام ١٢٩٥ .

وكانت بداية الرحلة التي اشترك فيها ماركو ، في عام ١٢٧١ ، انطلاقا من ميناء باباس في صدر خليج اسكندرون وقضت ثلاثة أعوام ونصف نحو بكين ، من أقصر طريق ، أي من جنوبي الجبال السماوية في سلسلة تيان شان . وقد بلغوا أولا مدينة ايسوس Issus ، رأس خط التجارة الآسيوية ، والذي لم يحيدوا عن ركوب مساره . وفي أرمينية زاروا أولا قمة جبل آارات ، حيث زعم ماركو أن فيه بقية سفينة نوح عليه السلام . أما بحر الخزر الذي كان يمخر عبابه آنئذ البحارة الجنوبيون ، منافسو البنادقة ، فقد ذكر ماركو وجود منابع النفط ، الذي كان يستخدم كوقود وكعلاج ضد جرب الابل . ومن هناك انحدر نحو هرمز في مدخل الخليج العربي حيث كانت تتفرغ حمولة المراكب ، المجدولة بالاليف ، من بضائع الهند .

ثم صعد الركب نحو الشمال ونحو الشرق مرورا بصحارى تحوي مدنا مزدهرة الى أن بلغوا سابورغان التي تشتهر «ببطيخ أكثر حلاوة من العسل» ووصلوا مدينة بلخ عند التخوم الشمالية الشرقية لبلاد فارس ، واقليم بادخشان ، الواقع بين جبال

(١) كوبيلاي : امبراطور الصين من عام ١٢٥٩ الى ١٢٩٤ . ولد حوالي العام ١٢١٤ ، أبوه طولوي ، حفيد جنكيز خان . وأسس أسرة يوان Yuan التي حكمت الامبراطورية بين ١٢٨٠ - ١٣٦٨ . وأخل على عاتقه الاستيلاء على امبراطورية سونغ . ولكنه اصطدم باليابان والهند الصينية . وقد أخضع لسلطته ملوك آسام وتشامبا وبورما . وكان عليه أن يحارب ضد عمه كايدو ممثل حزب المنغول القديم . وقد دان الصينيون لسلطته بعد تبني عاداتهم وحمى البوذية . وقد عهد لماركو بولو بسفارة سياسية دبلوماسية .

(طريق الحرير - طريق الحوار)

هندكوش ونهر آموداريا ، حيث كانت الاسرة المالكة هناك تدعي أنها تنحدر من الاسكندر المكدوني الكبير .

وبعد أن غادرت القافلة هذا القطر الغني بالياقوت الاحمر ، واللازورد ، والفضة بلغت هضبة بامير التي قدم عنها ماركو ، لأول مرة ، وصفا مستفيضا ، ثم وصلت البعثة سهل كاشغر ، أي سلك الطريق التي سبق أن سارت فيه قافلة الاخوين بولو ، خلال رحلتها الاولى ، واجتازت شارخان الواقعة عند تخوم امبراطورية الخان الكبير « الذي تجرف أنهاره الاحجار الكريمة الثمينة حتى السهل ، ومن هناك ترسل الى الصين كي تباع هناك » .

ومن هذه البلاد غير الواضحة المعالم والتحديد ، وصل البنادقة الثلاثة ، بعد أن اخترقوا صحراء لوب ، الى أول مدينة صينية هي مدينة ساتشيئو ، ومنها الى كاييتشو (خان خو حاليا) حيث مكثوا هناك عاما كاملا . ولما كانت اهتماماتهم تتمحور حول المعلومات الاقتصادية ، فقد درسوا ، بامعان ، كل معالم المنطقة ، واندفعوا حتى انهم جمعوا عينات من وبر بقر اليال الذي يعيش في الهضاب الجبلية ، ولا سيما في التيب ، والذي قاموا بغزله فيما بعد في البندقية ووجدوا أنه أكثر نعومة من الحرير ذاته . وبعد أن زاروا صحراء قره قوروم بلغوا مدينة تندوك الواقعة الى الغرب من النهر الاصفر (هوانغهو) . وتابعوا طريقهم نحو سينداكو وتشانغفور حيث أقام اخبر الكبير قصرا لممارسة هوايته في قنص النمر والحمر الوحشية ، ولكن دون أن يأتوا على ذكر السور العظيم ولو بكلمة واحدة . وأخيرا وبعد ثلاثة أعوام ونصف من الاسفار ، وعند مدينة كايبيغفو ، تمكنوا من مقابلة الامبراطور كويلاي ، في مقره الصيفي ، والذي لا تزال أطلاله ماثلة ، على مسافة ٢٠٠ كم الى الشمال من عاصمة الصين الحالية ، بكين . .

وهناك ، قدموا تقريرا عن رحلتهم « لسيد كل تتر العالم ، أي من تتر المشرق الى تتر المغرب » . وكان عمر الامبراطور ذي العينين السوداوين والبشرة الفاتحة اللون ، اربعة وخمسون عاما ، وكان ربع القامة ويميل للبدانة . وكان يقطن مقصورة ، مقطورة ، مصنوعة من قصب البامبو المزوق بالذهب ، والتي كانت تنتقل من وقت لآخر ضمن حديقة حيوانات حقيقية يقع القصر داخلها . وكان بمقدور هذا القائد الكبير أن يعبى جيشا مقداره نصف مليون محارب ، وهو رقم هائل في ذلك العصر ، وكان بلاطه يفوق في فخامته وفي بهائه كل أمثاله على سطح الارض . وقد اختار عاصمة له المدينة الصينية « كامبالوك » القريبة من بكين ، والتي كانت مركزا ثقافيا ، أقام فيه سنة ١٢٧٩ م مرصدا يشرف عليه اختصاصي بيزنطي . وكان يضم كل الادوات

المعروفة في ذلك الزمن ، وكانت هذه المؤسسة العلمية تمثل نوعا من جامعة يدرس فيها علماء من كل العقائد والمذاهب .

وكان يسكن في العاصمة كامبالوك التي كانت تتمركز فيها الحكومة اثنا عشر من الأعيان الكبار الذين يحكمون أربعة وثلاثين اقليما تتألف من مجموعها الامبراطورية المترامية الاطراف . وكان حكمهم ميسورا الى حد كبير بفضل منظومة طرق تؤلف شبكة تعمل فوقها خدمات بريدية تضم ١٠٠٠ محطة وتستخدم مائتي ألف رأس من الخيل .

وكانت هذه المدينة متصلة بنهر اليانغتسه ، أكبر أنهار الصين ، بقناة تمتد لأكثر من ١٠٠٠ كم مجهزة بهويسات وبطريق جانبية . وكان يسمح عرضها وطولها وعمقها للمراكب الكبيرة أن تسير فيها بسهولة . وقد تراءى نهر اليانغتسه للرحالة ماركو بولو كأهم شريان ملاحى داخلي رآه في حياته ، وهو يروي ١٦ اقليما ويربط بين ٢٠٠ مدينة كبيرة وتشهد سجلات الجمرک على مرور ٢٠٠٠٠ مركب فيه في اتجاه واحد سنويا .

ولم تكن مدينة كامبالوك هي الوحيدة التي أثارت إعجاب ماركو بولو . فقد جرى تعيينه حاكما على مدينة لا تقل من حيث عدد سكانها عن العاصمة ذاتها ، وهي كينساي (هانفتشيئو حاليا) وكان محيطها يمتد على ١٠٠ فرسخ (١) وكانت تماثل البندقية لأنها كانت قائمة فوق العديد من أذرع نهر تسيانغانغ، على مسافة غير بعيدة عن البحر . وكانت هذه المدينة تضم ٦٠٠٠٠ عمارة ، و ٤٠٠٠ حمام تسخن مياهها على الفحم الحجري المستخرج من جبال كاتاي Cathey وكانت تحوي أيضا بحيرة داخلية يبلغ طولها ٤٠ فرسخا (٢) ، ويتجول فوقها ١٠٠٠ زورق للمتعة والتنزه ، هذا فضلا عن القصور والاديرة والكنائس ، ومئات الجسور . وكان شارعها الكبير الذي يبلغ عرضه أكثر من ١١٠ م يخترق تسعة أسواق كبيرة ، بالإضافة الى شوارعها الثانوية الفرعية المبلطة والمجهزة بالمجاري وأحياء أطبائها وأحياء خاصة بعلماء الفلك ، وكانت تؤوي قرابة ٣ ملايين نسمة .

وكانت هذه المدينة العملاقة عاصمة اقليم مانزي الذي فتحه كوبيلاي وكانت حاضرة ١٤٠ بلدة من أصل ١٢٠٠ مدينة تقع ضمن الممالك التسع في المنطقة . وكانت مركزا تجاريا تفجز أوروبا عن تكوين فكرة عنها ، وكان تموينها لوحده يفترض وجود تنظيم غير معهود في الغرب . ويقدم ماركو بولو مثالا عن وزن الفلفل الذي كان ضروريا لاستهلاكها اليومي ، وهو ٩٥٨٩ رطلا أو ٤٨٠٠ طوننا . هذا كما كانت أيضا مكان لهو ،

(١) الفرسخ طوله ، عند ماركو بولو ، ٥٧٥ م ، أي محيط المدينة كان يمتد على ٥٧٥ كم .

(٢) أو ٢٧ كم .

ففي جزيرتي بحيرتها الداخلية كانت تجري حفلات أفراح عديدة . وكانت تسير في شارعها الرئيس عربات خاصة بالاثرياء وعلية القوم للاستمتاع بالاحتفالات السرية ضمن مقصورات مشيدة في حدائق كانوا يدعون إليها أصدقاءهم .

وكانت هذه الحياة الحثيثة والمتناسقة تفترض وجود اقتصاد منظم ولا سيما وجود نظام مالي راقٍ . وقد لاحظ ماركو بولو ، بدهشة ، أن المبادلات كانت تركز على عملة رسمية أو « سندات ممهورة بخاتم الامبراطور كوبيلاي » وكانت قيمتها تتراوح بين نصف درهم و ١٠ دنانير ذهبية ، يصدرها مصرف حكومي ، وتتألف من ورق أسود مستمد من لحاء شجر التوت . وكان الناس يدفعون للمصرف ، وذلك عدة مرات في العام ، ما يملكون من ذهب وفضة وأحجار كريمة ، مقابل هذه العملة الورقية . وعلى نقیض ذلك كان بمقدورهم أن يستردوا منها حسب حاجاتهم . وهنا اكتشف هذا التاجر البندقي العملة المصرفية .

وقد مكث ماركو بولو في خدمة الامبراطور كوبيلاي مدة سبعة عشر عاما ، وعهد اليه فيها بالعديد من البعثات الرسمية كما قام ، وهذا لحسابه الخاص ، بعدة رحلات اندفع فيها حتى التيب ، من أجل عقد صفقات تجارية شخصية ، وكذلك الى مختلف الاقاليم الصينية ، احداها من بكين الى اقليم يونان والاخرى من بكين الى فوجيان Fou-Kien والى الهند وربما الى بلاد زيبانغو (اليابان) . وقد أخذ على عاتقه القيام بالعديد من المهام التي أوكلت اليه بانتظار فرصة مواتمة لمغادرة البلاد . وجاءت الفرصة السانحة أخيرا . فقد جهز كوبيلاي ابنه التي خطبها الامير المنغولي آرغون ، الذي كان يحكم بلاد فارس ، وأوكل أمرها الى ماركو بولو الذي قرر أن يسلك الطريق البحرية . وقد وضع تحت تصرفه أسطول مؤلف من ١٤ سفينة مجهزة لرحلة تستغرق عامين . وكانت هذه المراكب من النمط المألوف ، مجهزة بالعديد من القمریات المریحة ، وبستائر كثیمة مطیلة بالقار .

غادر ماركو بولو ميناء زيتون (بين آموي وفوتشيئو) نحو العام ١٢٩١ م وبلغ اقليم كوشنشين في الهند الصينية الذي سبق له أن زاره ، ثم ألقع باتجاه صومطرة التي اعتقد أنها جزيرة « جاوه الصفري » ومكث مدة خمسة شهور في هذه الجزيرة بانتظار الرياح المواتمة . وقد استغل هذه الفرصة لدراسة الجزيرة بأن قام فيها بالعديد من الرحلات حيث التقى ببشر ذوي أذنان (قردة) وبالكركدن ، الذي قيل له أن لسانه لوحده ، هو أخطر ما فيه بسبب الاشواك المسلح بها . وتذوق خمر النخيل المشهور كعلاج ضد مرض الاستسقاء ، ومرض الاكتئاب ، كما اكتشف نخيل الخبز الذي ينتج دقيقا ، كما حصل على حبوب نبات هيماتوسيلون hématosylon الذي يعرف عند الصباغين باسم « برازيل » والذي حاول أقلمة زراعته في أوروبا .

ومن صومطرة ، التي كان يخشى فيها أكلة لحوم البشر الذين كانوا يفترسون الكهول والعجائز من أهلهم ، اتجه ماركو بولو نحو جزر نيكوبار ثم الى سيلان التي وجدها صغيرة ، وتصور أنها تغوص في الماء « بسبب رياح الشمال العنيفة » . وقد تفاوض مع ملكها ، الذي كان يملك أكبر ياقوتة بالعالم ، بقصد شرائها مقابل « قيمة مدينة » لحساب الخان الكبير . ولكن الملك رفض العرض . وقدم له طاسة من المعدن الثمين ، وبعض شعرات آدم ، الذي يقع ضريحه ، حسب اعتقاد مسلمي المنطقة ، في قمة جبل يحمل اسمه .

وانطلق الاسطول صاعدا في اتجاه الشمال مواكبا سواحل الهند وبلوشستان . ووجد نفسه في بحر كان ، في ذلك الزمن ، مجالا خاصا باللاحين العرب الذين قدموا لماركو بولو ، عن طيب خاطر ، معلومات عن البلاد النائية التي يمكنه ارتيادها ، وكان بذلك أول أوروبي يذكر جزيرة مدغسكر التي ربما التبس عليه أمرها مع المنطقة القارية أي « موغاديشو » عاصمة الصومال ، لانه يروي أنها مأهولة بالابل وبالفيلة التي كان يشيرها سكان الجزر بقصد تهيجها عند احتدام المارك . غير ان ملاحظة هامة استقها من العرب عن « رأس كوريانتس » أي « رأس التيارات » والذي كان الملاحون العرب لا يغامرون بالابتعاد لما وراءه خوفا من أن تجرف سفنهم نحو الجنوب بتأثير تيار موزمبيق الشديد . وهكذا ندرك السبب الذي جعل طريق « رأس الرجاء الصالح » البحرية مجهولة وتحاشاها الملاحون العرب من الشرق ، ولم تكتشف فعلا الا بجهد اناس قادمين من الطرف الآخر من القارة السوداء ، أي البرتغاليين ، وبعد قرنين من الزمن .

ونقل ماركو بولو أيضا بعض الاخبار عن جزيرة زنجبار ، وعن جزر يصعب الاقتراب منها حيث يسود فيها طائر يفرد جناحيه على مسافة ٥٠ مترا ، هو الرخ ، الذي اثار مخاوف الخان الكبير ذاته . وقد جلب بعض المستكشفين الذين أرسلهم ريشة منه ذات أبعاد مذهلة فضلا عن أنباء أخرى مثيرة ومستغربة .

ويجب أن نرى في ذلك تلميحا عن النعمة التي كانت تدعى آبيرونيس Aepyronis والتي انقرضت تماما في هذه الايام والتي تعتبر بيوضها أساس هذه الاسطورة .

وأخيرا بلغت الحملة هرمز وسلم ماركو بولو لابن آرغون الاميرة التي تكفل بايصالها لخطيبتها . وبعد أن حصل على خفارة قوية بلغ مدينة طرابزون والقسطنطينية ومن ثم مدينة تفرومونت . وفي عام ١٢٩٥ م وصل البنادقة الثلاثة الى موطنهم حيث وجدوا عائلتهم التي استقبلتهم ببرود بعد غياب استمر ربع قرن وتصورت أن هناك خدعة . وقد أثار هؤلاء الجواله اللؤوبون على حب الاستكشاف الارتياح في كل مكان أكثر مما حازوا الاعجاب .

غير أن أبناء أسرة بولو الثلاثة لم يستغربوا ما لاقوه بعد أن كشفوا عن هويتهم . ولما برهنوا على صدقهم بنثر الثروات التي حملوها معهم أطراهم مواطنوهم وحكومتهم على مآثرهم ، كما أن ماركو بولو الذي لم يسأم من ذكر ملايين الامبراطور كوبيلاي لقبوه « السيد مليون » وتقلد مناصب سامية . وفي العام التالي سقط ماركو بولو أسيرا في معركة كورزدلا في ١٢٩٨ بأيدي الجنويين على اثر هزيمة البندقية وخلال أسره الذي استغرق ثلاثة أعوام أملى على رفيقه بالسجن روتيشيللو Rutichello من أهالي مدينة بيزا الايطالية كتابه الشهير « عجائب العالم » .

وكتاب « عجائب العالم » أكثر من سرد بسيط لرحلة ، فهو لوحة جغرافية واثنية ethnique واقتصادية عن الصين ، ولائحة عن معتقداتها ومذاهبها ومؤسساتها ومنتخبات عن العديد من حكايات تتعلق بماضيها الاسطوري ، ولا سيما عن جنكيزخان وحتى عن الملك يوحنا الحبشي ، وأخيرا هي تأريخ لمدة خمسة عشر عاما من النشاط السياسي . وتبدو مذكرات ماركو بولو ، طبعا ، مشتملة أحيانا على ثغرات ، أو مغلوطة ، وهذا ما جردها من كثير من الاعتبار لدى معاصريه ، حتى لقد ناشدوه وهو على فراش الموت أن ينتزع « الأكاذيب » من كتابه . ولا يصمد هذا البندقي دائما أمام اغراء تزويق روايته ، أو المبالغة بأدواره التي لعبها ، والاحداث التي ساهم فيها . ولكن اذا كانت رواياته لا تخلو من نزوات فهي الاولى ، لدى الاوروبيين ، التي تعطي لمحة تامة عن آسيا ، وتظل الوحيدة التي تصف مناطق لا تزال ، حتى اليوم ، بحاجة للمزيد من المعرفة مما لا يحول بيننا وبين الدهول أمام الروح النقادة التي يذكر بها المصادر التي اعتمد عليها في رواية الاحداث ، وأخلاق الاقوام والاصقاع التي أتاحت له فرصة رؤيتها رأي العين وأن يختبرها بنفسه . واذا كان ماركو لم يتعلم أكثر من نتف من اللغة الصينية ، فان معرفته كانت متعمقة في المنغولية ولا سيما الفارسية ، وهي اللغة الشائعة حينذاك في كل من الصين الوسطى والشرقية في مجال المبادلات الثقافية والتجارية ولا سيما بيوتات تجارة الحرير التي كانت ترجح الطريق البرية الجافة بدلا عن الطريق البحرية التي تعرض هذه المادة الحساسة للتلف السريع بسبب شدة الرطوبة . وأخيرا فان اتساع مروحة أخباره يعود ، بالإضافة الى طول أمد اقامته ، الى البعثات العديدة التي سنحت له فرصة القيام بها بتكليف من امبراطور ذكي يهتم بجمع كل الوثائق الانتوغرافية عن اقطار شديدة التباين ، لا سيما وان الامبراطور عهد اليه بأمر ادارة ضريبة الملح ، هذا فضلا عن سفارتيه الرسميتين الى بلاد شامبا وسيلان ، وهما من الاصقاع التي زارها في طريق عودته الى أوروبا بطريق بحار الجنوب .

واذا كانت اهتمامات ماركو بولو ، بالدرجة الاولى ، تجارية ولحساب والده وعمه فقد عرف كيف يمارس الملاحظة المباشرة وأن يستغل تحقيقاته غير المباشرة عن طريق

المعلومات التي كان يستقيها من أفواه الذين صادفهم . وإذا كانت حياته تبدو وكأنها سارت في جو رائع وممتع فأنها تدين للاختلافات القائمة بين الحضارتين الصينية والاروبية ، لان الاخيرة كانت تمثل الطرف الهزيل أمام الاولى ، لان الاوروبيين كانوا يفتنون بسحرها هند الكلام عن السقوف الذهبية ، وعن الاصداف الحاوية على اللؤلؤ .

أما من وجهة النظر الى اثاره الحماسة عن البحث عن الذهب الوهاج ، ومن الزاوية العمية ، فان ماركو بولو قد أرسى قواعد صلبة تثير حماسة الجغرافيين من ناحية ، وطرح بالنسبة للمغامرين ، في الطرف الغربي من العالم ، مذاقا شهيا عن قطر عجيب ، هو الصين خاصة ، والشرق الأقصى ، مصدر الحرير ، بعامه .

هذا وقد ضاع المخطوط الاصل الذي كتبه روتشيللو بلغة مختلطة بلغة البندقية « ميلونة » ولكن نجاح هذه القصة بلغ درجة جعلته ينقل بسرعة الى معظم اللغات الرومانية والاطالية . وقد تم حتى الآن احصاء ١٤٣ مخطوطة . ولكن أفضلها هو المخطوط الفرنسي الايطالي ، ورقمه ١١١٦ ، في المكتبة الوطنية في باريس ، وعنوانه « كتاب عجائب العالم » الذي كان يملكه دوق دو بري ، في باريس ، سنة ١٤٠٠ م . وهناك ترجمة لاتينية قام بها ف. بيبينو في فلورنسة سنة ١٣٤٠ ، أما النص الايطالي بقلم راموزيو ، وعنوانه « رحلات بحرية وبرية » فتاريخه ١٥٥٩ . غير ان اكتشاف مخطوط في ميلانو عام ١٧٩٥ هو نسخة منقولة عن مخطوط لاتيني في ١٤٧٠ عثر عليه في طيطلة ، قاد الى ظهور ثلاث طبعات بالاطالية على يد ف. بينيديتو (فلورنسا ١٩٢٨ وتورينو ١٩٦٢) وبالانكليزية على يد مول A.C. Moule وبيليوت Pilliot (لندن ١٩٣٨) وبالفرنسية بجهود هامبيس L. Hembis في باريس سنة ١٩٥٥ .

ابن بطوطة (٧٠٢ هـ - ٧٧٩ هـ) - (١٣٠٣ - ١٣٧٧ م) :

كان أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن ابراهيم اللواتي عالما في الشريعة والفقه تخرج من معاهد طنجة . رأت عيناه النور لأول مرة في شهر شباط - آذار ١٣٠٣ م / (٧٠٢ هـ) ومنها جاء لقبه بالطنجي والذي غلبت عليه الشهرة العالمية وهي « ابن بطوطة » .

وإذا كان سلفه ماركو بولو الذي يكبره بنحو ٤٩ عاما من حيث العمر قد انحدر، كما سبق ورأينا ، من أسرة تجارية عريقة ، فقد كان ابن بطوطة مدفوعا بالورع والتقوى لاداء فريضة الحج وارتياذ طريق الحرير ، عن غير قصد ولا تصميم مسبق ، ولكن من الجنوب ، وهي الطريق التي سلكها ماركو بولو في عودته الى موطنه . بيد أن المسالك التي اختارها ، أو التي فرضتها الاقدار عليه ، تدل على أن هوايته الحقيقية هي الرحلة وحب الاستطلاع ، أو السياحة على أبعد تقدير .

فبعد أن اجتاز افريقيا الشمالية كلها بلغ وادي النيل وصعد في اتجاه معاكس لجراه حتى الشلالات . ولكن نشوب حرب في تلك المناطق جعلته يقفل راجعا نحو الدلتا ، وارتحل بحرا الى بلاد الشام ، وزار دمشق وهي « شامة على خد العالم » كما يقول ، حيث كان الطاعون يجثأ أرواح قرابة ٢٤٠٠٠ نسمة يوميا ، فقصده بغداد وأصفهان . ومن هناك سار مع ركب الحجيج الى مكة المكرمة من طريق غير مباشرة وأقام فيها ثلاثة أعوام قبل أن يزور بلاد النجاشي مروراً بميناء عدن .

وبعد فترة انكفأ ابن بطوطة نحو آسيا وانطلق من سيراغ الى هرمز وزار بلاد العجم ، وعاد الى مكة ، واجتاز البلاد المصرية من جديد كي يبلغ الاناضول الذي كان يعاني من غليان سياسي شديد ، فقد كانت دولتا جنوه والبندقية في حالة صراع مرير للسيطرة على حوض البحر المتوسط الشرقي والقسطنطينية ومصر ، كما كان القبحق يتنازعون لاستلاب بقايا دولة السلاجقة .

ومر من ميناء سينوب على البحر الاسود التي كان أميرها يلجأ الى القرصنة ويعمد الى اغراق المراكب المعادية بثقبها مستعينا بغطاسين أثناء المعركة ، كما تفعل الضفادع البشرية في أيامنا . وبلغ شبه جزيرة القرم وتجول في بلاد السلطان محمد أوزبك خان في خيمة محمولة فوق مركبة حسب الطراز التتري . وقد استقبله السلطان وأعجب ابن بطوطة بعاصمته الجواله ، وبأواني مائتته الذهبية ، وبثرواته الواردة من الهند ومن الصين . وقد اندفع حتى بلاد بلغار ، وهي منطقة قازان وأوفا ، على نهو الفولغا الاوسط ، حيث تكون الليالي قصيرة صيفا ، وكان يتوقف لزيارة «بلاد الشفق» حيث يقسر الجليد على استبدال الكلاب بالخيول لجر الزحافات . غير انه عدل عن هذه الرغبة ، وعاد الى بلاد القبحق حيث طلب السماح له بمرافقة قافلة احدى زوجات السلطان في زيارتها لوالدها الامبراطور آندرونك الثالث . وقد كان بصحبة الاميرة بيلون وبصحبة خمسمائة فارس ومائتي مملوك ، والفي رأس من الخيل ، وثلاثمائة ثور ، ومائتي جمل ، وأربعمائة مركبة ومسجد محمول ، وواكبت القافلة ساحل البحر الاسود الشمالي ، واجتاز دلتا نهر الدانوب حتى بلغ القسطنطينية التي كانت أجراس كنائسها تزلزل الافق ، واذا كان قد عجز عن زيارة كنيسة القديسة صوفيا بحسبانه مسلما فقد حظي بزيارة الامبراطور وباستقبال لائق .

وبعد اقامة استغرقت شهرا في القسطنطينية عاد في قلب فصل الشتاء الى بلاد القبحق وهو مدوج بجلود الذئاب في حين كانت تتدلى من شعر لحيته حبات الجليد . وبعد أن اجتاز نهو الفولغا (نهر الاثل) وزار بخارى وبلغ سمرقند « احدى اجمل مدن الدنيا » ذات القصور والجنان الرائعة ، والعديد من الطواحين القائمة على نهو الخراف . ومن هناك بلغ نهو الهندوس وأقام ثلاثة أعوام في دهلي (دهلي) حيث شغل

منصب القضاء ، وشهد عن كتب السلطان محمد شاه الرهيب الذي كانت أفياله تقذف المحكومين بالاعدام في الهواء كي تتلفهم بأنيابها المجيزة بخناجر حادة .

وفي عام ١٣٤٢م / (٧٤٣ هـ) أراد السلطان أن يبالغ في اكرام ضيفه فعهد اليه بمهمة شاقة لدى امبراطور الصين . وتشككت فرقة مؤلفة من ٢٠٠٠ فارس لمصاحبة الرسول السامي الذي حمل الكثير من العطور والاقمشة والرقيق فضلا عن الهدايا الاخرى . غير أن القافلة تعرضت للنهب أثناء الطريق ، ولم يتم انقاذ ابن بطوطة الا بمساعدة أحد الزنوج المرافقين ، فعاد الى دهلي ، وحصل على أموال جديدة لتجهيز قافلة ثانية ، واستأنف سيره حتى بلغ ساحل مالابار . وفي قاليقوت ، ظل ابن بطوطة ينتظر ثلاثة شهور ، بين الحقائق العائمة التي كان يزرع فيها الصينيون الزنجبيل ، وهو يرقب هبوب رياح طيبة ، ولكن في عشية الاقلاع غرقت سفنه الاربع عشرة مع كل ما فيها من رجال بفعل عاصفة مدمرة .

وبعد أن اعتراه الإرهاق تخلى عن مسؤولياته كسفير وقصد جزر الملديف (الدبل)، وتزوج فيها وقضى هناك فترة سعيدة من حياته اذ تسنم منصب القضاء الى أن قسره الوزير الاول الى الرحيل ، فقصده ساحل كوروماندل الهندي ولكن الرياح دفعته نحو جزيرة سيلان (سيريلانكا) حيث سلبه القراصنة كل ممتلكاته المنقولة فعاد الى قاليقوت على بحر عمان والتي انطلق منها نحو صومطرة ووصل اليها أثناء استعراض مروع قام خلاله رجل بجزر رقبته أمام السلطان تكريما له . وقد منحه هذا الامير كل ما يلزمه للانطلاق نحو الصين ، وظل يمخر عباب البحر خلال بضعة أشهر فوق « بحر ساكن » هو المحيط الهادي ، فبلغ كيلوكا ، وهي مدينة لم يمكن تحديدها حتى الان ، وتجول في أرجاء الصين في شتى الاتجاهات ، كما شهد جنازة الخان الكبير ، الذي كان سلفه ماركو بولو في خدمته وأسهب في الكلام عنه ، ويذكر أن ضريحه كان مليئا بجثث المحظيات . وقد جرت تضحية عشرة فرسان ذبحا فوق تل الضريح .

غير أن ابن بطوطة اضطر بعد قليل لمفادرة البلاد التي كانت فريسة اضطرابات سياسية ، دون أن يرى سور الصين العظيم الذي كان يلهب خياله . وعاد الى موطنه طنجة عام ١٣٤٩م / (٧٥٠ هـ) مرورا بجزيرة صومطرة وهرمز ومكة المكرمة ، وبلغ فاس حيث اختصه السلطان المريني بكل ترحاب لائق ، ولكنه لم يلبث أن كلفه السلطان بسفارة باتجاه السودان حيث زار بلاد حوض النيجر الذي التبس عليه بنهر النيل .

وفي فاس وفي بلاط السلطان المريني أملى ابن بطوطة رحلته على الكاتب الشاعر ابن جزّي الكلبى (المتوفى عام ٧٥٧هـ / ١٣٥٦م) والذي زوقها بأسلوبه الخاص ومنحها عنوان « تحفة النظار في عجائب الامصار » الشهير بكتاب « رحلة ابن بطوطة » .

الخلاصة :

نستشف من استعراض رحلتي ابن بطوطة وماركو بولو أن اكتشاف الصين وارتداد أرجائها كان هاجس العديد من أبناء الامم التي تعيش في قارتي أوروبا وإفريقيا. وإذا كان لطريق الحرير الأهمية كالأحجار الثمينة والفراء وأحيانا التوابل القادمة من الهند ، مثلما نلاحظ شدة اختلاف الدوافع لدى الرحالتين في تحمل المشاق والمخاطرة، ولكنهما افلحا في فرض اسميهما على التاريخ ودخلا عالم الخالدين من أبوابه .

مراجع البحث

آندويه ميكيل ، جغرافية دار الاسلام البشرية ، جزآن ، ترجمة ابراهيم خوري ، وزارة الثقافة ، دمشق ١٩٨٣ .

د. شاكر خصباك ، في الجغرافية العربية ، بغداد ١٩٧٥ .

د. شاكر خصباك ، كتابات مضيئة في التراث ، بغداد ١٩٧٩ .

اغناطيوس كراتشكوفسكي ، تاريخ الادب الجغرافي العربي ، الادارة الثقافية ، الجامعة العربية ، الخرطوم ، ١٩٦١ .

د. عبد الرحمن حميدة ، اعلام الجغرافيين العرب ، دار الفكر ، دمشق ١٩٨٤ .

ابن بطوطة ، دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٧٠ .

د. ابراهيم أحمد العدوي ، ابن بطوطة ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٥١ .

فؤاد أفرام البستاني ، ابن بطوطة ، بيروت ، ١٩٣٧ ، الروائع ، جزآن .

أحمد العوامري ومحمد أحمد جاد المولى ، ابن بطوطة ، القاهرة ١٩٣٩ .

نفيس أحمد ، الفكر الجغرافي في التراث الجغرافي الاسلامي ، ترجمة فتحي عثمان ، دار القلم ،

الكويت ١٩٧٨

د. حسن محمد فهم ، أدب الرحلات ، عالم المعرفة ، الكويت ١٩٨٩ .

أحمد أبو سعد ، أدب الرحلات ، دار الشرق الجديد ، بيروت ١٩٦١ .

René Glozier, Les Etapes de la Géographie P.U.F., Paris 1949 .

Macel Griaault, Les Grands Explorateurs, P.U.F., Paris 1946.

حوار الحضارات على طريق الحرير بين الصين والشام

د. محمد حرب فرزات
جامعة دمشق

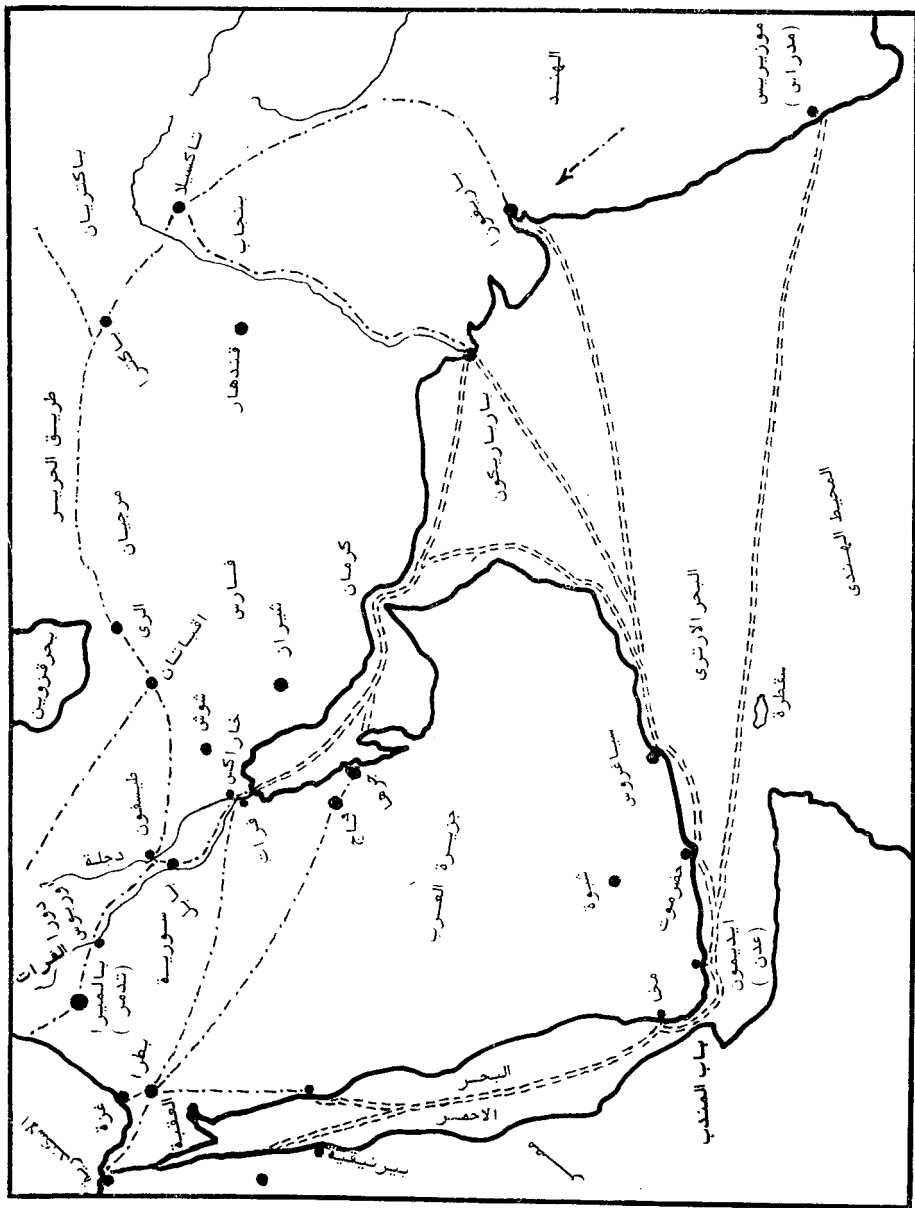
بعد الاستطلاعات العلمية والتنقيبات التي أجريت في كثير من المواقع الأثرية والتاريخية في آسية الوسطى اتسعت أعمال المنقبين الأثريين والباحثين الصينيين بحثاً عن مراكز الحضارات القديمة . وكان من محصلة هذه الجهود العلمية المتكاملة تحديد منازل ومحطات ومواقف على طول عدد من الطرق كانت متصلة فيما بينها وتمثل معا شبكة لطرق القوافل القديمة المعروفة **بـطريق الحرير** . وقد تمكن الباحثون بعد سنوات من العمل المتواصل من اكتشاف طريق سير القوافل التي كانت تصل ما بين عالمين ، الصين في الشرق الأقصى وحوض البحر المتوسط في الشرق الأدنى ، مروا ببلاد الترك وفارس والشرق العربي طوال قرون عديدة امتدت ما بين القرنين الثاني والرابع عشر للميلاد .

١ - بلاد الصين بلاد الحرير :

ولئن كان مصدر دودة القز أو دودة الحرير ، من جبال أسام في شمال الهند ومن بلاد البنغال ، فانه في شمال الصين تعلم الانسان لأول مرة كيف ينسج خيوط الحرير من الشرقة . وقد تم هذا الانجاز العظيم في تاريخ الحضارة الانسانية في حوض نهر تاريم في ما يعرف بتركستان الصينية .

ولقد وصف الكتاب الصينيون هذه المنطقة الزراعية الغنية التي تتألف من قوسين حول صحراء غوبي شمالي نهر تاريم وجنوبيه ، وهو يشق طريقه الى أن يضيع في مستنقعات لوب نور الهائلة . لكن الصحراء كانت تصارع المروج الخضراء باستمرار وتتقدم مهددة حياة السكان الرعاة الرحل الذين لجؤوا الى الواحات الخصبة ليؤسسوا فيها تجمعاتهم العمرانية التي اعتمدت الزراعة أساسا لاقتصادها ، فتحولت بجهد الانسان كل واحة الى مدينة في جنة تغدق خيراتها الوفيرة من القمح والثمار والزهور . ومن أهم واحات القوس الشمالي طرفان وقره شهر وكوتشا وأقصو وأوتش طرفان وكاشغر . أما أهم المدن في واحات القوس الواقع جنوبي الصحراء فهي ليولان وخوطان ويرقند . ويتكلم السكان في هذه المناطق لهجات هندو - اوربية ولهم صلات ثقافية تربطهم بالهند وايران . واذا ما بدا السكان في أيامنا هذه متأثرين عرقيا بالترك فان ملاجح سحناتهم تحمل أيضا تأثير الايرانيين القدماء .

دراسات تاريخية ، المجلد ٣٩ و ٤٠ ، كانون الاول ١٩٩١ .



ولقد قامت في هذه الواحات ممالك مستقلة كونت محطات على طريق الحرير الذي بقي قرونا عاملا للاتصال بين طرفي الحضارة في العالم القديم ، الصين في الشرق الأقصى من جهة وشبه القارة الهندية والعالم الايراني وبلاد شرقي البحر المتوسط من جهة أخرى . وقد جنت هذه الممالك الصغيرة المستقلة من قيامها بدور الوسيط بين دائرتي الحضارة الكبيرتين في العالم القديم ثروات كبرى جعلتها من أغنى بلاد العالم وهدفا للطامعين من الفاتحين .

وتذكر المصادر القديمة المعروفة أن خيوط الحرير كانت تمثل موردا من موارد الثروة للمناطق التي تقابل ما يعرف حاليا باقليمي شان سي وهونان(١) . وكانت تنسج من هذه الخيوط أصناف متعددة من النسيج الحريري الملون الجميل .

وكان مصدر دودة القز (باللاتينية S'aeta) التي تفرز خيوطا ناعمة ولامعة اكتشفت أهميتها في صناعة النسيج الحريري الطبيعي الذي كان مصدره الاول من جبال أسام في شمال الهند ومن بلاد بنغال ، ولكن في شمال الصين وفي مناطق الواحات التي نتحدث عنها تعلم الانسان لأول مرة كيف يغزل خيوط الحرير الطبيعي . وكيف يصنع من هذه الخيوط نسيجا . وبقيت شعوب الشرق الأقصى تحتكر صناعة الحرير وتصدره لتجني الارباح الوفيرة من تجارته في العصور القديمة الى أن تعرفت الشعوب الاخرى على هذه المادة الثمينة ، فانتقلت الى العالم اليوناني - الروماني الذي تمكن من الوصول اليه مباشرة بوسائله الخاصة حتى انتقلت تجارته الى أيدي العرب في العصور الوسطى ، وبقي في أيديهم حتى الحروب الصليبية التي شنها الغرب الاوربي على الشرق العربي في القرنين الثاني عشر والثالث عشر ، والتي كان من نتائجها البعيدة اضعاف العالم العربي الاسلامي ووصول الاوربيين عن طريق المواصلات البحرية الى بلاد الشرق عبر المحيط الهندي منذ مطلع القرن السادس عشر مباشرة ودون وسطاء . وتحت حكم أسرة هان (٢٠٦ ق.م - ٩ م) كانت لفائف الحرير تستخدم كالنقد في التبادل الرسمي مع القصور ، قبل أن تتطور هذه الوسيلة الى ما أصبح فيما بعد الورق الحريري (الكاغد) . وقد اشتهر الصينيون ، الذين حملوا اسمهم من اسم أسرة (تشين) التي حكمت البلاد بين (٢٢١ - ٢٠٦ ق.م) وعملت على اقامة حكم مركزي وشيدت سور الصين العظيم ، باسم آخر (سريس) الذي كان الرومان يطلقونه عليهم ، وهي تسمية مشتقة من الكلمة الصينية (سو) التي تدل باللغة الصينية على الحرير . أما العرب فدعوا الصين الشمالية بلاد الخطا(٢) ، وهو الاسم الذي يذكر به الصينيون عند العرب والروس .

ولكن موادا أخرى كانت تستخدم للتبادل الى جانب الحرير في ذلك العصر من تاريخ الصين القديم ومنها الحجارة الكريمة كاليشب (الجات) ، الذي كان يمكن

الحصول عليه بكثرة من الحافة الغربية لضفاف حوض نهر تاريم ؛ وكذلك الاصداف والودع التي كان مصدرها على الأرجح من الاتصال بملاحي المحيط الهندي من جزر ملديف الى الجنوب الغربي من الساحل الهندي الجنوبي .

٢ - التوسع الصيني نحو حوض تاريم : بلاد الواحات

عمل القادة الصينيون طوال القرن الاول الميلادي من أجل السيطرة على حوض تاريم . وسعت الاسرات الحاكمة المتعاقبة الى المحافظة على الانجاز الاستراتيجي الذي تحقق على أيدي قادة عسكريين عظام كانوا يتسمون بعد النظر . وظلت الصين تتحكم بالمواقع المهمة وأقامت سلسلة من الاستحكامات والمحطات في هذه المنطقة الواقعة في الشمال الغربي من أرض الصين قرونا امتدت حتى عصر المغول (القرن الثالث عشرم .) عندما استولى على البلاد قبلاي خان ، فانقلبت السيادة على الطريق الى أيدي الفاتحين المغول الذين امتد نفوذهم على معظم العالم القديم من الصين الى أرض الجزيرة والشام .

ويرجع الدور الأكبر في بسط سيطرة الصين على حوض تاريم الى القائد **يان تشاو** (القرن الاول - القرن الثاني م) الذي بدأ تحركه بضربة قاضية وجهها الى أولى الممالك الصغيرة التي وقفت في طريقه ، وهي مملكة (لوب نور) منفذا لخطة هجومية لم تترك لخصمه أية فرصة للدفاع . واقتحم (عرين النمر) كما قيل ، بلا شفقة . ثم أخضع مملكة خوطان التي تتمتع بموقع استراتيجي على الطريق الفرعية المتجهة الى الجنوب حتى وصل الى مملكة كاشغر غربا حيث فرض أحد أتباعه المؤيدين لسياسته ملكا عليها(٢) مكرر .

وهكذا بدا هذا القائد الجسور متحكما بمقدرات حوض نهر تاريم والمنطقة المحيطة به أمام تحركات الشعوب والقبائل المجاورة . وهو لئن تمكن من عقد تحالفات محلية وإقليمية لتعزيز موقفه بزرع بذور الخلافات بين الحكام في فترة ما ، فان ذلك لم يكن دون صعوبات مخيفة عندما قامت ضد الحكم الصيني وسياسته التوسعية ثورة عارمة فاجأت القائد يان تشاو وكادت أن تؤدي الى تدمير كل ما حققه من انجاز عسكري استراتيجي عندما تلقى الاوامر من الحكومة المركزية في العاصمة الصينية تسانغ نغان بترك كاشغر والتراجع الى مواقع وراءها .

لكن القائد الصيني ، ونظرا للاهمية الاستراتيجية الكبرى لموقع كاشغر ، تظاهر بتنفيذ الامر ، لكنه أوجد ظروفًا مكنته من العودة الى مواقعه السابقة وبسط سيطرته على حوض نهر تاريم كله لقطع دابر هجمات الهون المتكررة والمتوقعة دائما . وكانت طريقته في احكام قبضته على المنطقة هي في اتباع سياسة صارمة في تجنيد الشعوب

المعادية لمحاربة بعضها بعضا مستعينا بموارد من البلاد المحتلة والمخضعة ، وهي عين السياسة الامبريالية التوسعية التي كان يتبعها الرومان في توسيع سيطرتهم في حوض البحر المتوسط .

وهكذا كانت جحافل الجيوش الصينية تبسط سيطرتها وراء حدودها على الاراضي الخصبة والمراعي العظيمة الشاسعة في يرقند وخطان . ولم يكن بوسع الحكومة المركزية أن تتجاهل ، بعد الانتصارات الحاسمة التي أدت الى الاستيلاء على أراضي ست وثلاثين مملكة في حوض تاريم ، خطط بان تشاو ونصائحه السديدة التي أدت الى احتواء خطر الهون على الجبهة الشمالية الغربية (المنغولية) والى وضع حد للتدخل الهندي - السكيذى الممتد من التبت وافغانستان لنجدة مملكة كوتشا (كوشان) ، ومد نفوذه الى الممرات المعلقة في هضبة بامير التي اعترف أمراؤها به وبحكومته وأرسلوا الى البلاط الصيني الهدايا مع السفارات فاعترفت الحكومة بدورها أخيرا بمنجزات القائد الكبير ومنحته لقب (الحامي العام لبلاد الغرب) اي نائب الملك والحاكم الفعلي لمناطق اسية الوسطى التي أدخلت في اطار الاستراتيجية الصينية . وهكذا نجحت الصين في وضع يدها على نقطة الانطلاق لما عرف بعدئذ بطريق الحرير وفرضت حمايتها على هذه الطريق الدولية في ظل السلام الصيني الطويل .

بعد انتصارات بان تشاو أصبح العالم الصيني على اتصال مباشر مع العالم الايراني وأصبح الصينيون أكثر قربا من الغرب . ففي عام ٩٧ م . كلف القائد الصيني أحد مساعديه كينغ - بينغ بمهمة دبلوماسية لدى المملكة الفرثية لاقامة علاقات تجارية ودبلوماسية معها ثم التمهيد لتجاوز هذه الدولة الكبرى الفاصلة للوصول الى العالم الروماني لوضع قواعد لعلاقات مباشرة معه ، في الوقت الذي كانت فيه رومة تتلمس طرقا للوصول الى الشرق .

وانه لمن المثير أن يتعرف الصينيون على الواقع العالمي آنذاك وأن يتطلعوا الى الاتصال بعالم البحر المتوسط وحضارته . ولكن يبدو أن كينغ بينغ خاف الاقدام على هذه المهمة الخطيرة فترك نفسه يقع في أيدي الفرثيين ، ومن المرجح أن الفرثيين ساورتهم شكوك من تحالف يمكن ان يحصرهم بين فكي كماشة اذا ما تم أي اتصال دبلوماسي بين الصين التي أصبحت على حدودهم الشرقية والرومان الذين كانوا يواجهونهم على الجبهة الغربية . فلهذا كانوا يبذلون قصارى جهودهم لمنع دخول أي وسيط آخر سواهم على طريق الحرير البرية .

وتؤيد دراسات أشار اليها كورنمان للتحركات الرومانية للاتصال بالشرق الاقصى

هذه المساعي المتزامنة بين العالمين الصيني والمتوسطي^(٣) . فمذ وصول رومة الى المشرق العربي في القرن الاول ق.م ارادت أن تترث التقاليد التجارية لدول المنطقة ولا سيما البطلمة الذين كانوا يتعاملون مع الدول التجارية العربية ، وعلى رأسها الانباط واليمن . ولقد ارادت الامبراطورية الرومانية ان تضع يدها على التجارة البحرية بين البحر الاحمر والمحيط الهندي لتأمين وصول التوابل والعطور والاقمشة النفيسة من بلاد العالم الهندي والشرق الاقصى . وكان التجار العرب والهنود يحتكرون ، كل في منطقة نفوذه ، تجارة هذه البضائع منذ عصور بعيدة الى أن جاء الرومان الذين ارادوا وضعها تحت سيطرتهم وانفقوا في سبيل ذلك الفضة والذهب كما يدل على ذلك انتشار النقود على الطريق التجارية وفي المحطات لتي كانت تتوقف فيها^(٤) .

٣ - الفرثيون على طريق الحرير :

ورث الفرثيون (٢٤٧ - ٢١٢ ق.م) كل ما كان عرفه الشرق القديم من تقاليد وخبرات في ميادين التجارة في العصور السابقة . فالأخمينيون قبلهم اهتموا فيما بين القرنين السادس والرابع ق.م بالطرق التجارية البرية لتسهيل الاتصال بين ارجاء امبراطوريتهم الواسعة الممتدة من الهند واسية الوسطى شرقا الى الحوض الشرقي للمتوسط غربا ، وهذه الامبراطورية الشرقية الشاملة ورثت بدورها دور حضارات عريقة عرفها الشرق العربي بين الرافدين والنيل . ولضرورات استراتيجية فرضتها الحروب الميدية بين دول بلاد اليونان ومملكة فارس أمر الملك داريوش بشق طريق امتدت ١٦٧٧ ميلا شيدت لحراستها المحارس والمواقع والمسكرات والمحطات بين أفسوس على بحر ايجة وسوسة (الشوش) في جنوب غربي ايران ، وبشق طريق أخرى بين بابل واقباتانا (همدان) وكابل .

وحافظ السلوقيون على التقاليد القديمة وعملوا على تنفيذ شبكة طرق وصلت ما بين سلوقية على الفرات وباكترا (زارياسيا) عبر اقباتان ومرو للالتقاء بالقوافل على الطرق القادمة من الهند والصين . وعندما استقلت باكتريان (٢٥٠ - ١٣٩ ق.م) عن المملكة السلوقية أقامت شبكة طرق اتصلت بالصين وسيبيريا والهند وايران أنجحت الى مركز هذه الدولة التي تلاقت فيها الحضارتان الهندية والهلينية ، الى تاكسيلا في أفغانستان . وتتصل هذه الطرقات غربا بمراكز الحضارة والتجارة في المشرق العربي حتى أنطاكية والاسكندرية في قلب العالم الهلنستي والروماني . وعندما انتقلت مقدرات الامور الى الفرثيين (٢٤٧ ق.م - ٢٢٤ م) الذين أسسوا دولة في البلاد الواقعة جنوبي بحر قزوين (الخزر) ، استرد العالم الايراني القديم دوره ، ووقفت هذه الدولة سدا منيعا في وجه التوسع الروماني على خط الجزيرة والفرات ، وشكلت بالتالي حاجزا في طريق الاتصال المباشر على طريق الحرير بين الصين والامبراطورية

الرومانية . واحتكروا لانفسهم دور الوسيط وفرضوا على القوافل العابرة الرسوم والمكوس . وقد جعل الفرثيون عاصمتهم في هيكاتومبيلوس على الطريق بين سلوقية غربا وباكترا شرقا ، ثم تتصل الطريق ببلاد كوشان (ذات الالف مدينة) ، في آسية الوسطى شمالا فتتكامل عندئذ حلقات الاتصال حتى حوض تاريم في شمال غربي الصين .

لكن السلسلة لم تمتد بعد ذلك طويلا . فقد بدأت الاضطرابات تجتاح العالم القديم منذ بداية القرن الثالث الميلادي مهددة كل جزء من الـ ٢٥٠٠ ميل ، الممتدة من سورية غربا الى حوض تاريم شرقا . واضطر الصينيون الى الانسحاب من موقعهم وقطعوا الطرق الرئيسية التي كانت تحت سيطرتهم . ووجد كل من العالمين الصيني والروماني نفسه واقعا تحت وطأة ضغط الشعوب الزاحفة من الداخل نحو هذا الخط التجاري العظيم . وكان من جراء ذلك ضعف الطلب على المواد المستوردة من البلاد الاجنبية وقل حجم التبادل الذي كان مزدهرا في ايام السلم الصيني ، لكنه لم يتلاش وانتقل جزء من الفعالية التجارية الى طرق أخرى أكثر امانا ويسرا .

٤ - طريق الحرير البرية : من انطاكية الى الشرق :

بينما كان الصينيون يحكمون قبضتهم على منطلق طريق الحرير ومساره من الصين باتجاه الغرب كان تجار الحوض الشرقي للمتوسط يسعون الى الوصول الى معلومات عن هذه الطريق دون الخضوع للوسطاء انفرثيين . فقد حدث أن تاجرا كان يقيم في سورية وله اسم اغريقي - روماني ، مايس تيسانوس Maes Titianos أعد برنامجا لمساعدة عملائه ووكلائه الذين كان يتعامل معهم في نشاطه التجاري ، على التعرف على طريق الحرير للتخلص من المتاعب التي يفرضها الفرثيون ، بالاستعانة بالمعلومات المعروفة وما يمكن اضافتها اليها من مصادر أخرى . وقد وصف الفلكي والجغرافي اليوناني الاسكندر بظلموس (٨٥ - ١٦١ م) طريق الحرير بدقة ملفتة للنظر بعد أن رجع الى مؤلفين سابقين له مثل مارين الصوري وغيره عند اعداد كتابه (الجغرافية) (٥) الذي بقي المرجع الاساس في موضوعه حتى القرن السادس عشر . ومن هذه المراجع الكلاسيكية يمكن التعرف على السبل التي كان يتم بها لاتصال بين طرفي العالم القديم في الشرق الادنى وفي الشرق الاقصى :

كان التجار السوريون ينطلقون من انطاكية عاصمة سورية الرومانية، على المجرى الاسفل لنهر العاصي باتجاه الشرق مارين بحلب ثم يجتازون الفرات عند هيرابوليس = جرابلس على الفرات ثم يعبرون اراضي الجزيرة وبعدئذ يتجهون الى المدن الرئيسية الواقعة على الطريق في شمال ايران : اقباتان (همدان) ثم الري فمدينة هيكاتومبيلوس

(طريق الحرير - طريق الحوار)

على ساحل بحر قزوين (الخزر) ومنها الى باكترا = بلخ ومن هناك يجد التجار طريقا لهم الى هضبة بامير وممراتها . في هذه المنطقة كان يلتقي التجار المشرقون والصينيون ويبادل كل طرف الطرف الاخر بما عنده : انحرير من الصين والتوابل والقرفة وعشبة الراوند مقابل الحجارة الكريمة ، الجات = اليشب من خوطان والسجاد من كشمير وفارس ، والعاج والماس من الهند . وكان اهم موقع يتم عنده مثل هذا اللقاء بين الشعوب والحضارات عند البرج الحجري الواقع على السفح الصيني لجبال كوميداي . وقد يمكن تحديد هذا المكان في نقطة عند الجنوب الغربي من يرقند او غربي كاشغر في ودي الاي . من هنا يتفرع طريق الحرير الى فرع شمالي مارا بايستون سيريكما التي يتحدث عنها جغرافيو الاسكندرية المصريون حتى يصل الى داكساتا التي تعد بوابة بلاد اليشب (وهو اسم آخر كان يطلق على الصين) على حافة توين هوانغ التي تنتهي اليها ايضا الطريق الفرعية الجنوبية ، وتتجه الطريق بعدئذ الى توغارا التي يمكن ان تكون هي كان تشيو التي تنتهي اليها كل الطرق القادمة من اسية الوسطى .

وكان حجم التبادل التجاري مرتبطا بالظروف الداخلية للعالمين الروماني والصيني . وكانت الحروب عاملا مؤثرا في اضعاف وتيرة التبادل دائما كما وقع عند نشوب الحروب بين الرومان من جهة والدولتين الايرانيتين المتتابعيتين الفرثية ثم الساسانية من جهة اخرى . فقد تأثرت الحركة التجارية بتحريك الجيوش على طرق القوافل وعلى مقربة من المدن ومحطات المواصلات .

ولقد حاول الصينيون منذ مطلع القرن الثالث احتواء تقدم المنشوريين نحو مناطق نفوذهم في شمال البلاد وقاموا بانشاء سور الصين العظيم نحو ٢٠٠ م . وفي الوقت نفسه بدأ الجرمان يتحركون في اوروبا نحو خطوط الدفاع الرومانية . وعلى الرغم من قدرة الدول على المقاومة والبقاء مدة طويلة فان ضعفها كان يزداد الى ان واجهت انهيارها ونهايتها امام قوى عاتية لا تقاوم . وكان من مظاهر التغير المتسارع في العالم القديم سقوط الامبراطورية الرومانية الغربية ٤٧٦م المتزامن مع تقدم الهون في اصقاع من الصين والهند حيث سقطت اسرة غوبتا على ايدي قبائل الهون التي هددت ايضا بعض مناطق ايران الشمالية .

وقد قلص انهيار النظام الامبراطوري الروماني في الغرب واجتياح القبائل الجرمانية العالم الروماني القديم الطلب على المواد الكمالية المستوردة من الشرق ، لكن الجزء الشرقي من الامبراطورية ، والذي استطاع الصمود امام العواصف بقي يستفيد من التجارة الدولية مع الشرق الاقصى حتى قدوم العرب في القرن السابع ، ولكن هذه المصالح التجارية لم يكن بالامكان المحافظة عليها دائما دون الصدام او التفاهم مع القوة الدولية المقاتلة للامبراطورية الرومانية الشرقية (البيزنطية) وهي الامبراطورية الساسانية التي ورثت الامبراطورية الفرثية منذ ٢٢٦ م .

لم يقتصر اهتمام هاتين الدولتين الكبيرتين المتعاصرتين على تقاسم النفوذ على الطرق بين البحر الاسود وبحر قزوين (الخزر) وهو ما تسبب في الصراع على تخوم بلاد القفقاس وأرض الجزيرة في سورية ، بل تجاوز ذلك الى طرق المواصلات والخطوط الدفاعية على التخوم السورية والعربية والتي تتصل بالطرق الكبرى ذات الاهمية التجارية الدولية التي تمر عبر البادية العربية السورية الى الفرات والخليج أو بمحاذاة البحر الاحمر حتى اليمن ، وكان كل من الدولتين يهدف الى بسط سيطرته عليها والتحكم بالمفارق والمحطات المؤدية اليها .

٥ - طريق الحرير البرية : من الصين الى الغرب .

تنطلق هذه الطريق^(٦) من تون (دون) - هوانغ في شمال الصين ، وتتجه نحو الغرب وتتفرع الى فرعين: يتجه **أحدهما** جنوبا ويتجه **الثاني** شمالي صحراء تكلاماكان، ثم يلتقيان قرب يرقند عند كاشغر (كاشي) وتعبر الطريق هضاب البامير وممرات فرغانة الى المدن الهامة في آسية الوسطى طاشقند ، وسمرقند ومرو ومن هناك تتجه الطريق جنوبا الى هرات في أفغانستان ثم كرمان وبرسبوليس (اصطخر) وأبلّة الواقعة على رأس الخليج العربي بينما تتجه طريق أخرى شمالا الى هيكاتومبيلوس ومنها الى اقباتان وطيسفون (المدائن) ثم الى دورا أوربوس (الصالحية على الفرات) باتجاه تدمر وأنطاكية . وهكذا تلتقي طرق القوافل القادمة من الشرق بطرق القوافل المتجهة الى الشرق الأقصى .

وهناك طريق أخرى **ثالثة** يمكن استخدامها اذا ما كان السلم سائدا في آسية الوسطى وتحت سيطرة سلطة حاكمة قوية ، وتنطلق هذه الطريق من أن يشي الواقعة الى الشرق من تون هوانغ وتصل شمالا الى جبال تين شان ، ثم تجتاز نهر ايلي الذي يصب في بحيرة بلكاش وتتابع بعد ذلك توجهها غربا باتجاه فرغانة لتلتحق بطريق القوافل الرئيسية في كوكاند ومنها الى طاشقند وسمرقند . وفي موقع ما على هذه الطريق من باكتريا على سفوح هضبة بامير الى فرغانة تقع محطة البرج الحجري الذي مر ذكره وتحدث عنه بليزوس انه كان موقعا للتبادل بين التجار الفرس والتجار القادمين من الشرق الأقصى . وفي نقاط من هذه المواقع على الطريق كان يتلاقى تجار ومسافرون من الصين بتجار من الفرثيين واليونان والسوريين ، فلقد دلت الكشوف الاثرية على آثار مهمة من عصر تانغ منها مدينة نازحي **Nazhi** التي تسمى حاليا فاكساري في قلب صحراء تكلاماكان ، وحصن أكوسراك الذي يبلغ طوله ٢٥٠ م . واكتشفت على الطريق مقابر وبقايا أناس من أعراق مختلفة وخيول . واكتشفت باتجاه بامير آثار المدينة الحجرية القديمة تاشكوركان ، التي ما تزال آثار حصونها منتصبة على المنصة المتجهة الى أفغانستان وشمال حوض السند .

٦ - محطات على طريق الحرير :

كانت الواحات عديدة في حوض تاريم في تركستان الصينية ، وقد صارت مراكز للتبادل التجاري والثقافي ، بين بوذيين من الهند وصينيين وأناس كثيرين من شعوب أخرى . فمن أهم هذه المراكز البوذية : كيوسي أو كوتشا Guga ما بين القرنين الخامس والسادس وكهوف قيزيل وهي من أجمل المعابد البوذية في المنطقة ، وتعود الى ما بين القرنين الرابع والرابع عشر ، وكهوف كومتورا التي كانت معابد استولى عليها الصينيون في القرن الثامن .

في هذه المواقع تبرز نماذج مهمة من الاعمال الفنية الخشبية النفيسة الملونة بالاحمر ورسوم تصور اشكالا لراقصين يستتر بعضهم بأقنعة تمثل رؤوس حيوانات . وتعكس الرسوم التي تبدو بجدة ملفتة للنظر مفاهيم المجتمع البوذي ، ومنها مواكب الموت الجنزية تقود فيها نساء بملابس شفافة موكب الموت الحزين بينما يعظ واعظ من الكهنة عند رأس الميت . وفي أحد هذه الكهوف ما يزال يبدو تمثال بوذا معلما .

كان حكام مملكة كوتشا والطبقة العليا في المجتمع من الطوخاريين ، ولغتهم هندية - أوربية ، ولون بشرتهم فاتح وشعورهم شقراء وعيونهم زرقاء . ويبدو في الرسوم رجال ونساء بأثواب فاخرة تذكر بأثواب الارستقراطيين في العصور الوسطى الاوربية . وهناك رسوم تمثل ولادة بوذا ، ومناظر طبيعية جميلة مزدانة بالنباتات والازهار . وقد استولى الصينيون على هذه المدينة في العام ٦٤٨م بعد دمار كبير أصاب المدينة التي أصبحت بعدئذ جزءا من الامبراطورية الصينية .

ومن المحطات المهمة مدينة خوتان Khotan على نهر خوطان داريا ، وفي هذا الموقع تمتد انقاض عاصمة مملكة يخطان أو أوطان على طريق الحرير . وكانت هذه المملكة تابعة للهون حتى ٧٣م ثم وقعت تحت نفوذ الصين ، حتى القرن التاسع عندما امتد نفوذ العرب حتى التبت وتركستان الصينية . وتعود الآثار التي كشفت في موقع رواق (القرن ٣ - ٧) وفي موقعي دندان ويليقي (القرن ٦ - ٧) الى مخلفات ثقافات هندية وإيرانية . ففي رواق دير بوذي يتألف من برج مربع الشكل متأثر بغن قندهار ومحاط ببهو مربع (٤٣ × ٤٩ م) . وهناك تأثيرات هندية قديمة تعود الى عهد غوبتا (القرن ٦ هـ) ونجد تأثيرات قوية للفنون الهندية في دندان ويليقي ، وبخاصة شكل شيقا بثلاثة رؤوس . وأما التأثيرات الإيرانية فتبدو واضحة في وجوه لأشخاص ملتحن يشار اليهم بالبطل الاسطوري الايراني رستم واله الحرير ، وهناك رسوم لفرسان ولراكبي الابل .

وهناك محطة يجدر ذكرها هي مدينة شور تشوك Chortchuq في تركستان الصينية بين كوتشا وقره شهر ، والتي تعود الى ما بين القرنين السادس والثامن .

وقد كانت محطة مهمة للقوافل على طريق الحرير الشمالية . وقد كشف المنقبون فيها عن معابد وكهوف وفيها تأثيرات فنون الهند القديمة في عصورها المتأخرة (٧) .

٧ - بلاد سيراندا : التنقيبات الاثرية ونتائجها الباهرة .

أطلق الجغرافيون والرحالة الكلاسيكيون اسم بلاد سيراندا Serinda للإشارة الى البلاد الصينية - الهندية المتجاورة وتتألف من بلاد سيريكافيا وهو ما اصطلح على تسميته بلاد الصين المحاذية لمنطقة شمال الهند الواقعة وراء نهر الغانج التي كانت مصدر الحرير . وينطبق اسم سيراندا على بلاد تركستان الصينية حيث اجتمع تأثير فن بلاد قندهارا وايران الساسانية والصين .

وقد أفادت هذه المنطقة الواقعة على طريق الحرير من وضعها في حركة التجارة الدولية طوال ثمانية القرون الاولى من الميلاد . ثم انكفأت هذه المنطقة على نفسها وتدهورت أحوال العمران في مدن الواحات وغمرتها رمال الصحراء التي كانت تحملها الرياح العاتية والمتحركة كأمواج البحر الى أن كشفت عنها أعمال المنقبين عن الآثار .

ومنذ القرن الماضي وخلال النصف الاول من القرن العشرين قامت بعثات من دول أوربية ، من روسية وفرنسة وانكلترا ، ومن اليابان بالتنقيب في مواقع أثرية وتاريخية عديدة على طول هذه الطريق وكشفوا النقاب عن آثار اختفت عن الانظار قرونا وأصبحت بعد دراستها وحفظها شواهد على تلاقي الحضارات والحوار فيما بينها عبر العصور وهي تبدو في ما تمثله من فن تشكيلي تركيبي في التصوير والنحت والعمارة ، وفي تنوع الشواهد المكتوبة التي عثر عليها وهي مخطوطات صينية وهندية وايرانية وتركية وسريانية نسطورية ويونانية وعربية .

ولكن الحكومة الصينية عملت بعد الحرب العالمية الثانية على متابعة الجهود التي بذلت في السابق ولا سيما في المواقع الصينية الواقعة في المراحل الاولى من الطريق لاستكمال الصورة التي تكونت من نتائج التنقيبات في منطقة آسية الوسطى .

وقد تمكن الباحثون من تحديد المحطات والمواقف والمنازل التي كانت علامات مميزة للقوافل التي كانت تتحرك ما بين الصين والبحر المتوسط مروراً بإيران والمشرق العربي طوال قرون امتدت حتى القرن الرابع عشر . فبعد أن تسير القافلة محاذية نهر (في) كانت تتجه نحو الغرب الى أن تصل الى خيان يانع ، وهي مدينة حدودية ينتصب عندها (الماولينغ) ، وهو ضريح الامبراطور وودي (١٤٠ - ٨٧ ق.م .) ، من أسرة هان ، وما يزال هذا الضريح محتفظاً بما فيه والى جانبه عدد من الاضرحة لبعض عظماء البلاط .

وفي موقع آخر بعد أن تنحرف الطريق نحو الشمال الغربي تصل أمام (زاولينغ) وهو الضريح الضخم للامبراطور تاي زونغ (٥٩٩ - ٦٤٩ م .) وهو مؤسس أسرة تانغ (٦١٨ - ٩٠٧ م) ؛ وحول الضريح مائة واثنان وستون قبراً لاتباعه المخلصين . ويظهر بعد ذلك (الكياليونغ) وهو ضريح الامبراطور جاوزونغ (٦٢٨ - ٦٨٣ م .) وإلى جانبه ضريح قرينته الامبراطور ووزتيان .

ولا تظهر اولى الآثار البوذية هندية التأثير الا في دافوسي ، وفيها توجد كهوف محفورة في الصخور وتعود الى ما بين القرنين الرابع والسابع للميلاد . وبعد اجتياز مرتفعات لونغ كسي Longxi التي تنتشر فيها مواقع أثرية كثيرة من الكهوف والمعابد وخرائب مدينة جينشنغ القديمة التي تقوم محلها الان لانزو ، تصل الطرق الرئيسية الى ممر هكسي ، الذي هو معبر طبيعي ومفلاق حقيقي لطريق الحرير يتحكم بنقطة الاتصال بين العالمين الهندي والصيني . وقد حصن هذا الممر من أيام أسرة هان بمراكز المراقبة العسكرية واليه كانت تصل قطعان الخيول التي كان ايصينيون يقايضونها مع شعوب السهوب مقابل الحرير .

ويمكن تتبع تطور هذا التلاقي بين الاعراق والثقافات والمعتقدات واللغات على امتداد القرون . فلقد وجدت كهوف بوذية ثم مدينة زانغ بي ثم غانزو = كاميشيو التي ذكرها ماركو بولو الرحالة الايطالي المشهور (١٢٥٤ - ١٣٢٤) ، والذي زار الصين وكان في السابعة عشرة من عمره وأقام فيها وتحدث عنها في قصة رحلته (٨) . وكان معاصراً للرحالة العربي المغربي ابن بطوطة (١٣٠٤ - ١٣٧٧ م) .

ووجدت بالقرب من مدينة سوزو = جيوكان في الصحراء ، في موقع دنغ يازو ، قبور عظيمة زينت برسوم ملونة من القرن الخامس وبقايا حصون : جوايوجوان وكوبو أو سو يانغ ، وهي من القرن السابع ، ويانغ جوان ، وكسياو فانغ بان ، (هيكانغ) ، وكذلك قبور مبنية بالأجر المختوم . وقد أظهرت هذه الآثار الصينية للعيان ودرست بالتفصيل . وتعزز كل هذه النتائج ما كانت قد توصلت اليه الدراسات الاثرية والتاريخية التي اهتمت من قبل بالطريق عند انطلاقها من دون هوانغ في شمال الصين باتجاه الغرب الى آسيا الوسطى . وقد أكدت نتائج التنقيب أهمية دون هوانغ بوصفها موقعا مهما متقدما للتبادل بين الشرق والغرب ولامتداد البوذية نحو هذه المنطقة من بلاد الصين الشمالية بما كانت تحمله من عقائد وثقافة ومفاهيم في الفنون التشكيلية .

وفي عصر أسرة هان الذي امتد ما بين القرن الثاني ق.م الى بدايات القرن الثالث للميلاد تقدمت البوذية الى بلاد الصين خلال القرن الاول الميلادي ، وكانت الطريق الجنوبية هي التي كانت تفضلها قيادات القوافل بسبب الاخطار المحتملة من

تحركات شعوب شمالية . ثم تحاذي الطريق الجانب الشمالي لصحراء تاكليماكان لتتجه الى كومول (كامى) ومن هناك تجتاز جبال تيان - شان لتصل الى باركول المحاطة بعدد من حصون المراقبة والمدن المجهزة لاستقبال القوافل ، وهي من القرن السابع ، مثل يي فو ، وباي تنغ (جي مار) التي وجدت آثارها على مسافة تبعد عشرة كم الى الشمال من المدينة الحالية .

ولكن الطريق الشمالية لقيت ايضا عناية الباحثين ، فهذه الطريق تجتاز الي لتصل الى سويي Suiye (توكماك) في بلاد القرغيز ، المشهورة بتربية الخيول التي نالت اعجاب اباطرة الصين من أسرة هان ، والفنية بالمواقع الاثرية القديمة .

وتجتاز الطريق بعد ذلك وهدة طرفان ، وهي واحة ضخمة شمال صحراء تاكليماكان في غور يهبط الى ١٥٤ م تحت سطح البحر عند نهاية تركستان الصينية . وهناك عثر علماء الآثار الصينيون على آثار مدن عديدة مثل مدينة جياو هي ومدينة جاو شانغ التي أعيد بناؤها في عصر تانغ ، وعلى آثار بوذية في أماكن عديدة وكهوف للعبادة والاعتكاف ، وقبور مزينة بأشكال بديعة ، عثر فيها على مئات الوثائق والمصنفات ورسوم على الحرير من عصر أسرة تانغ أيضا .

واذا ما اتجهت القافلة اكثر نحو الجنوب اقتربت من حوض نهر تاريم على طريق معلمة بالشواخص للهداية على الطريق كالحصون وأبراج الرصد والمنازل والقبور مثل قره شهر ويانقي حتى تبلغ مراكز اللقاء بين القادمين من الجهات المختلفة . ومن هناك يلتحق التجار الصينيون عن طريق سواحل بحر آرال بالقوافل التي وصلت الى المراكز الهندية - الهلينية والفارسية مثل إي خانم ومرو ومن هناك يسلمون القياد الى التجار الفرثيين أو الفرس ثم الى التجار السوريين واليونانيين .

وطريق أخرى تمر عبر كاشغر أو يرقند وهي مدينة شاش ، وهما موقعان بلغهما العرب في فتوحاتهم منذ العصر الاموي ((القرن الثامن) . وقد كشفت على هذا الطريق بقايا أثرية مهمة ومثيرة في أماكن متعددة منها بالازاغون في اكبكشيم في قيرغيزيا، وفي لولان الواقعة في صحراء لوب نور التي وجدت فيها اجساد تجففت لاشخاص شقر الشعور .

وبعد مضي قرون اظهرت التنقيبات للعيان آثار المدن والحصون الواقعة في قلب صحراء تاكليماكان ، كما تم التعرف على انقاض عدد من المعابد البوذية ومنها تايغمو ودافولوك . وتضاف هذه النتائج التي أدت اليها التنقيبات التي تمت حديثا الى النتائج التي تم التوصل اليها في مواقع نيا ودندان اوليك وفي خوطان شورتشوك وتومشوك . وقد كانت هذه الاخيرة محطة مهمة على طريق الحرير وتعود آثارها الى ما بين القرنين الثالث والخامس .

(طريق الحرير - طريق الحواد)

وعلى الطريق المتجهة بعد ذلك الى هضبة بامير جرت تنقيبات مهمة في موقع تشكرغان ، وهي مدينة الحجر التي ما تزال حصونها قائمة على المصطبة التي تؤدي الى مدن قندهار وبشاور وهذا وتاكسيلا وهي المعابر التي تقود الى كابول ومنها تنطلق القوافل باتجاه الطرق المتجهة نحو الغرب التي تعاقب على مراقبتها الفرس ثم الفرييون والساسانيون .

لم يكن لهذا التحرك الواسع للجنود والتجار والرحالة والمسافرين أن يحرك النقود والديباج والمعادن والحلي والحجارة الكريمة وحسب بل كان وسيطا ناقلا للأفكار والثقافات . فعلى هذه الطريق كانت تتحرك جماعات بعقائدها ولغاتها وثقافتها من البوذيين والمسيحيين النساطرة المشرقيين والهليينيين والزرادشتيين والمسلمين . وبين هذه العقائد حققت البوذية انتصارات كبيرة على هذه الطريق الى جانب الانتصارات التي حققها تقدم الاسلام .

ولقد أسرع الكهان البوذيون الذين تقدموا من جهات التبت وشمال غربي الهند وأفغانستان للاتحاق بالقوافل القادمة من المشرق المتوسطي على طريق الحرير الدولية . فعلى هذه الطريق وشعابها تقدمت البوذية في بلاد الصين بينما تقدم الاسلام في شمال ايران وآسية الوسطى .

ويمكن القول ان البوذية تأخرت في الوصول الى الصين اذا ما عرفنا ان بوذا مات نحو ٤٨٣ ق.م . وكان من أوائل المشجعين للبوذية في الصين الامير تشو الذي كانت له ممتلكات على مصب نهر يانغ تسو ، فقد شجع تأسيس أول جماعة بوذية في البلاد كانت نواة لتأسيس البوذية في الصين ونشرها (القرن الاول م) . وهكذا عرف العالم الصيني هذه الديانة القادمة من العالم الهندي وجبال الهملايا ، ولكن الصينيين لم يتقبلوها بسهولة ولم يؤمنوا بها بترحيب ، فقد كانت لهم عقائدهم القديمة من الطاوية والكونفوشيوسية . وكان موقف امبراطورية الصين من العقيدة الجديدة كموقف الامبراطورية الرومانية من المسيحية القادمة من سورية وبلاد المشرق في زمن الاباطرة الانطونيين . ولكن على طريق الحرير وفروعه ومعابره ومحطاته ومفترقاته انتشرت البوذية في اوساط واسعة من الصين (٩) .

فعلى هذه الطريق حمل المبشرون البوذيون والتجار تأثير الهند الاصلية وتأثير الهند المهلنة ، ونقلوا مع بضائعهم وفي لفائف الحرير نتاج العقول وابداع الايدي الصنّاع ، ووصل المبشرون أول الامر الى خوطان ثم انتشروا بعد ذلك في حوض وادي تاريم . وهناك في خوطان تمكنت بعثة أوريل ستاين من كشف النقاب عن نقد روماني يعود الى عصر الامبراطور فالنيس (١٠) (ت ٣٧٨ م) بالاضافة الى آثار هندية - هلنستية من القرن الثالث .

ولم تكن المؤثرات الهندية البوذية وحدها المهمة على هذه الطريق . فلقد كان تأثير الإيرانيين والعرب المسلمين كبيرا في القرون التالية لظهور الاسلام (بين القرنين الاول والسادس الهجريين ، والثالث عشر م) . ويتحدث عن هذا الاتصال بين العالم العربي الاسلامي والعالم الصيني كثير من الرحالة والمؤرخين العرب ومن أهمهم السعودي (ت ٣٤٥ هـ / ٩٥٨ م) وابن بطوطة (عاش في القرن الثامن هـ = الثالث عشر م) (١١) . ويؤكد التراث الجغرافي العربي استمرار الاتصالات والعلاقات التجارية بين الشرق الاقصى وبلاد شرقي البحر المتوسط ، ولم تكن شبكة طريق الحرير البرية هي الطريق الوحيدة للمواصلات . فللطريق البحرية بين الشرق والغرب تقاليدها التي تعود الى قرون بعيدة ، وترقى الى جذور العلاقات التجارية والحضارية بين بلاد المشرق العربي القديم وعالم المحيط الهندي ما بين الالف الثالث والقرن الرابع ق.م . عندما اقتحمت جيوش الاسكندر المقدوني الامبراطورية الفارسية واجتاحت بلاد الشرق وعوالمه المجهولة (١٢) .

٨ - الطريق البحرية الى الشرق الاقصى :

كانت هناك طريق اخرى للمواصلات بين عالم حوض المتوسط وبلاد الشرق الاقصى عن طريق المحيط الهندي . فبعد أن كانت الرحلات البحرية تسير محاذية سواحل هذا المحيط قرونا عديدة بسفن قليلة الحمولة ، أصبحت الطريق البحرية أكثر سراً بعد تعرف الملاحين اليونانيين زمن الامبراطور اغسطس على حركة الرياح الموسمية في مطلع القرن الاول ق.م ، واخذوا يراحمون الملاحين المصريين والفينيقيين والعرب اليمينيين على الطريق بين البحر الاحمر والساحل الغربي لشبه القارة الهندية . ومنذ ذلك الحين أخذت سفن بسعة ٥٠٠ طن تبحر صيفا باتجاه الموانئ الهندية عند مصب نهر السند مستفيدة من حركة الرياح الموسمية لتعود هذه السفن شتاء ، بعد أن تتغير حركة الرياح الى الاتجاه المعاكس ، محملة بالبضائع من الهند والجزر ومن منتجات الصين وبلاد الشرق الاقصى .

وبعد وصول الصينيين الى هايفونغ (على الساحل الشمالي لفيتنام) من المحتمل أن يكون اللقاء بين التجار الصينيين القادمين من الهند عند (جواق إيو) على مصب نهر الميكونغ الى الجنوب من مدينة هوشي منه = سايفون سابقا (١٣) .

ومن هذه المحطة المهمة على طريق القوافل والسفن بين الصين والهند عبر شبه ملاقا في شبه جزيرة ملايو ، كان يجري شكل من أشكال اللقاء بين الثقافات . وقد بقي هذا اللقاء تقليديا على مر العصور ، وذكر كثيرا في المصادر العربية وفي الروايات الادبية الشعبية ، مرتبطا ببلاد الواق التي لم يتفق الباحثون على تحديد موقعها (١٤) .

ويقول الاستاذ أندريه ميكيل ان واق الواق بلد غير محدود من الشرق الاقصى ، وقد يكون موقعه وراء الصين في الجنوب أو الشرق الاقصى ، ويشير اليه احيانا في اليابان ، أو مدغشقر في شرقي افريقية(١٥) . في حين أن الباحث شوقي عبد القوي عثمان يرفض ما ذهب اليه بعضهم من أن واق الواق هي جزيرة بورنيو (جزيرة في أندونيسية) لان اسمها عند العرب معروف ، وهي الزابج ، كما أن بلادا بعيدة هي السلي قد تكون الفيليبين أو كوريا . فهذه المناطق معروفة بأسمائها . لكنه يرجح مثل أندريه ميكيل أنها اليابان(١٦) .

ومهما يكن فاننا نرى ان بلاد واق الواق التي يتردد ذكرها في المصادر اعرابية في الحديث عن بلاد على الطرق البحرية الى الصين بمحاذاة سواحل ملاقا هي على الاغلب (جواق إيو) عند مصب نهر ميكونغ الذي يشكل حداً طبيعياً ومكاناً مناسباً للقاء بين القادمين من الصين والقادمين من الهند ، بالإضافة الى التشابه الكبير في نطق الاسم في المصادر المحلية والعربية . ففي هذا العالم الشرقي الساحر بلاد ترخر بالخيرات ، واقعة على تخوم التجارة الدولية ، وهي ما تزال تحتفظ بدورها حتى أيامنا هذه ، وان تحرك موقعها الى أماكن أخرى قريبة منها بحكم تبدل الظروف التاريخية ، فالدور القديم لمدن مثل كانتون على ساحل الصين وهايفونغ على ساحل فيتنام وجواق إيو على مصب الميكونغ وملاقا ، كالدور الذي تقوم به مدن هونغ كونغ وجزيرة تايوان وسنغافورة في أيامنا هذه .

فمن ذلك الشرق القصي كانوا يستوردون التوابل والفلفل والعاج وجلود النمر والعنبر الاسمر والبخور والحجارة الكريمة والرقيق ويصدرون اليه الابنوس والزجاج والفخار والعطور والذهب والاقمشة . وقد ساعد وصول البضائع المرغوبة عن طريق البحر على انخفاض سعر الحرير في أسواق حوض البحر المتوسط والى انتشار ادخال التوابل الشرقية والهندية في المطبخ الروماني . وكان من شأن الاقبال على طلب التوابل أن الطريق البحرية صارت تعرف بعدئذ بطريق التوابل والبحارات . وقد صرفت الامبراطورية الرومانية كثيراً من جهودها للتحكم بهذه الطريق ولكن حجم التجارة كان مرتبطاً بالظروف الداخلية غير المستقرة للعالمين الروماني والصيني . فكتاب الحوليات في المراجع الكلاسيكية يعلموننا عن وصول تاجر روماني عام ١٦٦م الى الصين قال انه موفد من قبل الامبراطور ماركوس أوريليوس (١٦٠ - ١٨٠) ، وقد وصل عن طريق البحر من وراء نيبان وهي منطقة أنام الشمالية في فيتنام حالياً .

لقد ارادت الامبراطورية الرومانية منذ سيطرتها على الدول الهلنستية في الشرق العربي في القرن الاول ق.م أن ترث تجارة الحرير والتوابل والعطور والمواد النفيسة المستوردة من بلاد الشرق والتي كان يحتكرها التجار العرب والهنود ، كل في منطقة

نفوذه بين البحر الاحمر والمحيط الهندي ، منذ عصور بعيدة حتى أيام البطالمة والسلوقيين والانباط والتدمريين واليمنيين . ولئن كانت رومة قد أفادت من الدور الذي كانت تقوم به التجارة العربية - الهندية البرية والبحرية فانها كانت تجد في الفرثيين عقبة في طريقها لانهم بحكم موقعهم كان باستطاعتهم أن يسدوا طريق الاتصال المباشر بين الصين والبحر المتوسط .

وكان الإباطرة الرومان منذ أيام اغسطس يبدون اعجابهم بالحرير الصيني الذي كان يستورد الى سورية لصنع ملابس الامبراطور (١٧) . وبعد استيلاء الرومان على مصر وسورية وضعوا أيديهم على طريق البحر الاحمر (الخليج العربي آنذاك Sinus Arabius وعلى البحر الارثري وهو الاسم القديم لبحر العرب (١٨) . وأخذوا يدرسون المؤلفات التي كتبها مؤرخون وجغرافيون يونان ورومان ومنهم ايراتوستينيس (الهليني المصري الاسكندري ، من القرن الثالث ق.م .) واسترابون (٥٨ ق.م - ٢٥ م) ، وبلينوس (القرن الاول م .) وبطليموس (القرن الثاني م .) وقد يكون أهم الاعمال الكلاسيكية عن البحر الارثري ، كتاب لمؤلف يوناني مجهول بعنوان « دليل الطواف حول البحر الارثري » (١٩) الذي يبدو أن معلوماته تعود الى عصور مختلفة ما بين القرنين الثالث والاول ق.م . وهو مرشد عملي للملاحين يدل على الطرق والمسافات والاعماق المعروفة آنذاك وهو يضم جملة من الفوائد للمسافرين يمكن أن تساعد في معاملاتهم وغدا هذا الكتاب الان وثيقة هامة تقدم معلومات جغرافية وتاريخية عن بعض البلاد الواقعة على طريق الملاحة بين البحر الاحمر والساحل الهندي (٢٠) .

كان التجار العرب يسيطرون على الطرق بين خليج عدن والخليج العربي والساحل الهندي وعندما كانت تصل بضائع الشرق بحرا الى موانئ الخليج العربي واليمن كانت تحمل باشراف رؤساء القبائل من جرها (العقير على ساحل الاحساء) الى تاج ثم الى دومة الجندل وتيماء فالبتراء . وهناك طريق أخرى تنطلق من خراكس (المحمرة) باتجاه الشمال الغربي ، وكانت هناك طريق تنقل البخور من حضرموت مروراً بنجران ومكة الى البتراء .

وفي العصر الهلنستي السلوقي ثم في العصر الروماني أضحت انطاكية هي نهاية المطاف تنتهي اليها طرق القوافل القادمة من خراكس على الخليج ومن حضرموت وعدن عن طريق الوسطاء الانباط ثم التدمريين .

ولكن لنقل البضائع الى موانئ الامبراطورية الرومانية كانت قوافل أخرى تتجه على الطريق القديم الى الرها ومنها عبر شعاب اسية الصغرى الى الموانئ على

سواحل البحر ، في الوقت الذي كانت تتلقى حمولة قوافل أخرى قادمة من الجزيرة العليا عن طريق نصيبين .

أما القوافل القادمة من الجنوب فكانت تحط في لوكي كومه على الساحل الشمالي للبحر الاحمر ثم تحمل على قوافل برية الى غزة ومنها تصدر برا الى مصر وبحرا الى مدن المتوسط ، ويصف استرابون سيطرة الانباط على جزء كبير من شبكة القوافل بين مصر والخليج وبين غزة والحجاز . مما أثار مطامع الرومان الذي كانوا وضعوا أيديهم بقوة على المحطات الرئيسية على الطريق الشمالية في سورية منذ أيام تراجان (٧٥ م) ، ما بين تدمر والرصافة . ولم يعد الرومان بحاجة الى خدمات الانباط ودور الوسيط الذي كانوا يتولونه ، فتم القضاء على مملكة الانباط التي كانت تمتد أراضيها على جنوبي فلسطين والاردن وخليج العقبة وشبه جزيرة سيناء وهي منطقة مهمة في الخطة الاستراتيجية الرومانية لتحكمها بعقد المواصلات البرية والبحرية ، وأسست بدلا عنها الولاية العربية (١٠٦ م) . وانتقل مركز الثقل بعدئذ الى عاصمة عربية أخرى: **تدمر** .

ففي العصر الهلنستي استطاعت تدمر أن تستجيب اليها خطوط القوافل لتكون محطة بين الفرات من جهة وحمص وأنطاكية من جهة أخرى . وعندما نهضت تدمر لتصبح قوة اقتصادية وسياسية في القرن الثاني م ، أخذت تتلاشى أهمية الطريق البرية نظرا للاوضاع السائدة في مناطق تركستان الصينية ، وسيراندا (الهند الصينية) ، مما أعاق وصول بضائع الشرق الأقصى عن هذه الطريق ، وعندئذ عمل التدمريون على تسلم مقاليد التجارة الرافدية نحو الغرب وقادوا القوافل من خراكس وأبولوجوس (المحمرة والابلة) الى مواقعهم المتقدمة على الفرات : دورا أوربوس وحلبية وزلابية (٢١) . ولكن من المدهش انه كان للتدمريين مراكب تسير الى الهند لتجلب البضائع الشرقية من ميناء بربريكوم (٢٢) . ولقد نعمت تدمر بثروة هائلة في القرنين الثاني والثالث . مكنتها من تشييد مدينة عظيمة وعمران لم يعرفه الشرق من قبل ومن القيام بدور تاريخي عظيم في اشرق العربي حتى تدمير المدينة في ٢٧٣ م .

ولكن أهم ميناء على الحوض الشرقي للبحر المتوسط في عصر الامبراطورية العامة هي الاسكندرية ، التي كان عدد سكانها في القرن الثاني يقرب من نصف مليون نسمة ، وكانت تتلقى بضائع الشرق من السفن القادمة من هرمرز على الخليج ومن عدن في اليمن ، ومن برنيقة على البحر الاحمر ، ومن الاسكندرية كانت مصر تصدر بضائعها وبضائع المرور الى سائر موانئ البحر المتوسط . وبين هذه البضائع المرغوبة في الاسواق الاقمشة الكتانية المصرية والورق البردي والبخور والصمغ واللؤلؤ من بلاد

العرب والاقمشة الحريية من الصين والهند والعمور والحجارة الكريمة والزجاج ،
والحبوب لتغذية سكان الامبراطورية (٢٣) .

ولقد ارتبطت أوضاع التجارة الدولية بعد القرن الثالث الميلادي بالاستراتيجية المتضاربة لكل من امبراطوريتي فارس وبيزنطة اللتين ورثتا العداء القديم بين الفرثيين والرومان والنزاع التقليدي للسيطرة على طرق المواصلات . وفي معالجتها للاوضاع الاجتماعية والاقتصادية في الجزيرة العربية وانعكاساتها على العلاقات الاقتصادية اهتمت الباحثة الروسية ن.بيغولفسكيا بالقوى المتنافسة على طريق الحرير وعلى طريق البخور (٢٤) . واستندت الباحثة الى المصادر القديمة والكلاسيكية البيزنطية والسرانية لتحليل تطور العلاقات التجارية البيزنطية مع دول الجزيرة العربية والقوى الاقتصادية فيها . وكان من الواضح ان البحر الارثري (الاحمر) كان حلقة الاتصال بين الهند والمناطق العربية التي تسيطر عليها الدولة البيزنطية . وفي القرن السادس كان يوجد خط ملاحي بين ايلة - العقبة وساحل الهند عبر البحر الاحمر وجنوبي الجزيرة العربية . وتتضح من دراسة هذه المرحلة من تاريخ العلاقات في المنطقة الصلات الوثيقة والترابط العميق الجذور بين فلسطين وبلاد النخيل ، وهي فينيقيون كما يسميها الكتاب والمؤرخون اليونان ، أي الحجاز ، وبلاد حمير (اليمن) .

وفي شهادة لبروقوبيوس القيساري (من قيسارية ٤٨٠ - ٥٦٥) الذي كتب كتابا مهما عن عصر جوستينيان ، تتضح أشكال الصراع على طرق التجارة في الجزيرة العربية ق. الاسلام والتي كان محورها التحكم بتجارة الهند والشرق الأقصى . يقول لبروقوبيوس :

« لم يكن بمقدور الاثيوبيين (الاحباش) شراء الحرير من الهند ، إذ ان التجار الفرس اعتادوا الوصول قبل غيرهم الى الثغور التي تقف عندها السفن الهندية ، لأنهم يقطنون بلادا مجاورة لهم فيشترون جميع حمولتها » (٢٥) .

ومن المعروف أن الإثيوبيين كانوا حلفاء بيزنطة . وان دراسة الباحثة الروسية تلقي مزيدا من الضوء على تحركات الامبراطورية البيزنطية في الجزيرة العربية عن طريق الحبشة . فحملات أبرهة في الجزيرة العربية في القرن السادس ، ينبغي أن تربط بالحروب الفارسية - البيزنطية التي اندلعت ما بين ٥٤٠ - ٥٤٦ م ، وفيها انضم الحميريون الى الاحباش والبيزنطيين ضد الفرس . أما على الصعيد الاقليمي في الجزيرة العربية فلقد كان على الحميريين انتزاع السيطرة على جزء من طريق البخور في الجزيرة العربية من أيدي اللخمين . وكان من مصلحة بيزنطة وحمير معا السيطرة على خطوط الملاحة والتجارة في البحر الاحمر وبحر العرب ومنع الفرس وحلفائهم أمراء الحيرة من تهديد هذه التجارة . وكان التحرك البيزنطي في هذا الاتجاه

هو محور التحالفات التي عقدت مع الفساسنة في الشمال والحميريين في الجنوب . في اطار الصراع الذي كان يدور في الجزيرة العربية عشية ظهور الاسلام من أجل السيطرة على طريق التجارة التي كان ينقل عليها المر واللبان من بلاد العرب والحرير من الصين والهند (٢٦) .

٩ - طرق المواصلات والتجارة بين الشرق والغرب بعد ظهور الاسلام :

بعد وصول الفتوحات العربية الى الهند والى كاشغر على حدود تركستان الصينية أضحت طرق التجارة الدولية التقليدية بيد التجار العرب ورعايا الدولة العربية . وكان على التجار البيزنطيين بعد ذلك الالتفاف حول البحر الاسود والمعابر الشمالية للوصول الى نقاط الالتقاء بتجارة الشرق الأقصى . وبقيت سيطرة العرب على طرق المواصلات بين الشرق الأقصى وسواحل البحر المتوسط مطلقة حتى الحروب الصليبية .

فلقد تطور معرفة الغرب بالشرق خلال الحروب الصليبية ولا سيما في القرن الثالث عشر بعدما تمكن من الاتصال بالشرق الأقصى مباشرة عندما وصلت جيوش المغول الى البحر الاسود وفرضوا نظامهم وسلامهم على طرق المواصلات من شمال الصين الى شواطئ البحر الاسود . وبعد تأسيس الامارات اللاتينية على طول الساحل السوري من الاسكندرية الى عسقلان في أواخر القرن الحادي عشر وبعد تقدم المغول نحو الغرب تزايدت فرص الاتصال بين الجانبين لوضع العالم العربي الاسلامي بين فكي كماشة . ونجم عن هذا التغير الجذري في الوضع الجغرافي - السياسي في الشرق الأدنى تغيير كبير في العلاقات التجارية وفتحت أبواب آسية أمام أوربة وسفاراتها وبعثاتها التجارية التي قادها مغامرون أشداء كان أهمهم ماركو بولو الذي نشر تقريراً عن رحلته التي وصف فيها العالم الذي عرفه وعاشه منذ أن وطئت أقدامه أرض الصين وعمره سبعة عشر عاماً وأقام على مقربة الامبراطور المغولي قبلاي خان (١٢٧١ - ١٢٩٥) . ونجح الايطاليون بعد ذلك في تأسيس مستعمرات كان معظمها تابعاً للجنوبيين ، من أهمها محطة في القسطنطينية ، وكافا على جزيرة القرم وطانة على خليج أزوف شمال البحر الاسود ، وطرابزون على الساحل الجنوبي . وتعد هذه المحطات نهاية طريق الحرير التي تتصل شرقاً بالمدن الإيرانية الشمالية ، تبريز ومرو ، ومنها الى سمرقند لتتصل بعد كاشي - كاشغر بمحطات حوض تاريم في شمال الصين .

وفي هذا الدور احتلت تبريز مكاناً متميزاً ، فكانت تتصل بطريق يؤدي الى الموصل وبغداد حتى الخليج العربي والمحطات البحرية التي كانت قائمة عليه ، وأهمها

هرمز وتقع هذه على مضيق هرمز على مدخل الخليج على طريق التجارة مع بلاد الشرق . وكما كانت الصين تمتد أقدامها نحو الجنوب لتتصل بالعالم الهندي ، كان الغرب يخترق جدار المغرب العربي بعد اجتياح الاندلس ويمد خطوطه الى مصادر تجارة المشرق العربي مع الهند والمحطات الرئيسية على الطرق : ديو عند خليج السند وقاليقوت على ساحل الملبار وملاقا على ساحل الملايو . وفي هذا التبادل كان الصينيون يحملون الحرير مقابل التوابل ، ولكن التجار العرب والفرس والهنود احتفظوا بسيطرتهم على الطرق البحرية الممتدة من ملاقا الى سواحل جزيرة العرب . وكانت للصينيين طريق أخرى لنقل بضائعهم الى الغرب هي الطريق البرية التي تؤدي الى البحر الاسود والبحر المتوسط . فبعد العصر الذهبي الاول في تاريخ الصين أيام أسرة تانغ (من القرن السابع الى القرن العاشر) ، وفيها تطور استخدام النقد في التجارة واخترعت الطباعة والبوصلة والبارود ، جاء العصر المغولي (٢٧٩ - ١٣٦٨) الذي اتسعت فيه سوق التجارة البرية .

ولكن الطريق التي فتحتها المغول عادت لتفلق أمام التجار الغربيين بعد انحسار المد المغولي ، وبعد تنامي العسكرية التركية في بلاد المشرق وآسية الغربية (الممالك والأتراك السلاجقة ثم الأتراك العثمانيون الذين أسسوا ممالك عسكرية بين القرنين الرابع عشر والسادس عشر) . وكان من جراء تغير الظروف الدولية على طريق الحرير ضعف تجارة الحرير ، فقد عادت الصين الى جذورها القديمة وتلاشى حكم الاسرة المغولية فيها ونهضت أسرة مينغ (١٣٦٨ - ١٦٤٤) ، التي عرفت الصين في أيامها أرفع درجات النهضة في تاريخها ، في الادارة ونظام الري والتجارة الداخلية والبحرية . وبعد تقلص الحركة التجارية على الطريق الشمالية مع بلاد الروسية وحوض الفولغا وبحر البلطيق ومدن الهانزا على الساحل الألماني الشمالي اضطرت أوربة الى العودة للتعامل مع مصر والشرق العربي لطلب التوابل والبهارات . واستردت الاسكندرية دورها القديم على البحر المتوسط . ولكن الغرب الاوربي ظل ماضيا في مغامراته الاستعمارية وتقدم نحو افريقية للاستيلاء على الذهب والمعادن وليفرض بيع بضائعه مقابل مواد ثمينة لتكديس الثروات والنقود لدفعها مقابل الحرير والتوابل والخزف والمواد الكمالية المرغوبة التي كانت تجلب وتستورد من بلاد لشرق الاقصى . ومع تزايد الفضول لكشف المجهول وتنامي الاطماع ، تزايد اندفاع دول الغرب الى تجهيز الاساطيل التجارية والبحرية التي خرجت في أواخر القرن الخامس عشر لتفتح في تاريخ العالم عصرا جديدا هو عصر انتشار السيطرة الغربية وبداية الاستعمار . وعندها انتهى فعليا الدور التاريخي لطريق الحرير ودخل اللقاء بين الثقافات والحضارات في طور آخر هو الصدام الدامي والحروب التي لم تتوقف حتى تصفية الامبراطوريات الاستعمارية في هذا القرن العشرين .

المراجع

René Grousset et Sylvie Regnault - Gatier, « Extrême Orient » dans **Encyclopedie la Pleiade** (Histoire Universelle, I, Paris 1956. p. 1615.

(٢) الخطا هي الصين الشمالية ومن كلمة الخطا = كاثاي جاء الاسم القديم الذي عرفه العرب لبلاد الصين : راجع حسين مونس ، ابن بطوطة ورحلاته مصر ، ١٩٨٠ ، ص ٢٠٠ ، كراتشوفسكي ، تاريخ الادب الجغرافي ، نقله الى العربية صلاح الدين عثمان هاشم ، القاهرة ١٩٦٣ ، ج٢ ص ٥٣٢ .

(٢) المرجع السابق ص ١٦١٨ .

(٣) راجع كورنمان حوض البحر المتوسط ، بالالمانية ، مجلدان ١٩٤٨ :

E. Kornemann, **Weltgeschichte des Mittelmeer** - Rrumes , München 1948, Band 2, p. 93, 119.

(٤) المرجع السابق .

(٥) (Ptolémée), dans **Encyclopédie de l'Antiquité classique**; Paris 1962, p. 221.

(٦) لوصف هذه الطريق راجع :

La Route de la Sois, Casal-Expos. Grand Palais, Paris 1976. **Nouvelles Decouvertes Archéologiques en Chine**, I, ed. en langues étrangères, Pekin 1977, p. 58-65 .

R. Rowland, **Asie Centrale**, Paris 1974, p. 179 - 184. (٧)

(٨) وهي مترجمة الى العربية : ماركوبولو ، ترجمة عبد العزيز جاويز ، رحلات ماركوبولو مصر ١٩٧٧ .

(٩) فرزات ، محمد حرب ، كانديد في افريقية أو رحلة ابن بطوطة (ترجمة عن الفرنسية في مجلة آداب أجنبية دمشق ، العددان ٢٨-٣٩ (١٩٨٤) .

Maurice Percheron, **Le Bouddha et la Bouddhisme**, Paris 1954, p. 151-157 . (١٠)

R. Grousset et Sylvie Regnault - Catier, *ibidem*, p. 1622. (١١)

(١٢) راجع : المسعودي (ابو الحسن علي بن الحسين . مروج الذهب ومعادن الجوهر جزءان . عدة طبقات أفضلها بتحقيق محي الدين عبد الحميد ، ابن بطوطة (عبد الله بن محمد بن ابراهيم اللواتي) ، تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار ، تحقيق الدكتور علي المنتصر الكتاني جزءان ، بيروت ١٣٩٥ هـ = ١٩٧٥ م .

(١٣) راجع دراستنا عن العلاقات الحضارية بين بلاد الخليج العربي وشبه القارة الهندية ، مجلة

« دراسات تاريخية » السنة الحادية عشرة ، العددان ٣٧ و ٣٨ ، ايلول - كانون الاول ١٩٩٠ ص ٣٣ - ٨٨ .

Atlas of the World History, London 1970, p. 71,147.

(١٥) ورد ذكر واق الواق في الف ليلة وليلة ، رحلة السندباد الاولى ، انظر : اندريه ميكل ، جغرافية دار الاسلام البشرية ، ترجمة ابراهيم خوري ج ٢ ، وزارة الثقافة ، دمشق ١٩٨٥ ، حاشية ٣٠١٩ .

(١٦) المرجع نفسه ص ٢٥٤ ، ٥٦ والحاشية ٣٠١٨ . يرى الباحث عادل محي الدين الالوسي أنها جزيرة مدغشقر ، راجع الالوسي ، تجارة العراق البحرية مع اندونيسية حتى أواخر القرن السابع الهجري أواخر القرن الثالث عشر الميلادي (١٩٨٤) ص ٢٥٢ .

(١٧) شوقي عبد القوى عثمان ، تجارة المحيط الهندي في عصر السيادة الاسلامية ١٠٤١-٩٠٤ هـ = ٦٦١ - ١٤٩٨ م عالم المعرفة ١٥١ ص ٣٠٤ .
وسلى Silla هي كوريا = كوغوريوهي كوريا الشمالية : انظر :

The Time Atlas of the world History, London 1979, p. 126.

(١٨)

(١٩) م. ح. فرزات ، مواقع ارتريا في دائرة التاريخ العربي ، مجلة الفكر العسكري ، العدد ٣ ، ايلول ١٩٧٥ ، ص ٢٨-٤٦ .

(٢٠)

ترجم هذا الكتاب الى الانكليزية بعنوان :
« **The Periplus in the Erythraean Sea** », transl. by W.H. Sehot ,
London 1912.

وهو يحظى في السنوات الاخيرة باهتمام عدد كبير من الباحثين منهم روبان وفوسمان :
Ch. Robin, « L'Arabie du Sud et la date du Perible de la Mer Erythrée, Nouvelles domées ». G. Fussman, « Le Uerible et l'histoire politique de l'Inde », in **journal Asiatique, CCLXXIX, 1991, No 1-2, p. 1-30 et 30 - 38.**

Gérard Degeorge, **Palmyre, Librairie Seguiet - Archibaud, Paris 1987,** (٢١)
p. 35 - 45 .

J. Starcky, **Palmyre, Paris 1952, p. 70, 80.** (٢٢)

(٢٣) عن الاقتصاد في تدمر ، راجع ،
J. - G. Fevrier, **Essai sur l'histoire politique et économique de Palmyre, Paris 1931.**

(٢٤) ب. بيغولفسكيا ، العرب على حدود بيزنطة وايران من القرن الرابع الى السادس للميلاد نقله
عن الروسية صلاح الدين هاشم ، الكويت ١٩٨٥ .

(٢٥)

المرجع السابق ، ص ٢١١ .

(٢٦)

المرجع السابق ، ص ٢١٣ .

طريق الحرير

وتدمير مدينة القوافل التجارية

بشير زهدي

التحف الوطني بدمشق

يعتبر الحرير من مكتشفات الشعب الصيني قديما ومبتكراته الحضارية المفيدة . وقد تزايدت أهمية الحرير التاريخية والاقتصادية والفنية عبر العصور ، وغدا من أهم مواضيع التبادل التجاري والتجارة الخارجية العالمية . وأصبحت للحرير مهن فرعية وأسواق خاصة . وأن تزايد أهمية الحرير وتجارته جعل (طريق القوافل التجارية) التي تنقله من الصين الى روما يعرف عالميا باسم (طريق الحرير) .

وان أهمية طريق الحرير واثره في التبادل التجاري والحوار الفكري والتفاعل الحضاري مما جعل منظمة اليونسكو تناشد مجتمعات العالم والدول الاعضاء في هيئة الامم المتحدة للقيام بكل ما من شأنه بحث واستقصاء ومتابعة آثار (طريق الحرير) عبر اقطار عديدة في آسيا وأفريقيا وأوروبا برا وبحرا ، وذلك في سبيل متابعة اثار طريق الحرير أملا من منظمة اليونسكو في فتح حوار حضاري جديد يسهم جديا في تقارب الشعوب والامم ، وتقدم المجتمع الانساني ، وازدهار الاقتصاد وتوثيق العلاقات المختلفة بين الدول .

واذا كان (طريق الحرير) موضوع بحث علمي ، ورمز انجاز حضاري ، وعامل اتصال تاريخي حضاري وودي بين عالم الشرق وعالم الغرب قديما ، فإنه غدا في عصرنا الحاضر موضوع بحث حوار فكري وتفاعل حضاري بين أقدم الحضارات الانسانية العالمية التي نشأت وازدهرت في الصين وتركستان وأفغانستان وشبه القارة الهندية وإيران وبلاد ما بين النهرين وبلاد الشام وشبه الجزيرة العربية واليمن السعيد ومصر واليونان وإيطاليا .. الخ . واذا كان التاريخ يبدو أحيانا في نظر بعضهم وكأنه فقط تاريخ معارك وحروب وغزوات وحكام وقواد وملوك وأباطرة .. فان دراسة طريق الحرير تظهر من جديد أهمية دراسة التاريخ الحضاري محليا واقليميا ودوليا وعالميا .

مصدر اسم (طريق الحرير) :

بعدها قام الجيولوجي والرحالة الالماني (فرديناند فون ريشتهوفن^(١) Ferdinand Von Richthoffen) (١٨٣٣ - ١٩٠٥) عام ١٨٦٠ برحلته الى اقطار

دراسات تاريخية ، العددان ٣٩ و ٤٠ ، كانون الاول ١٩٩١

الشرق وعاد الى أوروبا عام ١٨٧٢ أطلق على هذا الطريق التجاري الهام - المنطلق من الصين حتى روما - اسم (طريق الحرير) ، وذلك بعدما استنتج أهمية الحرير التاريخية والعلمية والحضارية والاقتصادية المتميزة ، فصار اسم (طريق الحرير) في عصرنا الحاضر شائعا وموضوع بحث علمي واهتمام جدي ، ويتضمن هذا المصطلح :
١ - طريق الواحات ، ٢ - طريق مدن القوافل ، ٣ - طريق الاراضي المقفرة ..

من الاساطير القديمة المتعلقة باكتشاف الحرير :

اذا كان لكل اكتشاف اسطورة خيالية او قصة تاريخية ، فان لاكتشاف الحرير اكثر من قصة طريفة واسطورة جذابة تدل على أهمية دقة الملاحظة الذكية في تحقيق الاكتشافات الهامة في تاريخ الحضارة الانسانية . وقد توارث الاجيال المتعاقبة تلك الاسطورة الطريفة ، وذكرها المؤرخون والباحثون . ويمكن تلخيص اسطورة اكتشاف الحرير كما يلي : في نحو عام ٢٦٤٠ ق.م لاحظت زوجة الامبراطور (هوانج تي) (٢) الامبراطورة (سي - لينغ - تشي Si - Ling - Chi) (٣) او (لوي - تسي Loui - Tsé) بذكائها ودقة ملاحظتها الذكية بأن الشرانق تنحل الى خيوط دقيقة في الماء الساخن المغلي .. فكانت هذه الملاحظة الذكية بداية اكتشاف خيوط الحرير ، وحسن الافادة منها . وهناك من ينسب الى هذه الامبراطورة نفسها فضل تعليم الصينيين زراعة أشجار التوت Mûrier وتربية دود القز على اوراقها .. وذكرت التقاليد الصينية القديمة اسم الحاكم الصيني (فوهشي Fuhsi) في نحو ٢٨٥٢ ق.م كأول حاكم صيني مستنير علم أبناء شعبه فنون الكتابة والموسيقا والصيد وتربية دود الحرير .. وهناك أيضا من ينسب فضل اكتشاف الحرير الى الاغريقية (بامفيلي Pamphili) في جزيرة (كوس) .

وكانت أهمية صناعة الحرير في بلاد الصين قد جعلت من تقاليد كل امبراطورة حتى سنة الثورة عام ١٩١١ أن تشيد بهذا الانجاز الحضاري المتميز ومبدعه ، وتضحي سنويا على شرف تلك الامبراطورة الصينية في المعبد الذي أقيم لها ، وأهدي لها في العاصمة بكين . وتشير النصوص القديمة ان بلاد الصين عرفت فن صناعة نسج خيوط الحرير قبل حوالي ٥٠٠٠ سنة ، وقد انتقلت من بلاد الصين أسرار معرفة (الحرير من تربية دود القز) الى مختلف الاقطار الواقعة في غربي بلاد الصين . وكان الرومان يطلقون على الاقطار الواقعة وراء (نهر الفانج) اسم بلاد الحرير Seres

الحرير مادة بذخ وترف :

تميز الحرير بلونه الابيض الجميل الضارب الى الصفرة ، وخصائصه المتميزة (كالنعومة والمتانة وشبه الشفافية الجميلة الجذابة .. الخ ..) مما جعله مادة جميلة حرص الملوك القدماء وكبار الاغنياء من رجال ونساء على شرائها والظهور بها بمظهر الفنى

(طريق الحرير - طريق الحوار)

والترف والبذخ ، والجمال والوقار والاحترام . . في عصر كان فيه (ثمن الحرير بوزن الذهب) (٤) .

ومنذ القرن الاول الميلادي استخدم الحرير الصيني الجميل في صناعة الملابس الحريرية الجميلة (Sericae vestes) التي كانت مطلوبة كثيرا في روما عاصمة الامبراطورية الرومانية وسيدة العالم القديم ، في عصر تميز بتذوق جمال الضخامة والعظمة والاثارة الجمالية . . ولم تكن النساء وحدهن الراغبات في التدثر بالملابس الحريرية الجميلة والثمينة والنادرة لان الاباطرة وكبار الاغنياء كانوا ايضا يرغبون في ذلك للظهور بها بمظهر العظمة والجلال والوقار والاحترام . واثارة شعور التقدير والاعجاب بهم في نفوس الآخرين . وقد ورد في كتاب (تاريخ اوغست) ان الامبراطور (ايلاجبال) كان اول من ابدع عادة تدثر اباطرة روما بالملابس الحريرية الصافية ، فاعتبر بعضهم ذلك بمثابة تصرف غير مناسب للرجال Degradante .

وكانت ندرة الحرير وارتفاع ثمنه الباهظ مما كان يحول دون حياكة الاقمشة من خيوط حريرية صافية فقط ، لهذا كان الحائكون ينسجون الاقمشة من خيوط كتانية وقطنية مع خيوط حريرية ولكن بنسب مختلفة . وكثيرا ما كانوا يضطرون الى اعادة استخدام خيوط الاقمشة الحريرية الصافية المستوردة من الشرق . ومنذ القرن الثالث الميلادي بدأ التمييز الدقيق بين نوعين من الملابس الحريرية المختلفة كما يلي :

١ - ملابس قماشها من الحرير الصافي Vêtements de Pure soie أو Holo sericae vestas لم تكن عامة الانتشار ، بل كانت خاصة بالاباطرة وكبار الاثرياء قديما .

٢ - ملابس قماشها من خيوط كتانية وقطنية مع خيوط حريرية بنسب مختلفة Vêtements de Demi - Soie أو Subsericae vestas

وبعدما انتشر تذوق الحرير وصار استخدامه تدريجيا على نطاق واسع ، غدا الاشخاص من ذوي بعض الامكانيات المحددة يتدثرون بملابس من اقمشة من خيوط كتانية وقطنية مع خيوط حريرية بنسب مختلفة . . وغدا الحرير من اجمل الهدايا الرسمية الثمينة المقدمة في المناسبات الرسمية . وكان الامبراطور الروماني يحرص على اغتنام فرص المناسبات والاحتفالات والالعب . . ليقوم بتوزيع هدايا من ملابس حريرية وغيرها على من كان يستحق التكريم والتقدير .

صعوبة اجتياز طريق الحرير قديما :

كانت الفتن والاضطرابات التي يثيرها افراد قومية (شيونغنو القديمة) (٥) / (الهون) في الصين من اهم اسباب صعوبة اجتياز طريق الحرير قديما ، مما كان ينتج عن ذلك

خسارة وازمات اقتصادية لها نتائجها الخطيرة .. مما جعل الامبراطور (وودي ١٤٠ ق.م - ٨٧ ق.م) من اسرة (هان الغربية الملكية ، ٢٠٦ ق.م - ٢٢٠ م) يهتم بهذا الموضوع الخطير والهام . فارسل مبعوثا من قبله يدعى (تشانغ تشيان) مرتين الى اقطار اسيا الوسطى لمعالجة هذا الموضوع وذلك باجراء اتصالات مفيدة مع :

١ - دولة داروتشي القديمة (في شمالي نهر اموداريا) .

٢ - دولة ووسون القديمة (في حوض نهر ييلي في شمالي جبال تيانشان) .

وصل المبعوث الامبراطوري (تشانغ تشيان Zhang - Xian) الى اقطار عديدة مجتازا نحو ٥٠٠ كم في فترة تزيد عن عشر سنوات ، تجشم خلالها المتاعب وواجه الاخطار المختلفة ... ولكن بذكائه ودهائه واخلاصه وحرصه على حسن قيامه بمهمته استطاع ان يتعرف على مناطق مختلفة ، ويطلع على شؤونها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والسياسية ، ويلاحظ عادات سكانها وتقاليدهم الاجتماعية وكل ما يتعلق بهم . فكان في اكتشافاته بمثابة (كولومب) . وبعد عودته الى بلاده رفع تقريره الرسمي وتوصياته المفيدة الى الامبراطور (وودي) الذي هنأه على حسن اعداد تقريره ، وتبنى توصياته التي كان منها ما يلي :

- اقامة العلاقات الودية مع سادة تلك المناطق ، مما أسهم جديا في تسهيل عملية مرور القوافل التجارية في طريق الحرير عبر اراضيها بكل أمن واطمئنان وسلم .. سلام ..

- تأسيس اربع ولايات (هي : وودي ، تشاتفية ، جيوتشيوان ، دونهوانغ) فتحت ابوابها التجارية للعالم . اُضيف الى ذلك بناء اسوار الحراسة ، واقامة الابراج النارية للمراقبة والانذار ، وتنظيم جنود مرابطين فيها . يقومون بعملية اصلاح الاراضي ، واقامة دائرة خاصة للاشراف على هذه المناطق في غربي بلاد الصين نيابة عن السلطة المركزية .. الخ ..

- حسن الافادة من ممرين في شمالي (قانسو) في ضواحي محافظة او ولاية (دونهوانغ) في :

- يوغين ..

- يانفقوان ..

مما جعل القوافل التجارية تنطلق من (تشانغان) (٧) عاصمة اسرة هان الغربية الملكية في طريق الحرير مجتازة الولايات الاربع والممرين الهامين ، وكان هذا الطريق يتفرع الى :

١ - طريق فرعي جنوبي : يتجه نحو الغرب من شمالي جبال ارجين وكونلون ، مرورا بمناطق (تشيمو ، جينغجيوي ، خوتان ، بيشان ، شاتشة ..) الى أن يخترق

(هضبة البامير) ثم ينعطف جهة الجنوب الغربي الى اقطار شبه القارة الهندية (الباكستان والهند ...) او الى جهة الغرب حيث هناك مناطق شمال (نهر آموداريا) ومنه الى بلاد ايران فبلاد ما بين النهرين فبلاد الشام فالساحل السوري فاليونان فايطاليا فاقطار أوروبا ..

٢ - طريق فرعي شمالي : يتجه نحو جهة الغرب من جنوبي (جبال تيانشان) مروراً بمناطق (يانتشي ، وولي ، كوتشار ، آكسو ، كاشغر ...) حتى يخترق (هضبة البامير) حيث هناك مدن هامة ومراكز اقتصادية متميزة (مثل : فرغانة ، سمرقند ...) ، ثم ينعطف الطريق الى جهة الجنوب الغربي ليصل أخيراً الى بلاد ايران فبلاد ما بين النهرين فبلاد الشام فالساحل السوري فبلاد اليونان الى روما ...

وكانت طريق الحرير البرية تمتد وتتحرف وتتجه وتنعطف نحو المناطق التي توفر للقوافل التجارية في طريق الحرير الامن والامان والسلام والراحة والاستقرار ، والفعاليات والازدهار ... وهكذا كانت هذه القوافل التجارية تنطلق من بلاد الصين بلاد الحرير من مدينة (تشانغان Si - NGAN) في طريق الحرير البري عبر (ممر فوشي) الذي يفيد اسمه (ممر غربي النهر) ويشتهر باسم (ممر قانسو) التي جرت فيه معارك عديدة في سبيل الحفاظ على طريق الحرير مفتوحاً أمام القوافل التجارية . وكثيراً ما كان تجار الحرير ينقلون بضائعهم بواسطة القوافل التجارية حتى بلاد تركستان الى المدينتين الحدوديتين وهما : (كاشغر) و (خوتان) . ومن هناك ينطلق طريقان نحو بلاد الشام والساحل السوري الى عالم البحر المتوسط اما من جهة بحر قزوين او عبر نهر الفرات ..

وكانت مدينة (تشانغان Si - NGAN / مدينة شيان الحالية في مقاطعة شنشي) نقطة البداية في طريق الحرير ، اذ انها كانت عاصمة البلاد في عهد أسرة (هان الغربية الملكية ٢٠٦ ق.م - ٢٢٠ م) وأسرة (تانغ الملكية ٨١٦ - ٩٠٧ م) واذا كانت طريق الحرير البرية تمر بـ (Sogdiane) فان هناك طريقاً بحرياً للحرير كانت مراكبه تتجه الى (سيلان) لنقل الحرير وغيره الى المرافئ المختلفة في الخليج والبحر الاحمر وعالم البحر المتوسط . وكان طريق الحرير البري هاماً ايضاً ويمتد من شبه القارة الهندية المرتبطة بمناطق هامة (مثل باكتران ، كابول ...) ويتجه :

اما نحو مرافئ الخليج ، او نحو مرافئ شواطئ البحر الاحمر .

واذا كانت أسرة (هان الملكية الخامسة ٢٠٦ ق.م - ٢٢٠ م HAN) قد اتخذت كل ما يلزم لحماية امن وسلامة القوافل في طريق الحرير البري ، فان هذه السياسة الاقتصادية قد استمرت ايضاً في عهد الاسرتين الجنوبية والشمالية (٤٢٠ - ٥٨٩ م) ، وأصبح لطريق الحرير ثلاثة منطلقات من (شيان) ومن (شمالي قانسو) ، ومن (دونهوانغ) . واستمرت هذه السياسة الاقتصادية ايضاً في عهد أسرة (سوي ٨)

٥٨١ - ٦١٨ Souei) الملكية التي اهتمت بحماية طريق الحرير ، وأسست عددا من المراكز والنقاط الامنية في مناطق غربي بلاد الصين وقامت باتخاذ كل ما يلزم في سبيل تأكيد سلامة اصحاب القوافل التجارية على امتداد طريق الحرير . ولكن انهيار حكم أسرة (تانغ ٦١٨ - ٩٠٧ T'ANG) الملكية ، وضعف سيطرة الحكومة المركزية على شمالي غربي الصين ، وظهور سلطات محلية انفصالية أثارت الفتن والاضطرابات في المناطق الغربية وشمالي قانسو ... كل هذا قد أدى الى تراجع فعاليات التبادل التجاري على طريق الحرير البري ، وزيادة أهمية طريق الحرير البحري في اتصال الصين بأقطار العالم ، مما أسهم في مجيء أفواج الرحالة والتجار والمسافرين . وكان من تلك الرحلات المشهورة رحلة (ماركو بولو ١٢٥٤ - ١٢٢٣ Marco - Polo) ومشاهداته المختلفة التي ذكرها في كتابه ، فأسهمت في اطلاع الاوربيين على حضارة الصين الراقية .

المحافظة على اسرار فن تربية دود القز وصناعة الحرير :

منذ اكتشفت الامبراطورة الصينية (سي-لينغ-تشي) بذكاها ودقة ملاحظتها الذكية طريقة الحصول على خيوط الحرير من الشرائق ، أدرك سادة الصين أهمية هذا الاكتشاف ، ووجوب المحافظة على اسرار فن تربية دود القز وصناعة الحرير الفنية التي اشتهر بها الصينيون ، وأفادوا كثيرا من هذه الصناعة الفنية المتميزة اقتصاديا وتجاريا ... مما جعلهم يدركون وجوب المحافظة على اسرارها لضمان استمرار موردها الاقتصادي الهام ، ومتابعة سياستهم الاقتصادية المتعلقة باحتكار هذه الصناعة الفنية ، واتخاذ كل ما يلزم لاستمرار ازدهارها وحسن الافادة منها بتصدير منتجاتهم الحريرية الى أسواق العالم القديمة براً وبحراً ... كل ذلك جعل صناعة الحرير الفنية سرا من الاسرار العلمية والفنية الغامضة طيلة فترة طويلة من الزمن امتدت عدة قرون استطاع الصينيون القدماء خلالها أن يحتكروا هذه الصناعة الفنية ويفيدوا كثيرا من احتكارها والمحافظة على اسرارها . وبيع انتاجها بأسعار مرتفعة جدا بل بوزن الذهب . وهكذا جعلوا أهمية الحرير مثل أهمية الذهب والماس، وثنى الحرير بوزن الذهب .. مما يوضح مدى اهتمام سادة الصين باتخاذ كل ما يلزم من تدابير فعالة في سبيل حسن تنفيذ سياستهم الاقتصادية ، والمحافظة على اسرار هذه الصناعة الفنية واحتكار انتاج الحرير الثمين والنفيس . فكانت تدابيرهم فعلا فعالة ومجدية الى حد كبير ، وحققت لهم حماية هذه الصناعة الفنية واستمرار احتكارهم معرفة اسرارها ، وحسن الاتجار بمنتجاتها . وكان الرومان -كغيرهم من الشعوب القديمة- يجهلون كليا طبيعة الحرير ، واسرار صناعته حتى نحو عام ٥٥٥ م . وكان بعضهم يعتقد بأن الحرير يصنع من (زغب نباتي) وأن اصل الحرير نباتي ... الخ .. ودام هذا الاعتقاد حتى فترة (بوزانياس Pausanias) المؤرخ الجغرافي الاغريقي المشهور فأخذوا يشيرون الى الاصل الحيواني للحرير .. وكانوا يسمون البلاد الواقعة وراء نهر الفانج باسم (بلاد الحرير) مما يدل على أن اسم الحرير مصدره الصين . وكان الغرب

(طريق الحرير - طريق الحواد)

يجهل اللؤلؤ أيضا حتى العصر الهلنستي وغدا بعدئذ من البضائع التي تهتم بها قوافل طريق الحرير نتيجة انفتاح الغرب على الشرق منذ حملة (الاسكندر المكدوني) ..

واذا كان تصدير الحرير الصيني الى اوربا كان نسبيا متأخرا زمنيا ، فان حملات الرومان الحربية في اقطار الشرق وبخاصة في حوض الفرات جعلتهم على صلة مباشرة مع اقطار الشرق القديم وتحفه ونفائسه ورائع صناعاته الفنية منذ نهاية القرن الاول قبل الميلاد .

تسرب اسرار فن تربية دود القز وصناعة الحرير من الصين:

ورد في كتاب (المناطق الغربية) في عهد اسرة (تانغ ٦١٨ - ٩٠٧) الملكية ان دولة (تشويسادانا) في (خوتان/من شينجيانغ حاليا) كانت تجهل زراعة التوت وفن تربية دود القز وصناعة الحرير الفنية .. وقد ادرئ ملكها أهمية الحرير الاقتصادية ، فرغب في نقل هذه الصناعة الفنية الى بلاده للاستفادة منها .. فبعث موفديه الى (الدولة الشرقية / اي بلاد الصين) المتميزة بأشجار التوت ، ومواطنين مطلعين على فن تربية دود القز وصناعة الحرير .. ولكن ملك هذه الدولة الشرقية (اي الصين) رفض تلبية طلب ملك (تشويسادانا) ومنع خروج أشجار التوت وتسرب اسرار فن تربية دود القز من بلاده تحت طائلة العقوبات الصارمة .. مما أثار استياء ملك (تشويسادانا) (٩) الذي تفتق ذهنه بفكرة ذكية ماهرة تحقق له غايته ومأربه ، وتعتمد على مشروع زواج .

وبالفعل ، طلب ملك (تشويسادانا) يد أميرة من أميرات (الدولة الشرقية / اي الصين) وذلك بأجمل العبارات الادبية المنمقة والطرق الدبلوماسية مرفقة بأجمل الهدايا الملكية الثمينة والفاخرة .. فتمت موافقة الملك على مشروع زواج تلك الأميرة الفتاة الشرقية . وبعدئذ عهد ملك (تشويسادانا) الى مندوبه باعداد كل ما يلزم لحسن استقبال تلك الأميرة واعلامها سرا وبلباقة بانه ليس في دولة تشويسادانا حرير ، وان من المستحسن أن تحمل معها عددا من بيوض دود القز .. استجابت الأميرة الفتاة الشرقية بعد ما وثقت بالموفد الملكي المكلف بمساعدتها في السفر ، فوضعت بعض بيوض دود القز سرا في لباس رأسها .. وعندما مرت بمركز المراقبة والتفتيش على حدود بلادها لم يجرؤ أحد أن يفتشها ، وهكذا فقد تسربت للمرة الاولى اسرار فن تربية دود القز وصناعة الحرير الفنية خارج موطنها الاصلي . والجدير بالذكر أن عالما اثاريا غربيا عثر في عام ١٩٠٠ م في اطلال معبد قديم في (خوتيان) على اثر فني قديم يمثل مايلي :

— في الوسط : مشهد الأميرة الفتاة الشرقية بمظهر سيدة عظيمة وجميلة متدثرة بالملابس الفاخرة والتمينة ، ويعلو رأسها تاج فخم ، وقد وقف الى يمينها (رجل يحمل دولاب الغزل) .

— والى يسارها : يبدو ان هناك سلة مليئة بشرانق دود القز .. كما تبدو (خادمة) تشير بيدها اليسرى الى تاج هذه الاميرة الفتاة الشرقية كسيدة عظيمة .

مما جعل هذا الاثر الفني الهام المكتشف يمثل وصفا فنيا جميلا لحكاية تلك الاميرة الفتاة الشرقية وقصة زواجها وخروجها من بلادها الى بلاد زوجها في (تشويسادانا) ناقلة معها بيوض دود القز .. مما أسهم في تسرب اسرار فن تربية دود القز وصناعة الحرير الفنية خارج بلاد الصين .

— تسرب اسرار فن تربية دود القز وصناعة الحرير من الصين في العصر البيزنطي:

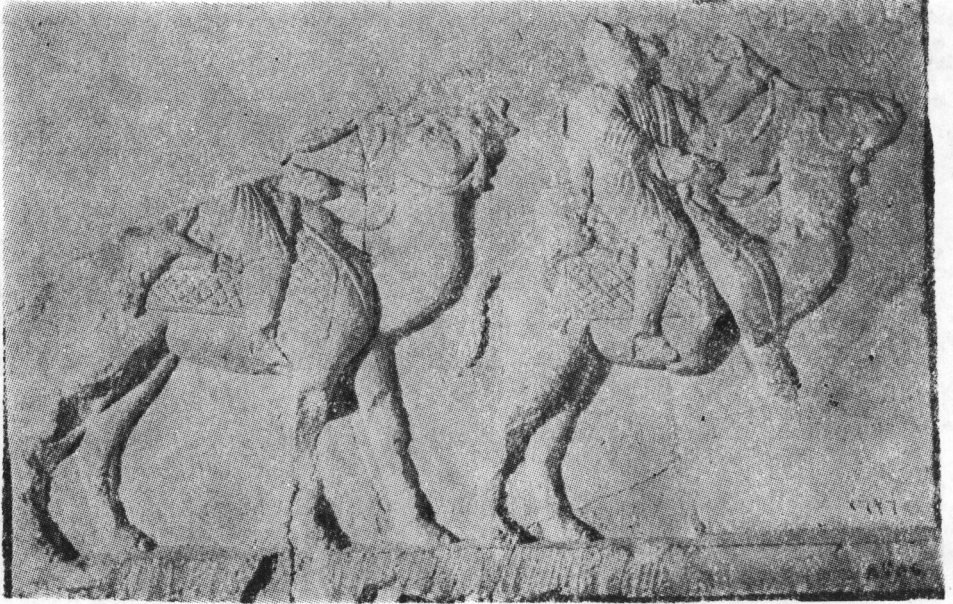
كان مرور القوافل التجارية في الاراضي الايرانية في طريق الحرير قد افاد بلاد وشعب ايران اقتصاديا بكبكية الاقطار التي يمر بها طريق الحرير البري العالمي . ولكن سوء العلاقات بين الفرتيين والرومان ، والساسانيين والبيزنطيين كان له نتائجه السلبية الخطيرة على القوافل التجارية عابرة طريق الحرير . فحاولت الامبراطورية البيزنطية تجنب ادعاءات الفرتيين ومزاعمهم وأطماعهم ، وذلك بتغيير طريق القوافل التجارية ، وعدم عبورها أراضي الفرتيين ومن بعدهم الساسانيين .. كما أعدت خطة الاعتماد على الصناعات المحلية . ويذكر المؤرخون قصة كاهنين (١٠) نستوريين تمكنوا من الإقامة فترة في بلاد الصين ، والاطلاع عن كذب على اسرار تربية دود القز وصناعة الحرير الفنية فيها . وعند عودتهما الى بلادهما أخفيا سرا في عصا كل منهما المجوفة عددا من بيوض دود القز .. فكانت بداية تسرب اسرار فن تربية دود القز وصناعة الحرير من الصين الى الامبراطورية البيزنطية التي حققت من ذلك مايلي:

١ — التحرر من احتكار الصين اسرار فن تربية دود القز وصناعة الحرير الفنية.

٢ — التخلص من مضايقات الفرتيين ومن بعدهم الساسانيين للقوافل التجارية عابرة طريق الحرير في الاراضي الخاضعة لنفوذهم .

٣ — ظهور بداية صناعة الحرير الفنية الجديدة في الامبراطورية البيزنطية (في سورية .. وغيرها ..) أسهمت في الازدهار الاقتصادي الوطني . والجدير بالذكر ان شهرة منطقة (بيلوبونيز Peloponnèse) بأشجار التوت Murier وتربية دود القز جعلها تعرف منذئذ باسم بلاد (موره Morée) (١١).

٤ — تزايد القادرين على التدثر بالملابس الحريرية المختلفة بعدما كان ذلك مقتصرا على الملوك والامراء وكبار الاغنياء وكانت حياة البذخ والترف في القصر الامبراطوري موضوع هجوم شديد ونقد عنيف من قبل (يوحنا فم الذهب) الذي اشار الى ثوب الحرير الامبراطور (تيودوسيوس ٤٠٨-٤٥٠) يزينه وحشان متقابلان مطرزان ..



منحوتة تدمرية تمثل (هجائين تدمريين) تزودنا بمعلومات هامة عن القوافل

التجارية التدمرية ، وإبلهم وكل ما يتعلق بها .

(محفوظة في المتحف الوطني بدمشق رقمها ٨٣٨٢/٣٦٣٦)

والجدير بالذكر ان بعض المؤرخين ينسب للامبراطور نجاح تسرب أسرار صناعة الحرير من الصين الى البيزنطيين الى خطة الامبراطور (جوستنيان ٥٢٧ - ٥٦٦) الذي عهد بالمهمة الى الراهب (بارصوما Jean Barsames) . وكان الرهبان يفدون الى بلاد الصين في عهد (جنكيز خان ١١٦٢ - ١٢٢٧) وأبنائه ، وكان بعضهم يسعى الى تحقيق تحالف بين المغول وفرنجة أوروبا ضد العرب والمسلمين .

من الاقطار المهمة بتشجيع صناعة الحرير المحلية :

— اسهام العرب في ازدهار صناعة الحرير وانتشارها : كان من نتائج انتصار جيش العرب المسلمين على جيش القائد الصيني (كاو - سين - تشي Kau - Sien - Tche) قرب (Talas) في (Transoxiane) سقوط عدد من الجنود الصينيين اسرى في يد العرب المسلمين ، أسهموا في نشوء صناعة الحرير في البلاد العربية والاسلامية ، ويذكر بعضهم أسماء عدد من أولئك الاسرى الصناع الفنيين (مثل : Yo - Houan , Tou-Houan و Lu - Li) الذين كانوا من (Ho - Tong) في (شنسي Chans) .

وعندما قام القسيس الالماني (لودوف فون سوخم) برحلته الى بلاد الشام، والاراضي المقدسة عام ١٣٣٦ - ١٣٤١ تحدث عن طرق مدينة عكا المظلة بالحرير المنسوج وبسواه من الاقمشة الاخرى وذلك تجنباً لشدة أشعة الشمس صيفا في بلاد الشام. وغدا الحرير السوري في رأس قائمة المنتجات السورية في العصر العثماني. وكان السوريون منذ مدة بعيدة قد سيطروا على تجارة الحرير .

— تربية دود القز ونشوء صناعة الحرير في صقلية : وشهدت صقلية في عهد

ملكها (روجر الثاني ١٠٩٣ - ١١٥٤ Roger II) اهتماما خاصا بزراعة أشجار التوت وتربية دود القز وصناعة الحرير في العاصمة (باليرمو Palermo) التي انتقلت منها أسرار هذه الصناعة الفنية الى عدد من اقطار اوروبا وبخاصة فرنسا واسبانيا . .

— تربية دود القز ونشوء صناعة الحرير في فرنسا : ازدهرت صناعة الحرير

في فرنسا ، واهتم الملك (لويس الحادي عشر ١٤٦١ - ١٤٨٣) بموضوع زراعة أشجار التوت وتربية دود القز ونشوء صناعة الحرير . وقد جعل مدينة (تور Tours) مكان ازدهار زراعة أشجار التوت وتربية دود القز . وكانت منطقة (بروفانس Provence) قد أفادت من تجربة صقلية بهذا الموضوع . وأخذت شهرة مدينة (ليون) الفرنسية بالحرير في القرن السادس عشر تزداد . وفي عهد الملك (هنري الرابع ١٥٨٩ - ١٦١٠) تألق نجم الزراعي (أوليفيه دوسير Olivier de Serre) الذي ساعد ملكه في مشروع زراعة نحو عشرين ألف غرسة توت . واشتهرت حديقة التويلري (Tuileries) بأغراس التوت ، كما اشتهرت بصناعة الحرير الفنية كل من مدن (ليون) و (مونيبيليه Montpellier) و (باريس) .

(طريق الحرير - طريق الحوار)

– **تربية دود القز ونشوء صناعة الحرير في اسبانيا :** بفضل جهود العرب والمسلمين ازدهرت زراعة أشجار التوت وتربية دود القز وصناعة الحرير في اسبانيا وبخاصة في المدن الاندلسية (مثل غرناطة ، وطليطلة ، واشبيلية ، وفالنسيا (Valence) .

وصول الاهتمام بصناعة الحرير الى انكلترا في القرن السابع عشر : واهتم الشعب الانكليزي بنشوء صناعة الحرير الفنية في انكلترا في القرن السابع عشر لاهميتها الاقتصادية ولتلبية المتطلبات الاجتماعية .

اثر الاحداث في فعاليات طريق الحرير :

شهدت تجارة الحرير الدولية ازدهارا كبيرا في عهد امبراطورية (جنكيز خان ١١٦٢ – ١٢٢٧) الممتدة من الدانوب حتى منشوريا ، ومن جيورجيا حتى كوريا ، ومن بلاد ما بين ما بين النهرين حتى الصين الجنوبية ، وخلفه ابنه (اوغوداي Ogoday) ومن بعده (قوبيلاي Kubilay ١٢٦٠ – ١٢٩٤) الذي حضر موغده (مؤتمر ليون) عام ١٢٧٤ . وكان الكثيرون يتحدثون عن امبراطورية (جنكيز خان) وحزمه ، أو دقة ادارته . ويذكرون بعض التفاصيل مثل توفر نحو ثلاثمائة الف حصان في المحطات على امتداد طريق الحرير التي كانت تفصلها عن بعضها مسافة ثلاثة أميال . الخ مما يؤكد مدى الاهتمام بسلامة طريق الحرير . فكان لانهايار امبراطورية جنكيز خان اثره على فعاليات طريق الحرير .

– اسهام تحسين وسائل الملاحة البحرية في تنشيط فعاليات طرق التجارة الاوروبية عبر البحار :

كانت ثروات الشرق وفعالياته الاقتصادية تثير اطماع الغرب ، مما يفسر حملة القائد الروماني (مارك انطوان ٨٣-٣٠٠ ق م) لسلب ثروات تدمر لمتابعة حملاته الحربية ضد أعدائه وخصومه ، وحملة القائد الروماني (ايليوس جالوس Aelius Gallus) الفاشلة الى بلاد العرب لاكتشاف طرق التجارة البرية الدولية والسيطرة عليها . واستمرت سياسة اوروبا الاقتصادية في سبيل الحصول على ذهب السودان ، وتوابل الهند ، وحرير الصين المادة النفيسة والثمينة المطلوبة كثيرا من قبل الاباطرة والملوك والامراء وكبار الاغنياء . . وقد اسهم تحسين وسائل الملاحة البحرية في تنشيط فعاليات طرق التجارة الاوروبية عبر البحار . وقد تحققت رغبة اوروبا في البحث عن طريق الحرير المستقل والمباشر الى اسيا في عصر الاكتشافات المتميزة وذلك بفضل تقدم الملاحة الاوروبية .

– تدمر مدينة القوافل التجارية ومحطة طريق الحرير الرئيسة :

تدين تدمر بوجودها الى ابارها ومياه نبعها وسعة واحتها الخضراء التي تزهو بأشجار النخيل والزيتون والرمان .. وتضفي جمال الخضرة على مكان يبدو كبحر من الرمال الذهبية اللون الا محدودة الاتساع والرؤية البصرية .. مما يجعل واحتها كالزمردة الخضراء وسط بادية الشام ورمال الصحراء .

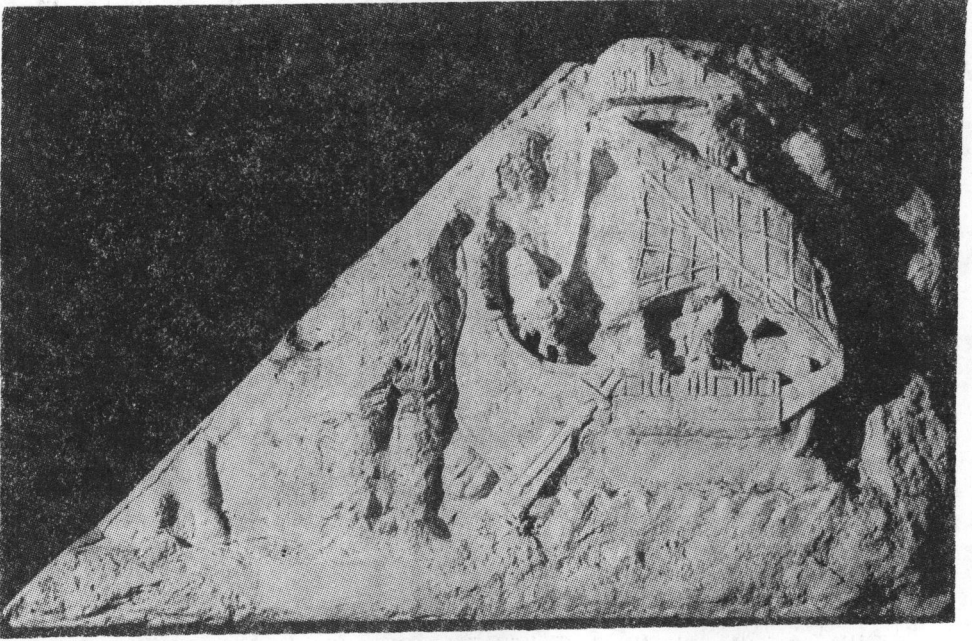
كما تدين تدمر بازدهارها الاقتصادي الكبير الى حسن موقعها على طريق تجاري غدا فيما بعد طريق الحرير الدولي البري الممتد من الصين حتى روما عبر أقطار الشرق القديم (كالصين وتركستان وأفغانستان والهند وباكستان وإيران وبلاد ما بين النهرين وبلاد الشام .. وأقطار الغرب (مثل : اليونان وإيطاليا ..) . وهكذا كان طريق الحرير يمر بمدن ووحدات مختلفة (شيان – لانتشو – وو – وي – دونهوانغ – تورفان – كوتشه – زوتشيانغ – مينغونغ – خوتيان – شاتشة – كاشي – بيشاو – باميان – وزيرآباد – سمرقند – مارو – دامغهان – طهران – همدان – بغداد – تدمر – دمشق – بيروت – انطاكية – استانبول – روما – البندقية .. الخ .

وكان موقع تدمر المتميز في قلب بادية الشام في منتصف الطريق بين مدن حوض الفرات شرقا ومدن الساحل السوري غربا .. وفتح حوض الفرات للتجارة العالمية والقوافل التجارية .. مما جعل (طريق الحرير العالمي عبر تدمر) هو الطريق الأقصر مسافة ، والأكثر سهولة ، والأفضل عبورا ومرورا ، والأكثر أمنا وسلامة للقوافل التجارية وأصحابها التجار .. وكان هذا (الطريق التجاري البري الدولي) يتفوق أهمية على (طريق الحرير البحري) الذي كان يمر عبر البحر الأحمر ، ويزدهر أو يتخلف أو يهجر كليا أو جزئيا تبعا للظروف المختلفة .. مما جعل المرافئ على البحر الأحمر (مثل حوارة Leuké - Kome .. وغيره ..) تتأثر اقتصاديا الى حد كبير تبعا للتطورات والمتغيرات المختلفة . وتتأرجح بين الازدهار الاقتصادي والازمات المالية والاقتصادية المختلفة .. وهكذا فقد كان (طريق الحرير البري الدولي عبر تدمر) قادرا على المنافسة المضمونة والاكيدة والرابحة والمنحصرة على (طريق الحرير البحري) . لهذا كله كان (طريق الحرير البري الدولي عبر تدمر) يبدو بمثابة أكبر شريان لفعاليات التجارة الدولية عصرئذ ، أسهم في جعل تدمر تسود التجارة الدولية وطريق الحرير البري .

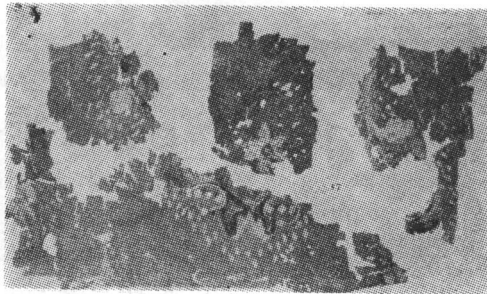
وبعدما كانت تدمر شبه مقفرة ، يعاني فيها الانسان ويكافح قساوة الطبيعة وبرودتها ليلا في الشتاء ، وحرارتها نهارا في الصيف ، ويبتهج بانتظار القادمين والقوافل

(طريق الحرير - طريق الحوار)

القليلة ... أصبحت تدمر محطة شبه اجبارية للقوافل التجارية المتجهة من الشرق الى الغرب وبالعكس ، تفيد من حسن موقعها على طريق الحرير ، وتوفر المياه فيها لافراد القوافل وابلهم ... كما تفيد من رسوم الخدمات المختلفة التي تقدمها اليهم .. مما جعل تدمر بمثابة المحطة الرئيسة للقوافل التجارية ومخزنا لبضائعها المختلفة ..



منحوتة تدمرية تمثل أحد مراكب الاسطول التدمري في الخليج (محفوظة في متحف تدمر)



نماذج من المنسوجات الحريرية الجميلة المطرزة المكتشفة في مدافن تدمر
(محفوظة في المتحف الوطني بدمشق) .

وكانت شهرة السوريين (١٢) في ميادين الاقتصاد والتجارة الداخلية والخارجية، ومهارتهم وخبراتهم ورحلاتهم وفعالياتهم مما يوضح اسهام التجارة في ازدهار تدمر بسرعة ، ودورها في تنشيط فعاليات التجارة الخارجية الدولية في عصر كانت فيه القوافل التجارية تهتم بكل ما أبدعه الفنانون التطبيقيون والصناع الفنيون من نفائس وتحف وطرائف وروائع فنية .. كان يتهافت على اقتنائها الاباطرة والملوك والامراء وكبار الاغنياء . وكانت هذه المنتوجات الجميلة النفيسة والشمينة والنادرة تشكل المواد الهامة في عمليات التبادل التجاري وفعالية حركة التجارة الخارجية الدولية عصرئذ .

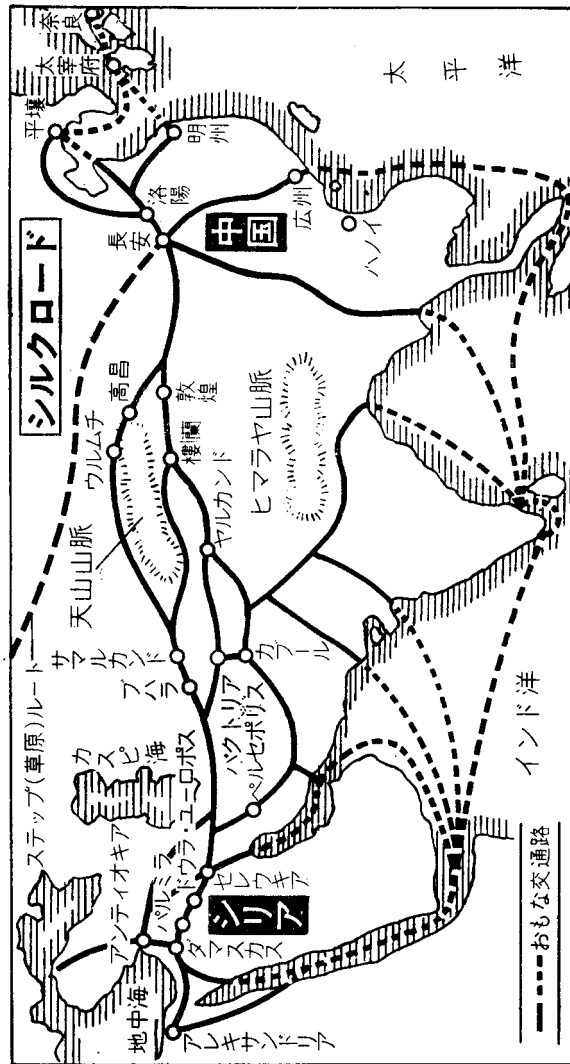
وكان دور التدمريين في حسن تنظيم رحلات هذه القوافل التجارية (١٤) ورعايتها وحمايتها وتسهيل مهماتها وتقديم الخدمات المختلفة اليها والاسهام في فعاليات الاقتصاد والتجارة الخارجية الدولية .. كل ذلك قد اسهم في ازدهار تدمر بسرعة وجعل التدمريين من كبار التجار الاثرياء ، وغدت مدينتهم تدمر بمثابة أكبر مركز تجاري متميز ، ومحطة هامة للقوافل التجارية في طريق الحرير البري الدولي . وكان تعاونهم فيما بينهم وفق تقاليدهم المحلية المتعارفة ، ومساواتهم وتعلقهم بمبادئهم .. كل ذلك جعل تدمر تبدو بمثابة عاصمة جمهورية اغنياء التجار وأمرء القوافل التجارية وسادتها ، تعتمد على موارد التجارة والرسوم من القوافل التجارية التي كانت بكثرتها تبدو لبعضهم بمثابة جدول متتابع لا ينقطع ... مما أكد اسهام تدمر في نمو التجارة الخارجية الدولية .

وكانت مكانة تدمر التجارية والادارية والسياسية ، وفعاليات التدمريين الاقتصادية والتجارية وسياستهم الدولية القائمة على التوازن الدقيق والذكي بين الامبراطوريتين الكبيرتين الفرتية والرومانية قد حققت لتدمر مكاسب عديدة مفيدة وجديدة أهمها :

١ - حسن ادارتها وتنظيمها حركة القوافل التجارية (١٤) في طريق الحرير البري الدولي عبر تدمر ، والاهتمام بكل ما يتعلق بها وبحمايتها وسلامة تجارها بفضل فرقها المقاتلة المؤقتة والدائمة الثابتة والمتحركة والمراقبة .

٢ - توسيع فعاليات التدمريين التجارية في الخليج وبخاصة في (خرقيدونيا Characène) ومكاتبهم في (خرقس Spinou charax) في شمالي الخليج ... وصلاتهم بمراكب الهند ، وبناء أسطور تدمري يلبي المتطلبات التجارية ... ووصول فعاليات تدمر الاقتصادية حتى الصين .

٣ - تمتع التدمريين بنفوذ كبير في مناطق بعيدة عنها كانت تسيطر عليها الامبراطورية الفرتية (في Vol Gesiade) في عصر بدت فيه تدمر وكأنها (سيدة



خارطة طريق الحرير والمحطات الرئيسية من الصين حتى البحر المتوسط

التجارة الدولية وطريق الحرير البري الدولي) ... مما يدل على مدى نجاح السياسة التدمرية الدولية ودبلوماسيتها الذكية والحكيمة ، وحرصها على حسن توثيق علاقاتها الدولية مع كل من الامبراطورية الرومانية والامبراطورية الفرثية ، أضف الى ذلك حسن علاقاتها الدولية مع (Mésène) (١٦) و (Susiane) وغيرها ...

٤ - ازدهار الاقتصادي السريع الذي جعل تدمر بمثابة عاصمة البذخ والترف والفنى والرفاه والسلام والاحلام .. مما أسهم في ازدهارها وتقدمها وتطورها في مختلف ميادين الحياة (العمرانية والمعمارية والفنية والاجتماعية والثقافية والمعنوية والمادية .) كما أسهم ازدهارها الاقتصادي في تزايد عدد سكانها والعاملين فيها والمتجهين اليها وتنوع فعاليتهم الاقتصادية والثقافية والاجتماعية .. وازدادت ثروات تجارها ومواطنيها ، وظهرت ضرورة سك نقود تدمرية محلية لتلبية المتطلبات الاقتصادية وعمليات التبادل التجاري ... أضف الى ذلك تزايد الطرق المتجهة اليها والمنطلقة منها ... وان اكتشاف أحجار المسافات يوضح مدى تزايد أهمية تدمر وظهورها كعقدة طرق المواصلات الهامة ...

٥ - حسن انفتاحها الحضاري على آفاق العالم الخارجي بعدما وصل طريق الحرير البري الدولي واحتها ببقية واحات طريق الحرير ...

٦ - ان مهارة التدمريين الدبلوماسية والسياسية الذكية أثارت اعجاب الرومان بهم ، فعهدوا اليهم بكثير من المهمات الهامة في مناطق كان التدمريون يتمتعون فيها بنفوذ كبير وهي خاضعة للسيطرة الفرثية .

كما ان مهارة التدمريين في الرماية والقتال جعلتهم في طليعة الرجال المقاتلين الذين كانت باديتهم بمثابة ملعب رياضي كبير يمارسون فيه فنون رياضة الفروسية والرماية والصيد .. فأفادت منهم الامبراطورية الرومانية في القضاء على الفتن والاضطرابات والخصوم والاعداء في اسيا وافريقيا وأوروبا .. مما يدل على الامكانيات والطاقات الكبيرة والتميزة التي كان يتمتع بها التدمريون في العصر الروماني .. وذلك بفضل بيئتهم التي نشأوا فيها ومنطقتهم الواسعة التي حققت لهم الاستقلال وتعذر على الرومان وغيرهم السيطرة عليها او التحكم فيها لخصائصها المتميزة .. أضف الى ذلك مؤهلات التدمريين القتالية بالفطرة وقدرتهم على تحمل المشقات والمصاعب والمتاعب والجوع والبرد والحر .. وخبراتهم في الرحلات والغزوات معتمدين على (الجمل) الذي كان فعلا بمثابة (سفينة الصحراء) اذ يمكنه حمل اثقال لمسافات بعيدة وفي ظروف بيئية صعبة تهلك فيها الخيول والبغال جوعا وعطشا وتعبا .. في حين أن الجمل يقتصر غذاؤه على نباتات شوكية جافة في الصحارى .

وان الكتابات الاثرية المتعلقة بشخصيات تدمرية بارزة (مثل Saodos وأوليبوس يرحاي .. الخ) تدل على مدى تكريم مجتمعهم والباطرة لهم مكافاة لهم على ما قدموه من خدمات لرجال القوافل في تدمر وخارجها وبخاصة في الخليج .. ويتجسد هذا التكريم في اقامة التماثيل لهم وتدوين عبارات التقدير لهم والاعجاب بمآثرهم المتميزة ..

٧ - تأكيد دور تدمر السياسي والاقتصادي في عهد اذينة وزنوبيا في عصر تزايد فيه ضعف الامبراطورية الرومانية . فاذا كانت كتابات (بليني القديم ٢٣م - ٧٩م) و (آبيان Appien) تعبر عن أهمية تدمر المستقلة ، فان سياسة روما في سبيل التسرب الاقتصادي والسيطرة السياسية تدريجيا منذ حملات الامبراطور تراجان في بلاد ما بين النهرين وعهد الامبراطور (تيريوس) .. كان لها أثر كبير في محاولات الحاكم الروماني التدخل في شؤون تدمر . ولكن الامبراطور (هادريان) أدرك أهمية تدمر وطاقتها وامكاناتها وميادين الافادة منها ، وتمتعت تدمر بامتيازات مختلفة في عهود الباطرة السوريين السيفريين .. وعلى هذا فقد بقيت تدمر موضوع القلق الاهم لكل من الامبراطورية الفرثية والساسانية ، والامبراطورية الرومانية .. مما يفسر سياسة شابور واستيلاءه أخيرا على مملكة (خرقيدونيا Characène) في الخليج ، وقضاء الامبراطور (اورليان) على مملكة تدمر في عهد ملكتها زنوبيا .

٨ - تدل المنحوتات التدمرية على جمال ملابس التدمريين والتدمريات الحريرية ذات الثنيات الجميلة المناسبة كخيوط مياه الجداول او الشلال .. المتحركة بانحناءات تشبه أمواج المياه .. تزينها مطرزت جميلة متميزة بالدقة والذوق الفني والتكوينات الفنية ذات القيمة الجمالية والرمزية .

وتدل بقايا الملابس الحريرية المكتشفة في مدافن تدمر (مدفن ايلابيل، جامبليق.) على مدى توفر مادة الحرير في تدمر في عصر كان فيه الحرير نادرا جدا في أوروبا واثمينا ونفسيا يحرص الملوك والباطرة والامراء وكبار الاغنياء على اقتنائه والتفاخر به ..

٩ - كانت اعادة تشييد معبد بل عام ٣٢ م تعتبر بمثابة نقطة تحول في تاريخ العمارة التدمرية المحلية ، وان المباني الجميلة المختلفة (المعابد ، المسرح ، الساحة العامة ، مجلس الشيوخ ، الحمامات ، القصور .. مستودع القوافل .. المتاجر .. الشوارع الرئيسي وأروقته ، القوس المربع (تترابيل) .. الخ التي شاهدها تدمر تجسد ذلك الازدهار الاقتصادي وأهمية تلك النشاطات الاقتصادية المختلفة . وقد تحدث المؤرخون على أهمية المباني الجميلة لتي كانت تزين منطقة الساحة العامة والتي كانوا يطلقون عليها اسم Tetradeion .. مما يجسد الرفاه والترف والبذخ وتذوق جمالية الضخامة ، ويؤكد أهمية (العمارة كمرآة حضارة) وجمع فنون جميلة وتطبيقية مختلفة ..

والخلاصة : مما تقدم تبدو أهمية دراسة (طريق الحرير وتدمير مدينة القوافل التجارية) . فإذا كان الصينيون ابتكروا هذا الانجاز الحضاري ، واحتكروا صناعة الحرير عدة قرون ، واحتفظوا بأسرارها مدة طويلة ، فإن أسرار هذه الصناعة الفنية قد تسربت خارج الصين وأصبح المجتمع الانساني في مختلف أقطار العالم يتمتع بما ابتكره الشعب الصيني من أقمشة حريرية متميزة أسهمت في تطوير الذوق الفني والازدهار الاقتصادي والحياة الاجتماعية . وازدهرت المناطق التي كان يمر بها طريق الحرير ، وحدث تفاعل حضاري كبير بين سكان اقطار متباعدة جغرافيا وتاريخيا وثقافيا ، وأنشأ علاقات اقتصادية مهدت لظهور علاقات سياسية واجتماعية وثقافية مختلفة . وكانت رحلة (ماركوبولو) وغيره قد أسهمت جديا في اغناء المعلومات ونشر الثقافة والمعرفة التاريخية والجغرافية المتعلقة بأقطار شرقية كانت مجهولة أو غير واضحة لدى الكثيرين . وصار للحرير مشاغل ومعامل وفنانون وعمال فنيون وتجار وأسواق تجارية ومهن مختلفة متفرعة عن صناعة الحرير الفنية . وان تدمير التي أفادت كثيرا من طريق الحرير وأسهمت في حماية هذا الطريق وسلامة رجال القوافل التجارية وقدمت خدماتها المختلفة اليهم . . وأفادت من الرسوم التي كانت تجبها منهم بموجب نصوص القانون المالي في ١٨ نيسان ١٣٧م ، وأسهمت في نمو التجارة الدولية والحضارة الانسانية والازدهار الاقتصادي . . واجهت خطر (شابور الاول (١٧) ٢٤١ - ٢٧٢) الذي استولى على مملكة (قرخيدونيا Characène) وقضى على المنفذ البحري وميدان فعاليات التدميرين الاقتصادية في الخليج . . كما واجهت تدمير خطر الامبراطور (اورليان ٢٧٠ - ٢٧٥) الذي قضى على مملكة تدمير في عهد زنوبيا . وهكذا قضت الحروب العدوانية على مسيرة نمو الازدهار الاقتصادي والتقدم الاجتماعي والاشعاع الثقافي وبدأت تدمير بأطلالها تتحدى قوة الفناء وتصر على الحياة والبقاء وتحدث بصوت الصمت ولغة الفن عن ذلك الازدهار والسمو والاشعاع يوم كانت تدمير عاصمة الفعاليات الاقتصادية والترف الاجتماعي والتطور الحضاري والامن والسلام والهناء والاحلام .



الحواشي :

- (١) تشانغ رونغ فانغ : طريق الحرير (بناء الصين - ص ٤٨) .
- (٢) المعرفة - العدد ٩٢ ص ١٤٦٣ .
- (٣) Thomas de Galiana : Dictionnaire des Découvertes Scientifiques. L18 Larousse Paris 1968 p. 152.
- (٤) Pierre Grimal : La vie A Rome dans L'antiquité P. U. F. p. 159.
- (٥) بي شيا ونينغ : على طريق الحرير القديم (بناء الصين - ص ٥٢) .
- (٦) تشانغ رونغ فانغ : نفس المرجع ص ٤٨ .
- (٧-٩) تشانغ رونغ فانغ : نفس المرجع ص ٤٩ .
- (١٠) ستيفن ونسيان : الحضارة البيزنطية (الالف كتاب - مكتبة النهضة المصرية ١٩٦١ ص ١٩٧) .
- نورمان بينز : الامبراطورية البيزنطية - القاهرة - لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥٧ ص ٢٧٧ .
- م. ب. تشارلز ووث : الامبراطورية الرومانية (الالف كتاب) - دار الفكر العربي ١٩٦١ ص ١٥٣ .
- (١١) D. Talbot Rice : Byzantine art (Pelikan books) 1962 p. 197.
- Thomas de Galiana : p. 152.
- (١٢) نعيم فرح : أضواء على الصناعة والتجارة في مدن بلاد الشام ودورها في التجارة العالمية في العهد البيزنطي (دراسات تاريخية العدد ١٥-١٦ كانون الثاني - أيار ١٩٨٤ ص ١٥٩) .
- فيليب حتي : تاريخ سورية ولبنان وفلسطين (ترجمة حداد ورافق) - دار الثقافة في بيروت - الجزء الاول ص ٣٢٨ ، ٤٣٣ ، ٤٣٤ .
- ستيفن ونسيان : نفس المرجع ص ١٩٧ .
- (١٣) E. Cumont , les Fouilles de Doura - Europos 1926 p. XXXIII.
- (١٤) Starcky, Gawlikowski : Palmyre وزارة الثقافة - تدمر والتدمريون - Librairie D'Amérique et L'orient Paris 1885 p. 73 et s.
- (١٥) E. will : Marchands et chefs de caravanes à Palmyre (Syrian 1957 p. 262 et s.
- (١٦) H. Seyrig : Rapports de Palmyre avec Mésène , La Susiane (Syria 1941 p. 252 et s.
- (١٧) بشير زهدي : في تاريخ تدمر . . (مجلة العرفان - العدد ٥ - المجلد ٦٥ أيار ١٩٧٧ ص ٤٣٨-٤٣٩) .

محاولات المفل السيطرة على طريق الحرير

(اسباب ونتائج)

د. نعمان محمود جبران
جامعة اليرموك

يرجع اتصال الشرق بالغرب الى عصور قديمة ، وقد تم هذا الاتصال بالطريق البري والبحري . ويمكن تتبع الاتصال البري بين الشرق والغرب من ٢٠٠٠ ق.م حتى بداية التاريخ الميلادي ، حيث أصبح بالامكان تحقيق اتصال بري من الصين الى شرق البحر المتوسط مروراً بوسط آسيا . وقد بقيت هذه الطرق وسيلة الاتصال بين عوالم مختلفة حضارياً ، وشهدت تطورات عدة ، وانتقل عبرها سلع متعددة كان من بينها الحرير الذي أضفى اسمه على هذه الطريق .

ويمكننا القول ان التجارة البرية البعيدة ، وكذلك الاتصال البحري ، مر بالفترات التالية (١) :

- عهد أسرة هان الصينية والبارثيين والرومان حتى بداية العهد المسيحي .
- عهد أسرة تانج الصينية والخلافة العباسية في فترة قوتها .
- عهد امبراطورية المفل بعد سنة ١٢٥٠ م
- عهد السيطرة والثورة البحرية الاوروبية في القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين .

وهذا الطريق تنازعت عليه قوى مختلفة ، فتارة يخضع لاحتكار ايراني (٢) لاهم الاجزاء منه ، وتارة تحاول روما البحث عن طريق بديل يخلصها من السيطرة الفارسية (٣) ، ومع بدايات المد الاسلامي وتوسع الدولة العربية الاسلامية نلمح ازدهارا وسيطرة شبه كاملة على الطرق التجارية التي تربط الشرق بالغرب ، ويبدو أن ذلك كان اكمالاً لاتصالات عربية ببلاد جنوب شرق آسيا ، وفي خلال هذه الفترة لعب العرب المسلمون دور التجار والرحالة والوسطاء بحيث أن معظم انتاج بلاد الشرق كان لا بد ، قبل ان يصل الى اوربا ، من ان يمر بمصر وبلاد الشام لينتقل عن طريق البحر المتوسط (٤) ، كما شهدت هذه الفترة تزايداً اسلامياً في المراكز التجارية على موانئ الصين وفي داخلية القارة الاسيوية (٥) .

دراسات تاريخية ، العددان ٣٩ و ٤٠ ، كانون الاول ١٩٩١

ونظرا لاشتداد حدة الصراع والتنافس على الطريق البري ازدادت أهمية الاتصال البحري مع الهند والصين ، وقد قام البحر الاحمر والخليج الفارسي بدور محوري في ذلك ، واصبح الطريق البري ثانويا حتى ان الاوروبيين لم يسلكوه ، واكتفوا بحصولهم على ما يريدون من بضائع عن طريق سورية ومصر (٦) .

ان استمرار الصراع حول طرق الاتصال بين الشرق والغرب وما رافقه من اضطرابات سياسية وعسكرية لم تلغ هذه الطرق ، ولكنها كانت تشجع ازدهار طريق اتصال على حساب اخر ، فتارة يزدهر الطريق البحري على حساب الطريق البري، الا أن الامر الذي لم يحصل هو وقوع هذه الطرق تحت سيطرة قوة سياسية واحدة، ولكن التطبيق الفعلي لمحاولة السيطرة على هذا الطريق بدأت مع التوسع المغولي .

ينطلق هذا البحث من أن المغول ، وفي فترة من فترات تاريخهم ، فكروا باقامة دولة عالمية كان من أهدافها السيطرة على الطريق أو جسر التواصل بين الشرق والغرب (طريق الحرير) ، وهذا المشروع كان يهدف الى السيطرة على العوالم الحضارية البيزنطية والعربية الاسلامية والمسيحية الاوروبية (٧) . وعلى اعتبار ان التطبيق الفعلي للمشروع المغولي قد بدأ في القرن الثاني عشر الميلادي ، كان لا بد من تبين بايجاز القوى السياسية والقبائل التي كانت تسيطر على اسيا والتي يمر منها طريق الحرير من مبتداه في الصين حتى نهايته أو طرفه الغربي على البحر المتوسط ، وتتمثل في اسرة كين (١١١٥ - ١٢٣٤) التي تسيطر على الاجزاء الشمالية من الصين ، واسرة سونج (٩٦٠ - ١١٢٧ م) التي تسيطر على الاجزاء الجنوبية منها ، تليها مجموعات من الاتراك الاويفوريين وهي جماعات شبه متمدينة سيطرت على شمال شرق تركستان وقامت بدور الوسيط بين الاقوام المتحضرة من الايرانيين والصينيين والهنود (٨) ، ثم جماعات القراخانيين (٩) ، والذين استطاعوا ان يكونوا اشبه بالدولة الحاجزة بين المغول والدولة الخوارزمية (١٠) ، التي سيطرت على مناطق ما وراء النهر وكانت دولة ثنائية الثقافة عربية - فارسية ، كما وجدت قوى كان لها نفوذ في مناطق ايران مثل الاسماعيليه ، والعباسيين في العراق ، وسلاجقة الروم في اسيا الصغرى ، والدولة البيزنطية ، ثم الايوبيين في مصر والشام ، والامارات الفرنجية على سواحل بلاد الشام، علاوة على القوى التجارية الإيطالية في أكثر من منطقة مما سبق ذكره .

من توزع هذه القوى واختلافها يتبين كبر حجم المشروع المغولي في السيطرة على طريق الحرير ، اذ كان لا بد للمغول من اخضاع هذه القوى أو تحييدها ، أو ضمان تبعيتها ليكون بمقدورهم بسط السلطة الوحيدة على هذا الطريق .

وسيعالج البحث في الصفحات التالية بدايات التوسع المغولي ، واستمراره غربا ، ثم محاولة تلمس الابعاد الاقتصادية الموجهة لاستمرار هذا التوسع ، ليخلص

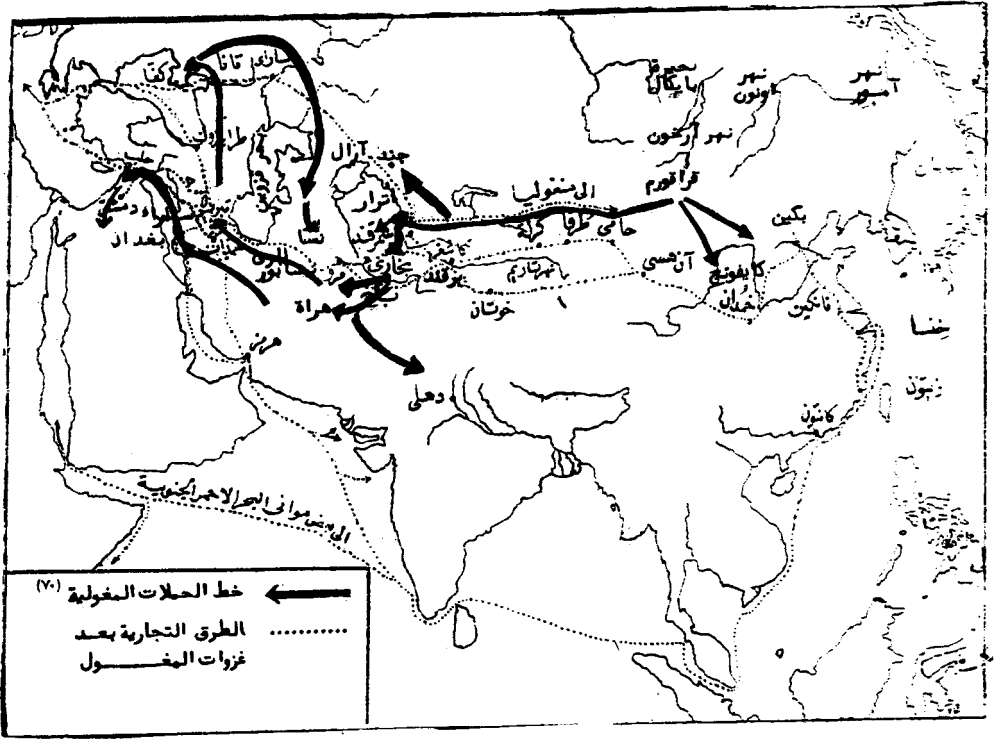
البحث الى اهم النتائج التي ترتبت على محاولة تنفيذ هذا المشروع المغولي مع التركيز على النتائج المتعلقة بالتفاعل الحضاري وازدياد المعلومات الجغرافية التي ساهمت في تيسير اتصال اجزاء العالم بعضها ببعض الاخر ، كما يشير البحث الى ما تأثرت به المنطقة العربية وبخاصة بلاد الشام نتيجة محاولة المغول السيطرة على الطرف الغربي لطريق الحرير .

بدايات التوسع المغولي :

في المناطق الواقعة الى الشرق من نهر سرداريا (سيحون) عاشت مجموعات من القبائل البدوية المتصارعة ، مارست انماطا من الحياة الاقتصادية مثل الرعي والصيد ، وقامت ببعض النشاط التجاري المحدود كان في جزء منه يعتمد على التبادل التجاري في مواسم معينة و سلع معينة مع قوافل التجار التي كانت تصل الى هذه المناطق أو قريبا منها . وتقسم هذه الشعوب الى قسمين رئيسيين : القسم الغربي الذي اصطلح على تسميته باسم الاتراك ، والقسم الشرقي الذي تركز في صحراء جوبي ، ويتشابه مع نظيره الغربي في اللغة والمظهر العام ، وقد اصطلح على تسميته بالمغول ، وامتد مدى انتشارهم الى منطقة السهوب في منغوليا وشمل اجزاء من سيبيريا اضافة الى قسم ثالث عاش الى الغرب من هؤلاء واصطلح على تسميته باسم التتار وقد امتدت مناطق تنقلهم أو استقرارهم المؤقت الى حدود منطقة ماوراء النهر (١١) .

وبحكم ان القسم الثاني من هذه الشعوب (المغول) هو موضوع البحث ، سنحاول ايجاز بعض مراحل تطورهم . فهؤلاء ، وبحكم منطقتهم الجغرافية ، كانوا الاقرب الى الصين ، لذا نجد الصينيين قد قسموهم الى ثلاث مجموعات تبعا لقربهم أو بعدهم عن الحضارة الصينية وطبيعة علاقتهم بها اضافة الى نمط الحياة السائد بينهم فمنهم التتار البيض في الجنوب الى الشمال من الحدود الصينية ، ثم التتار السود الى الشمال منهم ، واخيرا التتار المتوحشون أو تتار الغابات الذين يعتمدون على الصيد كنمط لحياتهم (١٢) . ويشير شولر الى ان الفاعلية السياسية والاقتصادية لهذه الجماعات بدأت مع اعتناق بعضهم للديانة المسيحية ، وظهرت بشكل بارز في القرن العاشر الميلادي ، حين بدأ احتكاكهم مع الصين واخذوا يبعدون بعض القبائل من مناطق منغوليا (١٣) .

واذا نظرنا الى الشعوب والقبائل من الصين شرقا الى البحر المتوسط غربا وجدناها على الشكل التالي : صينيون ، مغول ، تتار ، اترك ، ايرانيون ، عرب . واذا اخذنا بعين الاعتبار ان الاتراك والتتار والمغول يعودون الى ارومة واحدة ، اتضح لنا أن



هذه الجماعات (التركية) هي الواسطة بحكم موقعها بين الحضارتين الأكثر رقياً في عالم ذلك الوقت أي الحضارة الصينية والإسلامية ، لكن هذه القبائل كانت متفرقة وبذا لم يكن لهم كبير دور في عملية التأثير والتأثر من هذه الحضارات . وتشير الدراسات المتعلقة بتاريخ المغول إلى أن هذه القبائل قد تخلت عن دورها الهامشي في الحياة السياسية والاقتصادية لتنتقل إلى دور التأثير والتأثر الأكثر خطورة مع ظهور شخصية مغولية هي شخصية تيموجين (١٤) / جنكيز خان (١٢٠٦ - ١٢٢٧ م) ، ويظهر من تاريخه ثلاث مراحل رئيسة أولها توحيد القبائل المغولية تحت زعامة واحدة كمقدمة للمرحلتين التاليتين : التوسع باتجاه الصين ثم البدء في التوسع غرباً ضد العالم الإسلامي . ولقد استطاع انجاح المرحلة الأولى عام ١٢٠٦ فاعترفت به غالبية القبائل المغولية كزعيم ، في حين لجأت بعض القبائل المارضة إلى المناطق الغربية على القرب من الدول الإسلامية (١٥)، ثم بدأ بالاعداد الاستراتيجي للمرحلة الثانية ، بعد أن ضمن حماية الجناح الغربي لدولته من الغزوات ، بأن حارب بعض القبائل في الفترة ما بين

١٢٠٦ - ١٢٠٩ وسيطر على بعض الممرات الاستراتيجية (ممر كانسوا) التي تعتبر مدخله لفزو الصين وحقق ذلك عام ١٢٠٩ ، ثم تابع مشروعه بالسيطرة على أجزاء من الصين مستغلا الظروف الصينية الداخلية وما تجمع له من قوة مطمئنا لابتعاد القبائل المعارضة له واستطاع أن يحقق انتصارات سريعة وهامة في الفترة ما بين ١٢١١ - ١٢١٥ ، وأخضع بكين لسيطرته (١٦) .

كان لهذا الانتصار آثار بعيدة المدى على التفكير المغولي فلم تعد هذه القبائل لتكتفي بعمليات الاغارة والنهب بل انتقلت الى دور احكام السيطرة على مراكز حضارية ، اضافة لما أعطته هذه الانتصارات من دفع لشهية التوسع ، بل ان التوسع في الصين قد أثر على المغول في نمط الادارة واصدار القوانين وطبيعة الحياة بعد أن أصبح قسم من الصينيين تجارا ومرشدين واداريين وخبراء عسكريين لدى المغول (١٧) كما أنه يمكننا القول ان الفكرة الصينية التي كانت ترى في الصين امبراطورية الوسط وحاكمها ابن السماء قد بدأت تتسرب الى الفكر المغولي بحيث أصبح الحاكم المغولي هو حاكم الشرق والغرب ، وأنه المسيطر الوحيد على العالم (١٨) .

كان توحيد القبائل المغولية والسيطرة على اجزاء من الصين ممهدا للمرحلة الثالثة وهي التوسع غربا ، فبدأت القوة المغولية متابعة بعض القبائل مثل النايما (١٩) التي التجأت الى قبائل القراخانيين المجاورين للدولة الخوارزمية ودخلت في الصراع الدائر بينهم وبين الخوارزميين ، واستطاعت أن تؤسس لها مناطق نفوذ امتدت من مناطق التبت الى حدود الدولة الخوارزمية . وأصبحت بذلك مركز قوة يهدد التجارة مع الصين والمناطق المغولية . ولم يكن جنكيز يسمح باستمرار مثل هذا الخطر فتوجهت قواته اليهم واستطاعت القضاء على هذه السيطرة منذ عام ١٢١٨ (٢٠) وبدا نجد حدود مناطق السيطرة المغولية قد اتسعت واصبحت مجاورة للعالم الاسلامي مباشرة بمجاورتها للدولة الخوارزمية ، وبذلك سيطرت على أجزاء هامة من الطريق البري (طريق الحرير) الذي يربط شرق آسيا بغربها . ولا شك ان سيطرة المغول ضمن هذا التوسع على مدن تجارية قد اثار لديهم الحافز للاستمرار في التوسع الذي قد يكون مدفوعا بنصائح وارشادات من تجار صينيين ومسلمين اصبحوا تحت السيطرة المغولية .

استمرار توسع المغول غربا :

اذا كانت مجاورة الدولة المغولية التي اسسها جنكيز خان للدولة الخوارزمية قد جاءت نتيجة مطاردة المغول لقبائل قد فرت من سيطرتهم غربا ، فانه مما لا شك فيه ان كلا الدولتين (المغولية والخوارزمية) قد عرفت أحدهما الاخرى وما تمتعت

به كل منهما من عناصر قوة اقتصادية وعسكرية ، كما كان لابد لكلا الدولتين ، يحكم المناطق التي تتبع لهما ، من ان تتعاملا ضمن استمرارية او اعادة ما كان من اتصال بين مناطق جنوب شرق اسيا ومناطق وسط اسيا . فالدولة الخوارزمية التي استطاعت باستغلال الظروف التي سادت من ان توسع حدودها لتبلغ في عهد سلطانها علاء الدين خوارزم شاه (٥٩٦ - ٦١٧ هـ / ١١٩٩ - ١٢١٩ م) اقصى اتساع لها واشتملت على الاراضي الواقعة من حدود العراق غربا الى حدود الهند شرقا ومن شمال بحر قزوين وبحر ارال شمالا الى الخليج الفارسي والمحيط الهندي جنوبا (٢١) ، فسيطرت على مواقع استراتيجية ومدن هامة مثل بخارى وسمرقند وهرمز مما جعلها تتحكم بمعابر الطرق التجارية على طريق الحرير ، في الوقت التي كانت فيه الدولة (المغولية) الناشئة قد سيطرت هي الاخرى على بلد المقصد لاهم التجار على طريق الحرير ، علاوة على المدن التجارية مثل كاشغر ويريقتند وختن ، ومعرفة الدولتين كل منهما لحال الآخر ورهبتها وخوفها على مصالحها التجارية جعل حكام الدولتين يستطلعان كل منهما اخبار الاخرى ويتبادلان الرسائل التي يبدو من خلالها تركيز الطرفين على التجارة والمصالح الاقتصادية (٢٢) .

ويبدو أن المشاكل الداخلية في الدولتين كانت وراء تأخير تصادمهما العنيف، فالمغول كانوا مشغولين بتسوية امورهم في الصين ، والدولة الخوارزمية بعوائدها للدولة العباسية . لكن ذلك لم يبلغ ان كلا منهما كانت تنتظر الفرصة للتقدم على حساب الدولة الاخرى ، واذا كان اول صدام بين القوتين سنة ٦١٢ هـ / ١٢١٥ م قد انتهى دونما نتيجة حاسمة عسكريا الا انه بين خطط الطرفين ، حيث صرح السلطان الخوارزمي أن هدفه هو ان يصطاد فريستين بسهم واحد (٢٣) ، ويقصد بذلك القوة المغولية والقبائل التركية على حدود دولته ، في حين كان رد المغول ان تقدمهم لهذه المناطق المجاورة للدولة الخوارزمية هو في خدمة السلطان ، وقصد جنكيزخان من ذلك ان اعماله العسكرية على حدود الدولة الخوارزمية هي لتصفية القبائل والجماعات التي تهدد أو يمكن ان تعيق سبيل التجارة بين الدولتين ، وقد وضع ذلك من الرسالة التي بعث بها جنكيز مع وفد تجاري الى خوارزم شاه (٢٤) . ولكن هذه الرسالة ، وان كانت تؤكد ان حرية التجارة كفيلة بتحقيق المنافع للطرفين ، الا انه ركز فيها على قوة الدولة المغولية ، كما ركز على مفهوم السيطرة المغولية التي تفترض التبعية من الآخرين ، « ليس يخفى على عظيم شأنك .. وأنا أرى مسألتك من جملة الواجبات وانت تعد مثل أعز أولادي وغير خاف عليك انني ملكت الصين وما يليها من بلاد الترك وقد اذعنت لي قبائلهم وانت اخبر الناس بأن بلادك مشاراة العساكر ومعابر الفضة وان فيها لغنية عن طلب غيرها فان رأيت ان تفتح للتجار في الجهتين سبيل التردد عمت المنافع وشملت الفوائد » (٢٥) وقد تبع هذه الرسالة توقيع معاهدة تجارية وتبادل

الوفود التجارية ويشير النسوي الى مثل هذه الوفود والرسائل المتبادلة (٢٦) . لكن احدى هذه القوافل التجارية القادمة من الدولة المغولية الى الدولة الخوارزمية تعرضت للنهب والقتل في مدينة اترار (٢٧) وكان الرد المغولي عنيفا فافضى الامر الى الحرب بين الدولتين . وكانت الحجة المغولية هي الحجة التي ابتدعت ضد القبائل التركية الا وهو تهديدها للخطوط التجارية ، وكان الرد المغولي « من المعهود ان التجار لا يقتلون لانهم عمارة الاقاليم وهم الذين يحملون الى الملوك ما فيه التحف والاشياء النفيسة ثم ان هؤلاء التجار كانوا على دينك فقتلهم نائبك » (٢٨) ، واذا كانت حادثة اترار هي التي عجلت الحرب لكنها بلا شك ليست السبب الوحيد ، فقد كان التوسع او التخطيط للتوسع ينسجم مع الافكار المغولية التي بدأت تتبلور بعد سيطرتهم على الصين ، فجنكيز خان هو الحاكم على الشرق والغرب وهو الذي لا يقبل منافسين وانما يقبل اتباعا ، وهو صاحب القول : « كان الرجال الحكماء المسنون يعلموننا دائما ان القلوب والعقول المتباينة لا يمكن ان تكون في جسد واحد ولكنني اريد ان اثبت ان ذلك ممكن عمليا فسوف ابسط نفوذي على جميع جيراننا » (٢٩) . وبدأت الحرب التي يبدو ان اعداد المغول كان لها جيدا بحيث انتهت بالسيطرة على الاجزاء الهامة في الدولة الخوارزمية قبل وفاة السلطان علاء الدين محمد ٦١٧هـ / ١٢١٩م ، واستكملت السيطرة بعد محاولات المقاومة في عهد جلال الدين منكبرتي (٦١٧ - ٦٢٨هـ / ١٢١٩ - ١٢٣١م) ، واذا تتبعنا سير القوات المغولية في السيطرة على المناطق الخوارزمية لوجدنا انها تكاد تسير المحطات الرئيسة على الطريق التجاري بدءا من اترار الى سفنق ثم جند وبناتك وخجند وبخارى وسمرقند وبلخ ، مروا بمدن مقاطعة خراسان مثل هرات ومرو ونيسابور ، وصولا الى منطقة الري (٣٠) ، ليمت التركيز بعد ذلك على اقليم خوارزم وعاصمته جرجانية كمقدمة للسيطرة على مناطق الخزر وخراسان (٣١) .

وكنتيجة لهذه النجاحات في اخضاع مناطق نفوذ الدولة الخوارزمية يكون المغول قد سيطروا على اهم المنافذ التجارية ، وفتحوا طرقا تجارية توصلهم الى اوروبا عبر الاراضي الواقعة بين البحر الاسود وبحر قزوين ، وكأنهم بذلك يمهدون المجال لحياء التجارة في منطقة البحر الاسود الذي أصبح فيما بعد من المناطق التجارية الهامة للاروبيين .

وضمن هذا الاطار الجغرافي للتوسع المغولي والذي لم يكتمل في عهد جنكيز خان لكنه أوجد امكانية تطبيق فكرة الدولة العالمية التي سعى خلفاء جنكيز للمضي في تحقيقها ، فركزوا جهودهم للوصول الى شواطئ البحر المتوسط ، وأوكلت مهمة تحقيق ذلك بعد تقسيم الامبراطورية المغولية (٣٢) الى الخانية فارس (٦٥٦ - ٧٣٧هـ ١٢٥٨ - ١٣٣٦م) التي سعت لذلك بوسائل متعددة .

الطرف الغربي لطريق الحرير ومحاولة السيطرة المغولية :

ليست مهمة هذا البحث متابعة التطورات التي حدثت في الدولة المغولية بعد وفاة جنكيز خان ، بل التركيز على فكرة مشروع الدولة العالمية المغولية التي لم تنته بوفاة مؤسسها ، فعلى الرغم من أن امبراطورية جنكيز خان قد قسمت بين ابنائه وابناء بيته الا ان الغالبية العظمى منهم قد أقرت بإمكانية متابعة التوسع ، ففي عهد خلفائه تمت السيطرة على بقية أجزاء الدولة الخوارزمية ، ثم تصفيتها نهائيا سنة ٦٢٨ هـ / ١٢٣١ م (٢٣) ، وأعادوا السيطرة على مناطق ثارت على حكمهم وسيطروا على مناطق جديدة في ايران ووصلوا حتى سامراء سنة ٦٣٤ هـ / ١٢٣٦ (٢٤) ، ووسعوا نفوذهم الى مناطق جورجيا وأرمينيا وأكرانيا وتابعوا زحفهم على بولندا وفيينا وسواحل البحر الادرياتي ، واخضعوا مناطق الاناضول حتى عام ٦٤٠ هـ / ١٢٤٣ م.

وفي عهد منكوقان ٦٤٨ - ٦٥٥ هـ / ١٢٥٠ - ١٢٥٧ م ، بدأت خطط المغول للسيطرة على بقية مناطق ايران والعراق وصولا الى بلاد الشام . وكان التوجيه لهولاكو يبين أن الهدف النهائي للمغول في هذا الاتجاه هو الوصول الى موانئ البحر المتوسط ، ويبدو ذلك جليا في ما قاله له منكوقان : « ... ينبغي أن تسير من توران الى ايران . وحافظ على تقاليد جنكيز خان وقوانينه في الكليات والجزئيات وخص كل من يطيع أوامرك ويجتنب نواهيك في الرقعة الممتدة من جيحون حتى اقاصي مصر بلطفك وأنواع عطفك وأنعامك ، أما من يعصيك فأغرقه في الذلة والمهانة .. وابدأ باقليم فهستان في خراسان فخرّب القلاع والحصون .. وإذا فرغت من هذه المهمة فعليك أن تتوجه الى العراق وأزل من طريقك اللور والاكراذ الذين يقطعون الطرق على سالكيه » (٢٥) . يتضح من ذلك أن الغزو المغولي استمر وفق خطة جنكيز خان للسيطرة على الشرق والغرب ، وان ذلك قد توافق في عهد هولاكو خان وأتباعه من حكام في الخانية فارس مع الفكرة الفارسية القديمة التي لم تكن لتكتفي بالسيطرة على بلاد ما بين النهرين بل كانت تسعى دوما لايجاد ممر لها الى البحر المتوسط (٢٦) ، ويتضح ذلك أكثر بعد أن تمت للمغول السيطرة على قلاع الاسماعيلية سنة ٦٥٥ هـ / ١٢٥٧ م وتابعت قواتهم زحفها الى همدان . وفي تلك الاثناء تقابل هولاكو مع أحد قادته وهو بايجو نويان فقال له : « لقد ذهبت في الوقت الذي ذهب فيه جرماغون فماذا فعلت عندما حلت محلته في ايران وكم من جيش قهرت ... وما العدد الذي أخضعته ... ؟ فأجاب انني لم أقصر وانما بذلت كل ما في مقدوري فأخضعت الاقاليم الممتدة ما بين باب الري حتى حدود الروم والشام ما عدا بغداد ... ثم قال له هولاكو : يجب أن تعود لكي تستولي على تلك الولاية حتى شاطئ البحر من أبناء الفرنج والكفار » (٢٧) .

وتطبيقا لهذه السياسة اجتاحتوا بغداد وأسقطوا الخلافة العباسية سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م ليتابعوا زحفهم على بلاد الشام ، وكانت أوضاعها مضطربة في ظل ابناء البيت الايوبي وصراعهم مع المماليك في مصر والامارات الصليبية على السواحل . وأدرك المغول أهمية السيطرة على بلاد الشام فتحالفوا مع بعض الامارات الصليبية ومملكة أرمينيا ، الذين شاركوهم في الهجوم على مدن الشام من حلب شمالا الى غزة جنوبا (٢٨) . ولكن سيطرتهم لم تدم بعد هزيمتهم في معركة عين جالوت سنة ٦٥٨هـ/١٢٦٠م ، الا أن المحاولات من قبل الخانية فارس استمرت في عهد خلفاء هولاكو آخذين بعين الاعتبار أهمية هذه المنطقة والقوى المؤثرة عليها ، وبخاصة الدولة البيزنطية والقوى الأوروبية الغربية اضافة الى المدن التجارية الإيطالية والامارات الصليبية ، فحاولوا عقد المعاهدات لتكوين أحلاف الهدف منها السيطرة على بلاد الشام ومصر ، ونلمح في ذلك محاولة مغولية أوروبية لاقتسام مناطق النفوذ في المناطق العربية الا أن هذه الجهود لم تفض الى نتيجة ايجابية كما تمنوها (٢٩) . وفي المقابل سعت الدولة المملوكية التي أصبحت بلاد الشام ضمن مناطق نفوذها ، لحماية هذه المنطقة فركزت على ايجاد تحالفات تهدف الى اضعاف التوجه المغولي ، فركزت على التحالف مع مغول القبيلة الذهبية (٤٠) وسعت في الوقت نفسه على أن يكون لها تأثير على بيزنطة، كما عملت ، وضمن سياسة ذكية ، على ألا تحارب عدوين في آن واحد ، الصليبيين والمغول . ويبدو أن أوضاع كل من القوى الصليبية والخانية فارس قد خدم هذا التوجه المملوكي ، بل نرى أن الدولة المملوكية قد نجحت في إنهاء الوجود الصليبي على ساحل بلاد الشام بتحرير عكا سنة ٦٩٠هـ/١٢٩١م (٤١) ، مما أتاح لها التفرغ بشكل كامل لجبهة المغول والقوى الحليفة لها فاستطاعت أن تحقق نجاحات ضمن سياسة التأثير على مملكة أرمينيا الصفري ، وكذلك سلاجقة الروم . وقد نجحت بالسيطرة على مناطق استراتيجية من الناحيتين العسكرية والتجارية مثل قلعة الروم (قلعة المسلمين) (٤٢) ، لكن هذه النجاحات المملوكية والتغيرات في داخل دولة الخانية فارس لم تمنع المغول من تجديد المحاولات للسيطرة من جديد على بلاد الشام ، وكان من أهم هذه المحاولات وصولهم لدمشق سنة ٦٩٩هـ /١٣٠٠م (٤٣) ، لكن المحاولات العسكرية التي فشلت في تحقيق الهدف المغولي لم تمنعهم من السعي بعد فشلهم وبكل الوسائل لاطباق السيطرة على الطرق التجارية الشامية الى اللجوء لعقد المعاهدات التي ركزت من ضمن ما ركزت عليه على البعد التجاري وكان من أهم هذه المعاهدات تلك التي وقعت سنة ٧٢٣هـ/١٣٢٣م ، والتي كان لتاجر شامي الدور المهم في انجازها (٤٤) .

وهكذا نجد أن التوسع المغولي والذي بدأ بمحاولات ناجحة في السيطرة على الصين قد تتابع غربا منها سيطرة قبائل تركية على حدود الدولة الخوارزمية ثم أزال الدولة الخوارزمية في بلاد ما وراء النهر كما أنهى الخلافة العباسية ليستقر على حدود

بلاد الشام ، هذا التوسع المغولي نجده من خلال تتبع قواته العسكرية وهي تسيطر على كل هذه المناطق متوافقا مع خط سير طريق الحرير ، مما يؤكد أن طريق الحرير هو تبادل السلع والاكار والديانات والفن ، التي لم تكن لتتفاعل بالطريق السلمي فقط وانما احيانا بالقوة العسكرية ، ولربما كان التوسع المغولي خير مثال على انتقال وتفاعل العناصر الحضارية بين الامم المختلفة على الرغم مما رافق هذا الفوز من قتل وتدمير وشل لمراكز حضارية في مناطق مختلفة ، وسيحاول البحث القاء بعض الضوء على ما رافق هذا التوسع المغولي من تفاعل حضاري وحوار بين الامم المختلفة مركزا على ما تأثرت به المعارف الجغرافية العالمية والسياسة الدولية اضافة الى ما تأثرت به الطرق التجارية وما تبع ذلك من انتقال لجماعات بشرية في الاتجاهين الشرقي والغربي علاوة على ما تأثرت به الديانة الاسلامية مقارنة بالديانات الاخرى التي أتيح لها التفاعل ضمن اطار دولة واحدة ، كما سيشير البحث الى نقطة جديرة بالاهتمام الا وهي التفاعل السكاني الذي لا بد أنه قد حصل نتيجة هجرة واستقرار اقوام مختلفة في بلاد الشام ومصر .

نتائج السيطرة المغولية على طريق الحرير :

بعد أن استطاع المغول وفي فترة قياسية تأسيس امبراطورية قارية واسعة امتدت من حدود الصين شرقا الى بلاد الشام غربا ، سيطروا بحكم هذا الامتداد الجغرافي على أهم طريق موصل بين شرق آسيا وغربها ، ومما لا شك فيه أن العوامل الاقتصادية قد لعبت دورا محوريا في توسعهم المستمر ، ويمكن أن نلمح مدى اهتمام المغول بالبعد التجاري ضمن الحياة الاقتصادية . فعلاوة على طبيعتهم البدوية التي جعلت للتجارة أهمية خاصة عند بعض قبائلهم ، نلمح أن هذا الاهتمام بدأ يتزايد بعد توحيدهم تحت قيادة واحدة ، اضافة الى ما قدمته المناطق التي خضعت لسيطرتهم من تنوع اقتصادي . والاشارات التي ترد عن تاريخ المغول توضح مدى اهتمامهم بالتجارة حيث آمنوا قانونيا (الياسة) حرية التجارة وتقديم الرعاية للتجار(٤٥) . كما أولى المغول اهتماما متزايدا للطرق التجارية وحفظ النظام والامن لمستخدميها ، وأوجدوا ما يسمى بالمستحفظين (القراقجية) الذين يتولون توفير الامن على الطرق التجارية ، كما يتبدى اهتمامهم بالتجارة والتجار من خلال علاقتهم مع الدول التي كانوا على تماس معها كما هو الحال بالنسبة للدولة الخوارزمية قبل أن يسيطروا عليها وكما تبدت علاقتهم مع الدولة المملوكية التي كانوا على عداة معها ، وشمل الامر أيضا علاقتهم ببيزنطة أو الامارات الايطالية ، كما عملوا على ايجاد مناطق استقرار لجماعات صغيرة أسكنت على طول الطرق التجارية(٤٦) ، وقد جاء ذلك ليخدم غرضين في آن واحد : تأمين الاتصال بين المناطق المختلفة للامبراطورية المغولية ضمن اهتمامهم بنظام البريد ، وتوفير مناطق استراحة للتجار في جميع أرجاء هذه الدولة .

ونلمح التركيز على البعد الاقتصادي حتى من خلال سيطرتهم العسكرية الغالب عليها العنف في معظم المناطق التي خضعت لهم ، ويبدو ذلك جليا في أن معظم الفئات التي نجت من قتلهم كانت تشمل التجار والحرفيين ، الذين غالبا ما أرسلوا من مناطق السيطرة الى مركز الدولة في منفوليا (٤٧) . على أن هذا الاهتمام المتزايد بالتجارة يجب ألا يلقي حقيقة أن الحياة الاقتصادية والتجارية بشكل خاص قد تأثرت سلبا بالتوسع المغولي ، حيث أعقب الغزو مباشرة تعطل الطرق التجارية والبرية منها بشكل خاص . لكن ذلك لا ينسحب على الفترة المغولية بشكل كامل ، فما أن استقرت السيطرة المغولية على مناطق التوسع الا وبدأت حركة ازدهار وتوسع للطرق التجارية ، فازدهر الطريق البري الذي بدأ من الصين مخترقا تركستان بالانحاء الشمالي من بحر قزوين الى موانئ البحر الاسود ، أو الطريق الذي يسير جنوب بحر قزوين مجتازا ايران الى طرابيزون الى منطقة آياس بارمينيا ، وأصبح مطروقا أكثر من الطريق البحري ، كما أدى الى نشوء مراكز تجارية أوروبية للايطاليين في منطقة كافا (ثيوديسيا القديمة) (٤٨) . وتعمق الاهتمام بمثل هذه المراكز بعد استمرار الصراع بين الخانية فارس ودولة المماليك مما حول جزءا كبيرا من التجارة الى جنوب روسيا . وهكذا نرى أن الغزو المغولي الذي ساهم في احياء طريق الحرير قد أوجد تفرعات أخرى لهذا الطريق الرئيسي القديم ، بحيث بدت لنا طريقين رئيسيين بعد الغزو ، الطريق الاول من البحر الاسود الى شمال تركستان مرورا بوسط آسيا الى الصين عبر اتجاهين اما مرورا بالسهول الشمالية (سهول زنجاريا) أو عبر حوض نهر التاريم ثم خوتان في الجنوب ، وكان طريقا برياً ، والطريق الثاني بحري - بري اما من طرابيزون أو خليج الاسكندرونه ليصل الى منطقة تبريز الى هرمز ليسير عبر طريق المحيط الهندي الى مناطق الهند والشرق الاقصى ، وقد ازدادت أهمية هذا الطريق بعد السيطرة المغولية على بغداد بحيث أصبحت تبريز المكان الذي يرتاده التجار من مناطق الشام وشمال بلاد ما بين النهرين ، وغدا الطريق الرئيسي خلال القرن الثامن هجري / الرابع عشر ميلادي .

كان لهذا التوسع في الطرق التجارية أثر على فقدان بعض المناطق لأهميتها التجارية ، فانطاكية مثلاً وحلب فقدتا جزءاً من نشاطهما التجاري لصالح آياس الثغر الارمني على البحر المتوسط والذي اعتمده التجار لتجنب الطريق الذي يمر في أراضي الدولة المملوكية التي كانت على عدااء مع دولة المغول ، الا ان ذلك لا يعني بالضرورة أن كل الحركة التجارية قد تركت في هذه المناطق الجديدة بل كان لا بد لجزء هام من التجارة ان يمر عبر بلاد الشام وبخاصة حلب ودمشق ، ومما زاد من حرية الحركة ونشاطها ان معظم المنافذ والطرق التجارية تقع ضمن اطار دولة واحدة ، وحتى بعد انقسام الدولة المغولية الى مناطق سياسية مختلفة لم تتأثر الحركة التجارية

سلبا ، فنرى الخانية فارس تسمى بوسائل مختلفة لتنشيط الحركة التجارية مع دولة الممالك ، وكذلك الحال مع مغول القبيلة الذهبية الذين ارتبطوا بمعاهدات سياسية واقتصادية مع الممالك وبيزنطة والامارات الايطالية . واذا كانت بلاد الشام قد تأثرت بتحول الطرق التجارية مؤقتا الا أن هذا الوضع قد تغير بعد النجاحات العسكرية التي حققها الممالك ضد المغول وأرمينيا والامارات الصليبية .

وبالاجمال يمكن القول ان الغزو المغولي قد أعاد الحياة لطريق الحرير العظيم وان زاد تشعبه ضمن امبراطوريتهم (٤٩) ، وقد أدى ذلك الى نتيجة أبعد أثرا في التاريخ الانساني الا وهي ازدياد الاتصال بين الغرب الاوروبي والصين ومناطق السيطرة المغولية ، فقام الاوروبيون برحلات وبعثات ضمن الامبراطورية المغولية كانت تهدف لأغراض سياسية والبحث عن حلفاء ضد المسلمين واقتصادية للحصول على منتجات الشرق دونما وساطة دولة الممالك ، وأهداف دينية تهدف الى نشر الدين المسيحي . ومن أبرز الاعلام الاوروبية التي زارت الامبراطورية المغولية جيوفاني دي بيانو كارييني في الفترة الواقعة بين ١٢٤٥ - ١٢٤٧ ، والذي كان أول من زود الغرب بمعلومات ثرية عن الشرق والمغول ، وروبروك عام ١٢٥٢ ، الذي كان لمعلوماته أكبر الاثر في حث الغرب على المزيد من الاتصال بالمغول ويعتبر تقرير روبروك وحسب قول كلوزيه ، من أفضل المؤلفات الجغرافية التي وصلتنا من العصر الوسيط (٥٠) ، كما كان لرحلة ماركو بولو والذي أقام في الامبراطورية المغولية ما يزيد على سبعة عشر عاما الاثر الأكبر في الكشف عن ثروات الشرق الأقصى التي شجعت الرحالة والمكتشفين الاوروبيين لاجتياز آسيا ضمن خطتهم للبحث عن أقصر وأرخص وأسهل الطرق للوصول للشرق الأقصى والهند ، مما مهد لقيام حركة الكشوف الجغرافية التي أدت فيما بعد الى تغيير في الطرق التجارية علاوة على اكتشاف امريكا ، مما جعل ايلين بور تقول « ان ماركو بولو قد اكتشف بلاد الصين في القرن الثالث عشر وهو على قيد الحياة واكتشف امريكا في القرن الخامس عشر بعد وفاته » (٥١) . ولم يقتصر أمر ازدياد المعرفة الجغرافية على الاوروبيين بل كان لرحلة ابن بطوطة الاثر الهام في تقديم معلومات جغرافية واقتصادية وبشرية عن المناطق التي زارها ، مما ساهم في اثراء المعرفة الاسلامية لمناطق جنوب شرق آسيا والتي تكونت لديهم عن علاقاتهم السياسية والتجارية في القرون السابقة (٥٢) ، كما زادت معارف الصينيين بالمناطق الجغرافية العالية وخاصة بمناطق الشرق الاوسط وافريقيا ، اذ قام رحالة صينيون من أشهرهم تشنغ خه ما بين ١٤٠٥ - ١٤٣٣ بسبع رحلات الى مناطق مجهولة وبذلك يكون قد سبق اكتشافات كولمبوس بنصف قرن (٥٣) . وقد أدى ذلك الى زيادة التفاعل الحضاري بين الشعوب ، واذا كان الفضل في ذلك لا يعود بشكل مباشر الى العنصر المغولي الا أنه بلا شك قد كان عن طريقهم بشكل غير مباشر وذلك لأنهم شكلوا امبراطورية واسعة

ربطت الغرب ووسط آسيا بالشرق الأقصى بعلاقات مستمرة كما أنها ضمت شعوبا ذات حضارات وثقافات مختلفة اتيح لها امكانية التفاعل لفترة طويلة من الزمن ، فان لم يكن المغول ناقلي حضارة الا أنهم شجعوا النقل الحضاري والتفاعل بين الشعوب التي خضعت لسيطرتهم وتلك التي تعاملت معهم .

ومن الآثار الهامة التي ترتبت على المشروع المغولي باحكام السيطرة على طريق الحرير ان ازداد تنقل الجماعات البشرية في الاتجاهين الشرقي والغربي لطريق الحرير سواء اكان هذا الانتقال طوعيا او قسريا ، فلمحنا ازدياد التواجد الاسلامي في معظم مناطق الصين من الجماعات التي اخذها المغول من مناطق السيطرة لتلتئم مع جماعات اخرى جاءت لتستقر وتعمل في التجارة وبذلك كان يمكن ان نجد مجموعات من التجار العراقيين والشاميين الى جانب الفرس والأتراك في مناطق الصين ومنغوليا ومناطق سيطرة القبيلة الذهبية (٥٤) ، وبالمقابل يلمح توأجد صيني في مناطق ايران كما أشار لذلك الاسقف الصيني شانج شون وتحدث على اعداد من العمال الصينيين في مدينة سمرقند (٥٥) ، كما أشار روبروك الى وجود مجموعات من الالمان والروس والفرنسيين في البلاط المغولي (٥٦) ، وبذلك فان هذا المزيج من أبناء الشعوب المختلفة لا بد وانه تفاعل تأثرا وتأثرا على جميع الاطراف كما اثر بنفس الوقت على التطور الحضاري والفكري للمغول .

ومن النقاط الجديرة بالبحث بما يتعلق بالمنطقة العربية (الشام ومصر) هي دراسة الجماعات التي وفدت لهذه المنطقة من جراء المشروع المغولي في التوسع غربا للسيطرة على الطرف الغربي لطريق الحرير ، ففي أثناء السيطرة المغولية على الدولة الخوارزمية اندفعت مجموعات من القبائل الخوارزمية ليستقر بها المقام في بلاد الشام في فترة الدولة الايوبية ، وقد ساهمت هذه الجماعات كقوى عسكرية في الاحداث التي كانت تمر بها الدولة الايوبية سواء على الصعيد الداخلي او في حربها مع القوى الفرنجية ، وتشير المصادر الى ان جزءا من هؤلاء الخوارزمية قد استوطن في جنوبي بلاد الشام في مناطق البلقاء وغزة ، واخر كان في منطقة بقاع بعلبك وغوطة دمشق ، وتشير المصادر الى أن اعدادهم كانت تزيد على العشرة الاف (٥٧) ، لكن مما يؤسف له ان المصادر التاريخية لا تزودنا بمعلومات عن مدى ما اثرت به هذه الجماعات على الوضع الحضاري والسكاني لبلاد الشام . ومن التأثيرات التي نجمت عن السيطرة المغولية على بلاد ما بين النهرين أن أصبحت بلاد الشام ومصر بلد المهجر لكثير من القبائل المغولية التي توافدت وفي فترات زمنية مختلفة ، ففي سنة ٦٦٠هـ وفد لبلاد الشام ما يزيد على مئتي فارس مغولي بنسائهم واهاليهم (٥٨) ، وبعد ذلك بسنة وفد ما يزيد على الف وثلاثمئة (٥٩) ، ثم تابعت هجرة الجماعات المغولية سنة ٦٨٠هـ (٦٠) ، ولكن الموجة الاكبر كانت ما بين سنة ٦٩١ - ٦٩٥هـ اذ تشير المصادر الى

قدوم ما يزيد على عشرة الاف اسرة تفرقت في مصر وبلاد الشام وتم اسكان مجموعات منهم على الساحل الفلسطيني(٦١) ، وتشير المصادر أيضا الى أن جزءا من هؤلاء اختلطوا بسكان المنطقة عن طريق الزواج والعمل ، وأن جزءا منهم اعتنق الاسلام، ولكنهم احتفظوا بالكثير من عاداتهم وطرائق حياتهم مما جعل المقريري يقول « بعد كثرة وقائع المغول في بلاد المشرق والشمال والقفجاق واسروا كثيرا منهم وباعوهم وتنقلوا في لامصار وملئوا مصر والشام وانتشرت عاداتهم وطرائقهم .. وكانوا انما ربوا بدار الاسلام واتقنوا القرآن وعرفوا احكام الملة المحمدية فجمعوا بين الحق والباطل »(٦٢) ، ويشير أيضا الى أنهم يحكمون القرآن في بعض أمور حياتهم وفي البعض الاخر يرجعون الى القوانين المغولية ، بل وتشير المصادر الى أن بعض حكام الدولة المملوكية قد مال الى اعطاء هذه الجماعات الوافدة امتيازات خاصة بحكم القرابة العرقية(٦٣) . ولا شك ان مثل هذه الجماعات قد أثرت بشكل أو بآخر على نمط الحياة الاجتماعية في بلاد مصر والشام خاصة فيما يتعلق بالنظرة للمرأة أو بما ادخلوه من أنماط في اللبس والمأكل (٦٤) كما يمكن ان يكون لهذه الجماعات أثر في القوانين والتشريعات المملوكية اضافة الى آثارها على طبيعة الحياة العسكرية للدولة المملوكية.

ومن ضمن الآثار التي ترتبت على الغزو المغولي الاثر على التركيبة السكانية لبلاد الشام ، ففي الوقت الذي استقطبت فيه بلاد الشام مجموعات خوارزمية ومغولية، كانت أيضا بلد المهجر لسكان بعض مناطق العراق فنجد في الفترة المملوكية العديد من أسماء العائلات التي تنتسب الى مناطق سامراء وتكريت وبغداد والجزيرة الفراتية ، كما كان لاستمرار تعرض بلاد الشام لخطر الهجمات المغولية ان ازدادت الهجرة السكانية من شمال بلاد الشام الى جنوبها ، وكذلك حركة الهجرة الى مصر. وأثرت الهجمات المغولية على بلاد الشام سكانيا واقتصاديا بقتل العديد من سكانها أثناء الغزوات ، أو من خلال بعض السياسات المملوكية ، بتهجير بعض السكان من بلاد الشام الى مصر وخاصة الفئات التي دارت حولها الشبهات من امكانية تعاونها مع المغول(٦٥) ، ونتيجة لذلك كله نجد أن الغزو المغولي الهادف للسيطرة على الطرف الغربي لطريق الحرير (بلاد الشام) قد ساهم في تفاعلات حضارية شملت منطقتي مصر وبلاد الشام .

ولا يمكننا اغفال ما تأثرت به الديانة الاسلامية نتيجة التوسع المغولي بحيث ادى ذلك الى ازدياد اعداد المسلمين في مناطق الصين، مع العلم بأن التواجد الاسلامي في هذه المناطق كان سابقا على الغزو المغولي ، وقفز قفزات واسعة في هذا العصر مستفيدا من التسامح الديني الذي تميزت به الاسر المغولية ومن النشاط التجاري مما أتاح للمسلمين فرصة كسب المنافسة مع الديانات الاخرى وخاصة البوذية والمسيحية بل أن الاسلام وحضارته كان قادرا على تطويع الجزء الاكبر من المغول بدخولهم للاسلام

كما حصل للقبيلة الذهبية ، وكذلك الخانية فارس التي أصبح الجزء الأكبر من حكمها من المسلمين (٦٦) ، ولا شك أن ازدياد عدد المسلمين واعتناق الدول المغولية للديانة الإسلامية رافقه تأثير متبادل في مجال اللغة والأدب والفن ، ويمكن أن نلمح أثر الفن الإسلامي في العديد من المساجد التي أسست في الصين ومنها مسجد تشيوانتشو (مسجد وحيد القرن) الذي يشبه في بعض تصاميمه المسجد الأموي في دمشق (٦٧).

وفي الختام يمكننا القول بأن طريق الحرير الذي كان بمثابة الجسر التاريخي للتواصل بين الشرق والغرب لم يكن طريقاً لتنقل البضائع التجارية فحسب ، بل كان طريقاً للفن والأدب والدين ، ولم يكن طريقاً للتواصل السلمي ، بل كان طريقاً لتحرك الجيوش من شرقه وغربه ، ولكنه كان كما تقول سونيا ي. هاو « ومهما يكن من تحول مراكز المدينة من مدينة إلى أخرى فإن شيئاً لم يستطع شل حركة تجارة التوابل أو منع ازدهارها وإطراد نموها ... كانت تجارة التوابل منشأ العلاقات بين الأمم ، منها تكونت حلقات الاتصال بين فترات التاريخ ولها يرجع الفضل في إيجاد الاتصال بين الشرق والغرب بصورة مستمرة » (٦٨) . وعلى ضوء ذلك يمكننا القول أن السيطرة المغولية على طريق الحرير وإن تميزت بالعنف إلا أنها لم تكن قادرة على إلغاء الدور الحضاري لهذا الطريق كجسر للتواصل الإنساني ، كما أن هذه السيطرة لم تكن لتلغي الدور الحضاري لبلاد الشام كمنطقة إشعاع وتفاعل إنساني ، وإن كانت قد نجحت في فاصل زمني من أضعاف هذا الدور ، بل إن بلاد الشام ومصر هما اللتان وقفتا في وجه المد المغولي وساهمتا في تطويعه لخدمة الأغراض الإنسانية من التواصل الحضاري.

الهوامش

وعالم البحر المتوسط أثناء القرن السادس عشر ، القاهرة ، دار المعارف ، بلا تاريخ ، ص ٥٥ .

سليمان التاجر وأبو زيد السيراقي : أخبار الصين والهند ، تحقيق وتحليل إبراهيم خوري ، كتاب الأبحاث ، سلسلة أبحاث ودراسات من تاريخ شبه القارة الهندية ، بيروت ، دار الموسم للأعلام ، ط ١ ، ١٩٩١م ، ص ٣٥ ، ٣٨-٤١ ، ٦٠ .

المسعودي ، مروج الذهب ومعادن الجواهر ، دار الاندلس ، بيروت ١٩٨٤ ص ١٦٥ ، ١٦٠ ، ١٦٢ .

محمد مكي الصيني : نظرة جامعة إلى تاريخ الإسلام في الصين وأحوال المسلمين

(١) Philip D.Curtin : **Cross - Cultural Trade in World History** , Cambridge University Press, Cambridge , 1984 , p. 106 .

(٢) حافظ أحمد حمدي : الدولة الخوارزمية والمغول ، دار الفكر العربي ، ١٩٤٩م ، ص ٢٩٣ .

(٣) ف . هايد ، تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى ، ج ١ ، ترجمة أحمد محمد رضا ومراجعة وتقديم د. عز الدين فودة ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٥م ، ص ١٨٠ .

(٤) فاروق عثمان أباطة : أثر تحول التجارة العالمية إلى رأس الرجاء الصالح على مصر

Hans - Reiner Kämpfe ; « Ginggis Khan . in Michael Weiers (Hrsg) . : Die Mongolen, Wissenschaftliche Buchgesellschaft , Darmstadt , 1986 , pp. 183-186.

Ibid : p. 187 - 188 .

Bertold pp. 10 - 11 .

Hans - Reiner Kämpfe : Op.

Cit, pp. 186 - 187 .

حافظ حمدي : مرجع سابق ، ص ١٣ .

الصياد : مرجع سابق ، ج ١ ، ص ٥٣ .

Bertold , p. 10 .

Ibid : p. 10 .

السيد الباز العريني ، مرجع سابق ، ص

٦٦ - ٦٨ . الصياد ، مرجع سابق ، ج ١

ص ٥٤ - ٦٦ .

حافظ حمدي : مرجع سابق ، ص ٥٩ ،

٧٩ - ٨٠ . الصياد : مرجع سابق ، ج ١

ص ٥٤ - ٥٧ .

حافظ حمدي : مرجع سابق ، ص ٣٤-٣٥ .

عفاف صبرة : التاريخ السياسي للدولة

الخوارزمية ، القاهرة ، دار الكتاب الجامعي ،

ط ١ ، ١٩٨٧ ، ص ١٦٠ .

Hans Reiner Kämpfe : Op. Cit, p. 188 .

Barthold ; Turkestan down to the Mongol Invasion , London , 1928 , p. 369 .

الصياد : مرجع سابق ، ج ١ ، ص ٩٥-٩٦ .

النسوي ، شهاب الدين محمد بن أحمد :

سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ، تحقيق

حافظ أحمد بدوي ، القاهرة ، ١٩٥٣ ،

ص ٤٧ ، عفاف صبرة : مرجع سابق ، ص ١٥٩ .

حافظ حمدي : مرجع سابق ، ص ٨٢ (٢٦)

النسوي : مصدر سابق ، ص ٨٣-٨٤ . (٢٧)

عفاف صبرة : مرجع سابق ، ص ١٦٢ ،

١٦٥ .

فيها ، القاهرة ، المطبعة السلفية ومكتبتها، ١٣٥٣ هـ ، ٦-١٠ .

Bretschneider. E : Medieval Resarches from Eastern Asiatic Sources, st. Petersburg, 1887, Vol, 1 , pp. 264 - 265 .

ف. هايد : مرجع سابق ، ص ١٧٥ . (٦)

لوفران : تاريخ التجارة منذ فجر التاريخ (٧)

حتى العصر الحديث ، ترجمة هاشم الحسني ، بيروت ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بلا تاريخ ، ص ٤٠ .

فؤاد عبد المعطي الصياد : المغول في التاريخ، (٨)

ج ١ ، بيروت ، دار النهضة العربية ، ١٩٨٠ ، ص ٢١-٢٢ ، ٤٨ .

القراخانيون : اصلهم من قبائل الخطأ (٩)

وهم خليط من المغول والتانجوت ، نزحوا

في النصف الاول من القرن السادس الهجري

الى مناطق تركستان وكونوا دولة تفصل

بين الدولة الخوارزمية في الغرب والمغول

في الشرق . انظر الصياد ، مرجع سابق،

ص ٢٣-٢٤ .

Bretschneider : Op. Cit, Vol, 1, pp. 208 - 209 . (١٠)

الصياد : مرجع سابق ، ج ١ ، ص ٢١-٢٢ .

حسين مؤنس « المغول والاسلام » ، مجلة (١١)

العربي ، عدد ١٥١/١٩٧١ ، ص ٢٢ .

عصام الدين عبد الرؤوف الفتحي : الدولة

العباسية ، القاهرة ، جامعة القاهرة ،

مكتبة نهضة الشرق ، ١٩٨٧ ، ص ٢٨٠ .

Bertold Spuler : «Die Mongolen (١٢)

Zeit» , in : Handbuch der Orient

alistik , Sechster Band ,

E. J. Brill - Leiden - Koln ,

1953 , P. 4.

Ibid : p. 4 . (١٣)

حول تاريخ ميلاده وشخصيته انظر السيد (١٤)

الباز العريني : المغول ، بيروت ، دار النهضة

العربية ، ١٩٨٦ م ، ص ٤٣ - ٥٣ .

- (٢٨) ابن الاثير ، علي بن أحمد بن ابي الكرم:
الكامل في التاريخ ، بيروت ، ١٩٨٠م ، ج٩،
ص ٣١٣ .
- (٢٩) ابن كثير ، عماد الدين ابو الفدا اسماعيل:
البداية والنهاية ، بيروت ، مكتبة المعارف،
١٩٨٥م ، ج ١٣ ، ص ١١٩ .
- (٣٠) الصياد : مرجع سابق ، ج ١ ، ص ٤٥ .
- (٣١) النسوي : مصدر سابق ، ص ١٠٠ .
- الصياد : مرجع سابق ، ج ١ ، ص ١١٦ ،
١٢١ ، ١١٨ .
- Howorth. H. H : **History of the
Mongols**, London , 1876 , Vol.
1 , p. 77. Hans Reiner Op. Cit,
pp. 189 - 191 .
- (٣٢) عفاف صبرة : مرجع سابق ، ص ٢٠٠ ،
الصياد : مرجع سابق ، ج ١ ، ص ١٢ .
- (٣٣) حول تقسيمات الامبراطورية المغولية بعد
جنكيز خان انظر الصياد : مرجع سابق ،
ج ١ ، ص ١٦٣ - ١٦٥ .
- (٣٤) حافظ حمدي : مرجع سابق ص ٢٢٦ .
- (٣٥) الصياد : مرجع سابق ، ج ١ ، ص ١٨٠ -
١٨١ .
- (٣٦) الهمداني ، رشيد الدين بن فضل الله :
جامع التواريخ ، ٢م ، ج ١ ، نقله الى
العربية محمد صادق نشأت ، محمد موسى
هنداوي ، وفؤاد عبد المعطي الصياد ،
راجعه يحيى الخشاب ، القاهرة ، دار
احياء الكتب العربية ، ١٩٦٠ ، ص ٢٣٦ .
- Bertold : Op. Cit, p. 31. (٣٧)
- الهمداني : مصدر سابق ، ص ٢٦٠ . (٣٨)
- الصياد : مرجع سابق ، ج ١ ، ص ٢١٢ ،
٢٩٣ . (٣٩)
- Bertold ; Op. Cit, pp. 32-38, 41. (٤٠)
- Ibid , p. 26 . (٤١)
- ابن كثير : مصدر سابق ، ص ٣٢١ . (٤٢)
- ابن ابيك الدواداري ، ابو بكر عبد الله:
كنز الدرر وجامع الغرر ، ٨ج ، الدرة
الزكية في أخبار الدولة التركية ، تحقيق
- اولرخ هارمان ، القاهرة ، ١٩٧١م ، ص
٣٢٣ .
- المقريزي ، ابو العباس أحمد بن علي:
السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج ١ ، ص ٢ ،
تحقق محمد مصطفى زيادة ، القاهرة ،
١٩٥٦م - ١٩٥٨م ، ج ١ ، ص ٣ ،
٧٧٨ .
- ابن كثير : مصدر سابق ، ج ١٤ ، ص
٨٦ - (٤٤)
- Bertold, p. 45. (٤٥)
- ابن كثير : مصدر سابق ، ج ١٤ ، ص ٩٧ .
Bertold, p. 9. (٤٦)
- Michael weiers, « Von Ögödei
bis Möngke » , in : **Michael
weiers (Hreg) ; Die Mongolen,
chaft, Darmstadt, 1986, p. 197.**
- النسوي : مصدر سابق ، ص ١٧٢ . عفاف
صبرة : مرجع سابق ، ص ٢٠٠ .
- (٤٨) سونيا.ي.هاو : في طلب التوابل ، ترجمة
محمد عزيز رفعت ، مراجعة د. محمود
النحاس ، القاهرة ، مكتبة نهضة مصر ،
١٩٥٧ ، ص ٤٢ . السيد الباز العربي:
مرجع سابق ، ص ٣٢٢ .
- جوزيف نسيم : دراسات في تاريخ العلاقات
بين الشرق والغرب في العصور الوسطى ،
الاسكندرية ، مؤسسة شباب الجامعة ،
١٩٨٣م ، ص ١٤٧-١٤٨ .
- انظر الخارطة المرفقة في نهاية البحث .
- جوزيف نسيم : تاريخ العصور الوسطى
الاوربية وحضارتها ، الاسكندرية ، دار
المعرفة الجامعية ، ١٩٨٨م ، ص ٢٧٢ ،
٢٧٨ .
- رينية كلوزية : تطور الفكر الجغرافي ،
تعريب عبد الرحمن حميدة ، دمشق ، دار
الفكر ١٩٨٢م ، ص ٤٣ . سونيا هاو : مرجع
سابق ، ص ٦٨ .
- Michael Weiers : Op.Cit , pp.
200-209, 215 .

- (٥٢) حافظ حمدي : مرجع سابق ، ص ٣٠٣ .
- (٥٣) ابن بطوطة ، ابو عبد الله محمد بن ابراهيم اللواتي : رحلة ابن بطوطة ، بيروت ، مؤسسة الرسالة ، ١٩٨٥م ج٢ ، ص ٧١٧-٧٣٣ .
- (٥٤) محمد ابو جراد (مترجم) : الصين بلاد الطبيعة والجمال ، بكين ، دار النشر باللغات الاجنبية ، ط ١ ، ١٩٨٨ ، ص ١٧١ .
- (٥٥) Michael Weiers : Von Ögödei bis Müngke, pp. 209-210 .
- (٦١) سير توماس ارنولد : الدعوة الى الاسلام ، ترجمة وتعليق حسن ابراهيم حسن ، عبد المجيد عابدين ، واسماعيل النحراوي ، القاهرة ، مكتبة النهضة العربية ، ط ٣ ، ١٩٧٠ ، ص ٣٣٤ ، ٣٣٦ . جعفر خصباك :
- (٦٢) أحوال العراق الاقتصادية في عهد الايلخانيين المغول ٦٥٦ - ٧٣٧هـ / ١٢٥٨ - ١٣٣٦م ، بغداد ، مجلة كلية الاداب ، عدد ١٩٦١، ٤ ، ص ٤٩ . فهمي هويدي : الاسلام في الصين ، عالم المعرفة ، عدد ٤٣ / ١٩٨١م ، ص ٥٨ - ٦٢ ، ٦٥ .
- (٦٣) حافظ حمدي ، مرجع سابق ، ص ١٤٨ .
- (٦٤) Michael Weiers : Op. Cit, 209 .
- (٦٥) ابن ابيك الدواداري ، ابو بكر عبد الله ، كنز الدرر وجامع الغرر ، ج ٧ ، الدرر المطلوب في اخبار بني ايوب ، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور ، ١٩٧٢م ، ص ٢٥٣ - ٢٥٤ ، ٣٥٨ ، ٣٥٢ .
- (٦٦) ابن ابيك الدواداري : مصدر سابق ، ج ٨ ، ص ٩٠-٩١ .
- (٦٧) ابن عبد الظاهر ، محي الدين : الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ، تحقيق عبد العزيز الخويطر ، الرياض ١٩٧٦ ، ص ٨٥-٨٦ .
- (٦٨) ابن ابيك الدواداري : مصدر سابق ، ج ٨ ، ص ٢٤٨ .
- (٦٩) المقرئ : مصدر سابق ، ج ١ ، قسم ٣ ، ص ٣١٢ . ابن ابيك الدواداري : مصدر سابق ، ج ٨ ، ص ٣٦١ - ٣٦٢ .
- (٧٠) المقرئ ، ابو العباس احمد بن علي : المواعظ والامثال في ذكر الخطط والامار ، القاهرة ١٢٧٠ هـ ، ج ٢ ، ص ٢٢١ .
- (٧١) من السلاطين المالك الذين اعطوا امتيازات للمغول الوافدين الى مصر والشام السلطان زين الدين كنبغا (٦٩٤-٦٩٦هـ / ١٢٩٤ - ١٢٩٦م) .
- (٧٢) Aly Mazahreri; so lebten die Muselmanen im Mitellalter, Deutsche Verlags - Anschtalt, Stutugart, 1957 , p. 91.
- (٧٣) المقرئ : السلوك ، ج ١ ، ص ٥٥٠ .
- (٧٤) من حكام ايلخانية فارس الذين اعتنقوا الاسلام : تودار احمد بن هولكو ١٢٨٢ - ١٢٨٤م ، غازان بن ارغون ١٢٩٥ - ١٣٠٤م ، الجانيو محمد خدابنده ١٣٠٤ - ١٣١٦م ، ابو السعيد بن محمد خدابنده ١٣١٦ - ١٣٣٦م .
- (٧٥) محمد ابو جراد : مرجع سابق ، ص ١٧٢ .
- (٧٦) سونيا هاو : مرجع سابق ، ص ٢٧ .
- (٧٧) حافظ حمدي : مصدر سابق ، ص ٣٠١ .
- (٧٨) dtv. Atlas zur Weltgeschichte 23 Auflage, München, 1989, Banb 1,p. 187.



طريق الحرير - طريق الفجر بين الشعوب (نموذج حلب في العصر العثماني)

د. محمد م. الارناؤوط
جامعة اليرموك

« لقد سارت مع القوافل الفجرية الجواله المثقلة بالحرير والشاي جميع الافكار والاخبار والتقاليد والعادات خلال البلدان التي اجتازتها والتي استراحت فيها .. وقد اغنى الفجر الموسيقى والرقص والمسرح المتنقل وفن العرافة كما ساهموا مساهمة فعالة في تطوير بعض الصناعات اليدوية .. » (١) .

« حلب جديرة بهذا الاهتمام .. كانت على مر العصور محط القوافل التجارية العابرة شرق البلاد وغربها ... فاختلط سكانها بالعديد من الشعوب العربية والاجنبية وتم بين هؤلاء التمازج وظهر التأثير سواء في لغة الحديث أو في طرق العيش .. » (٢) .

مقدمة :

يُعتبر « طريق الحرير » من أقدم وأهم طرق التجارة بين الشرق والغرب ، وبالتحديد بين آسيا وأوربا ، وبالتالي في العالم ، خلال العصرين القديم والوسيط وحتى أواخر العصر الحديث تقريبا . الا أن هذه التسمية (طريق الحرير) ، التي كان أول من استعملها العالم الألماني فردينالد فون ريشتهوفن في القرن التاسع عشر ، لا تعني بطبيعة الحال ان هذا الطريق كان يستعمل للتجارة بالحرير فقط . فقد كان هذا الطريق يشحن الى الغرب أهم البضائع المرغوبة في العالم القديم والوسيط كالتوابل والعاج والاحجار الكريمة .. الخ (٣) . ومع هذا فقد كانت أهمية هذا الطريق عبر التاريخ لا تنبع فقط من نقل البضائع الثمينة والمرغوبة كالتوابل والحرائر والاحجار الكريمة ، بل من انتقال الافراد والافكار والاخبار من بلد الى اخر ومن قارة الى أخرى حتى أصبح هذا الطريق جسرا للتواصل بين الشعوب والحضارات . وهكذا برزت ونمت مع مرور الزمن ، نتيجة لهذا التواصل بين الشعوب والحضارات ، ظواهر جديدة في المجالات الثقافية والعلمية والاجتماعية ، وهي التي تحظى الان باهتمام الباحثين في مختلف البلدان (٤) .

(طريق الحرير - طريق الحوار)

وفي هذا الاطار يتميز هذا الطريق بأهمية خاصة بالنسبة لبعض الاقوام والشعوب . فقد كان هذا الطريق يشهد دائماً تنقل الافراد ، واحياناً تنقل الجماعات والاقوام ، من بلد الى اخر . وفي هذه الحالة كان الانتقال الجماعي للاقوام والشعوب يحمل معه خواصه الحضارية ، وبالتحديد نقل نمط الحياة بشكل كلي أو جزئي من بلد الى اخر ومن قارة الى اخرى . وفي هذه الحالة أيضاً كان التفاعل الحضاري يقوم بدوره بغض النظر عن مصير هذه الاقوام والشعوب في الاماكن الجديدة التي استوطنتها ، وبالتحديد استمرار هذه الاقوام والشعوب الاصلية أو ذوبانها في الشعوب التي حلت في وسطها(٥) .

ومن هذه الاقوام والشعوب يرتبط « طريق الحرير » بشكل خاص بالفجر حتى يمكن القول ان « طريق الحرير » كان « طريق الفجر » عبر التاريخ . فقد استمر الفجر خلال مئات السنين في الانسياع عبر هذا الطريق من أقصاه الى أقصاه ، وبالتحديد من الهند الى فرنسا وانكلترا . وهكذا من مقارنة الخرائط بين « طريق الحرير » و « طريق الفجر » يبدو لنا مدى التقارب أو مدى التطابق بين الطريقين خلال المراحل المختلفة . فقد كان الطريقان يسيران من الهند الى افغانستان ، ومن افغانستان الى بلاد فارس حيث يتم التشعب هناك في اتجاهين : نحو الشمال باتجاه بحر قزوين وارمينيا وروسيا ، ونحو الجنوب باتجاه الخليج العربي . ومن الخليج العربي كان الطريقان يصعدان شمالاً مع دجلة والفرات ليتفرعا أخيراً في اتجاهين : الاول نحو الاناضول والبوسفور ومن هناك نحو البلقان وأوروبا الغربية ، والثاني نحو حلب وفلسطين الى مصر(٦) .

ويذهب معظم الباحثين الى ان هذا الانسياع الكبير للفجر استمر منذ القرن التاسع للميلاد ، حين وصل الفجر الى بلاد فارس وبيزنطة(٧) ، حتى مطلع القرن الرابع عشر حين وصل الفجر الى بلاد البلقان ، حيث أخذوا منذ ذلك الحين يستقرون ويشدون غيرهم الى الاستقرار في البلاد الاوربية(٨) . وقد أدى توسع الدولة العثمانية حينئذ في هذه المناطق ، وبالتحديد في الاناضول والبلقان والشام الى دخول عدد كبير من الفجر في أراضيها حتى انها شكلت لهم سنجقاً خاصاً بهم(٩) . وتجدر الإشارة هنا الى انه في مطلع القرن السادس عشر الميلادي (١٥٢٢-١٥٢٣) أصبح لدينا احصاء عثماني دقيق عن الفجر في استنبول وبلاد البلقان ، وبالتحديد عن أماكن توزيعهم وديانتهم ومهنهم ، كما ان السلطان العثماني سليمان القانوني أصدر سنة ١٥٣٠م القانون الخاص بالفجر في الدولة العثمانية(١٠) .

ان الدافع وراء اختيار حركة الفجر عبر « طريق الحرير » من آسيا الى أوروبا لاجل هذا البحث يكمن في « نموذجية » الحالة الفجرية بالنسبة لطريق الحرير كطريق

للحوار والتواصل بين الشعوب ، وبالتحديد للتفعيل والتفاعل الحضاري . فالفجر أولا نجحوا ، على الرغم من الظروف الصعبة التي أحاطت بهم ، في الاحتفاظ بهويتهم المميزة في الاماكن الجديدة التي حلوا بها ، والتي تبعد الاف الكيلومترات عن موطنهم الاصلي ، وهو ما كان يثير ضيق البعض وأعجاب البعض الآخر . وما يهنا هنا ان الفجر نجحوا بالفعل في نقل « حضارتهم » (١١) الى الاماكن الجديدة التي حلوا فيها، حيث اصبحوا يتميزون ببعض المهن التي نقلوها معهم من الموطن الاصلي كممارسة الحدادة وصناعة المناخل والفرايل وترويض الحيوانات والعرافة والغناء والموسيقى والرقص .. الخ. ومن ناحية اخرى يمثل الفجر حالة نموذجية بالنسبة للباحث فيما يتعلق بتتبع المؤثرات المختلفة للاماكن التي عبروها في طريقهم الطويل وللشعوب التي احتكوا بها في تنقلهم من أقصى اسيا الى اقصى اوربا (١٢). وهم يتميزون بالكفاءة في الاقتباس من جميع الميادين ومن جميع الشعوب التي يحتكون بها ، وليس فقط بالكفاءة في الاحتفاظ بخصوصيتهم الحضارية . وبعبارة اخرى ان الفجر يمثلون في هذه الحالة مجالا خصبا لدراسة أشكال التفعيل والتفاعل الحضاري بين الشعوب المنتشرة على طول طريق الحرير .

اما فيما يتعلق بالدافع وراء اختيار حلب بالذات لاجل هذا البحث فيمكن في موقع حلب المهم بالنسبة لطريق الحرير وتطورها كمتروبول في مطلع العصر العثماني . فقد تطورت حلب بشكل سريع في مطلع العصر العثماني نتيجة لازدهار التجارة فيها بين الشرق والغرب ، حتى ان مساحة المدينة تضاعفت بسرعة وأصبحت تتميز بالانشآت العمرانية الضخمة (الخانات وغيرها) التي تعبر عن الدور الجديد الذي أخذت حلب تضطلع به في المنطقة (١٣) . ومن ناحية أخرى فقد أدى الازدهار التجاري والعمراني بحلب الى جذب السكان من مختلف المناطق ومن مختلف الاجناس والاديان حتى أصبحت بالفعل متروبولاً في المنطقة تماثل استنبول وسالونيك بالطابع العالمي . فبعد ان كانت أغلبية السكان من العرب المسلمين نجد ان المدينة اجتذبت مع ازدهارها التجاري في مطلع العصر العثماني عناصر جديدة من المسيحيين الشرقيين (الوارثة والارمن) والاوربيين (البنادقة والانكليز والبلجيكي والفرنسيين وغيرهم) ومن المسلمين العثمانيين (الاتراك ، الكرد ، الشركس ، الالبان والبوشناق) (١٤) بالإضافة الى الفجر الذين أصبحوا يعدون من العناصر السكانية للمدينة (١٥) .

ونظرا لطبيعة البحث فقد رأينا من الافضل توزيعه على خمسة محاور تعبر عن الاتجاهين المتعاكسين لدى الفجر لدى اختلاطهم مع الشعوب الاخرى : الاحتفاظ بالذات والانفتاح على الآخرين أو التأثير بالمحيط الجديد والتأثير في المحيط الجديد:

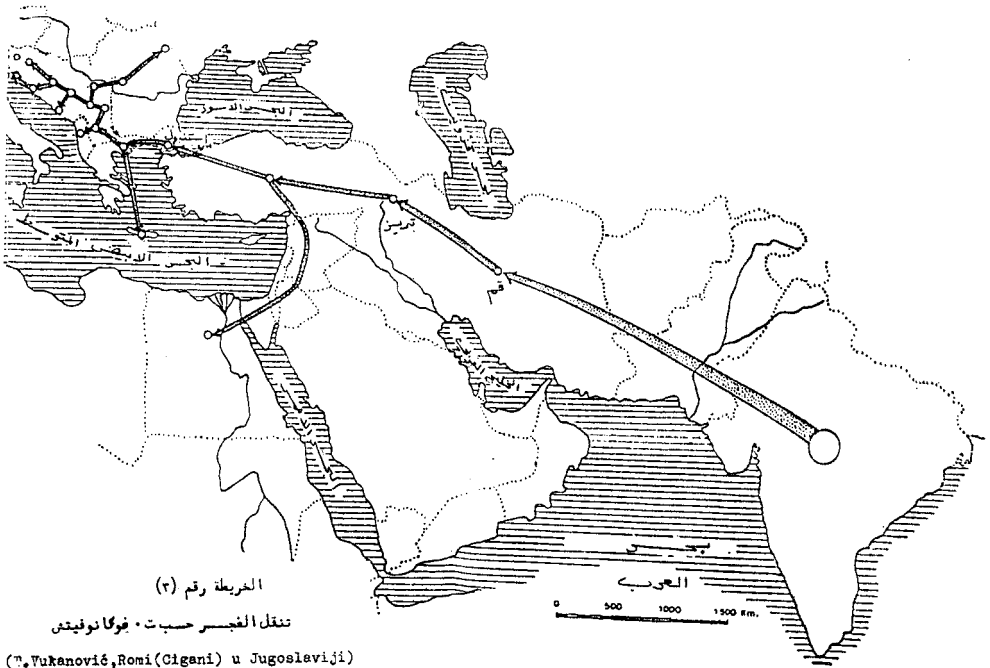
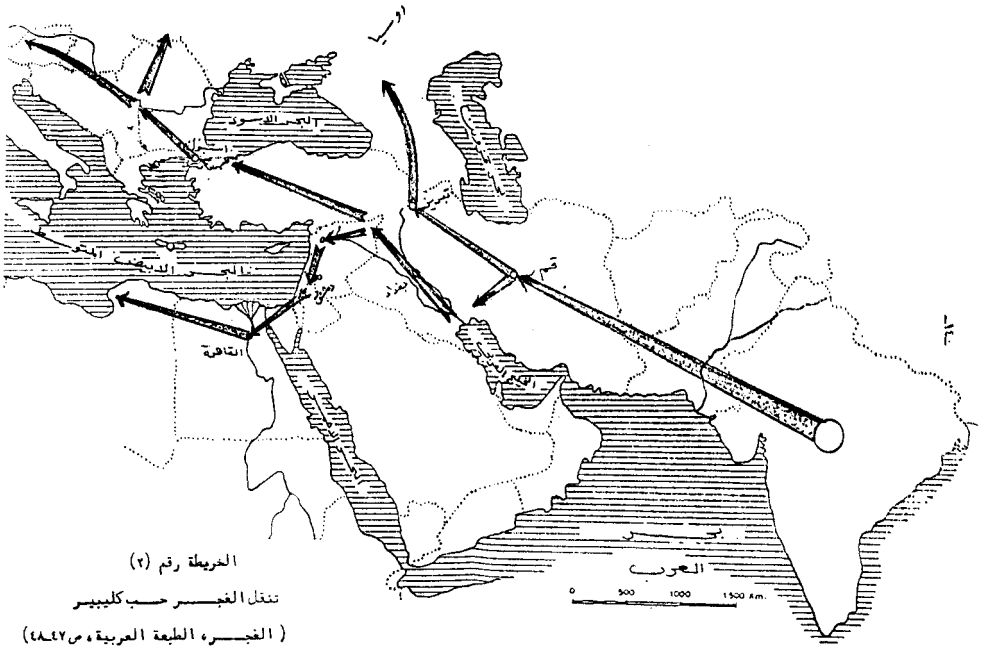
- ١ - الاسم ، ٢ - الدين ، ٣ - السكن ، ٤ - المهن ، ٥ - الفجر في نظر الغير .

اسم الفجر:

مع ان الفجر يميزون أنفسهم باسم مشترك كبقية الشعوب ، ألا وهو « روم » أو « دوم » في اللغة الفجرية ، الا أنهم عرفوا باسماء عديدة من قبل الشعوب الاخرى . وربما كان هذا غير مستغرب اذا ما أخذنا بعين الاعتبار كثرة الاماكن التي عبروها أو استقروا بها وكثرة الشعوب التي اختلطوا بها . وهكذا فيما يتعلق بالمنطقة العربية فقط نجد ان الفجر يعرفون باسماء عديدة كالزط والفجر والنور والقرباط والحلية والقاولية (١٦) .

أما فيما يتعلق بحلب فيلاحظ ان الفجر هناك قد اشتهروا باسم «القرباط» . وتجدر الإشارة هنا الى ان هذا الاسم يطلق على الفجر الى اليوم في شمال سورية وفي الساحل السوري (منطقة اللاذقية وطرطوس) . ويلاحظ هنا ان هذا الاسم يمتد ليشمل بشكل مستقيم الفجر من شمال أفغانستان الى شمال سورية مروراً ببلاد فارس . وفي الواقع يؤكد معظم الباحثين ان هؤلاء الفجر المنتشرين في أفغانستان وبلاد فارس وشمال سورية ، والمعروفين باسم واحد (القرباط) ، انما يعودون الى عشيرة واحدة (١٧) . ومع هذا يختلف الباحثون هنا في تفسير هذا الاسم الذي اطلق لأول مرة على الفجر في أفغانستان ، بعد وصولهم من الهند . فبعض العلماء يرى أنه مشتق من كلمة « غربة » العربية (غَرَبَة ← غَرَبَتْ ← غُرَبَات ← قَرَبَات) ، بينما يرى الآخرون أنه مشتق من كلمة « غوب » الفارسية التي تعني الغياب عن البيت والموطن (١٨) . ولا بأس من الإشارة هنا الى ان الفجر عرفوا بهذا الاسم (القرباط) أيضاً في بعض البلاد الأخرى التي رحلوا اليها واستوطنوا فيها كاليونان والباينا ويوغسلافيا (١٩) .

وكما هو الامر مع البلاد الأخرى فان الفجر في حلب أيضاً يحتفظون لانفسهم باسمهم الخاص . ففي العادة يعتبر الفجر الاسم الذي يطلقه المحيط المحلي عليهم لا يليق بهم (٢٠) . ولذلك يتمسكون باسمهم الخاص . وهكذا نجد في حلب أيضاً ان الفجر هناك يتمسكون باسمهم الاصلي « دوم » . وقد أورد لنا العلامة خير الدين الاسدي في « موسوعة حلب المقارنة » بعض المعطيات التي حصل عليها من الفجر أنفسهم في حلب ، والتي تتعلق باسمهم . فقد أورد الاسدي ما ذكره له الفجر من أن « اسمنا الاصلي دوم » ، وحتى انه أورد جملة في اللغة الفجرية « بابم دومه » أي « أبي قرباطي » (٢١) . وتجدر الإشارة هنا الى ان كلمة « دوم » هي من أصل درافيدي وهي تعني « رنة » في السنسكريتية ، ومن ذلك « دوماس » أي الشخص الذي يعيش على الرقص والغناء (٢٢) . ويبدو من هذا قدم الارتباط ، الذي سيرد معنا لاحقاً ، بين الفجر والرقص والغناء الذي شاع عنهم في كل مكان حلوا فيه .



دين الفجر :

كان الفجر كغيرهم من سكان الهند القدماء يؤمنون ببعض المعتقدات الخاصة ، فكانوا يعتقدون بالاله العظيم دل Del أو دفل Devel أو القوة المعطاءة الخالقة للعالم والبادية في كل مجال للعالم (السماء ، المطر ، الطبيعة .. الخ) وبالشيطان بنغ beng أو القوة الشريرة والمعارضة التي كانت قد شاركت الاولى في خلق الارض (٢٣) . الا أن الفجر ، وبما عرف عنهم من كفاءة في التكيف والتفاعل مع الاوساط الجديدة التي استقروا فيها ، سرعان ما أخذوا يعتنقون أديان الشعوب التي اختلطوا معها ويصبحون أحيانا أشد إيمانا بها من أصحابها الاصليين (٢٤) . ومع هذا لا يخلو الامر من اتهامات خطيرة توجه أحيانا للفجر على أساس أنهم شعب لا دين له . ولكن الواقع يوضح لنا ان الفجر مثلهم مثل غيرهم من الشعوب ، بينهم المتدين الحقيقي والمتدين الظاهري ، وهم يدينون عادة بالدين الرسمي للدولة التي يعيشون فيها (٢٥) .

وفيما يتعلق بحلب تجدر الإشارة هنا الى ملاحظة مهمة وردت لدى مؤرخ حلب المعروف الغزي . ففي كتابه « نهر الذهب في تاريخ حلب » يذكر الغزي عن الفجر أنهم « متى توطنوا بلدا دانوا بدين العنصر الغالب عليه » (٢٦) . ويفهم بالاستناد الى هذه العبارة ان الفجر في حلب اعتنقوا الاسلام كما في البلاد العربية المجاورة (٢٧) . ويؤكد الغزي نفسه في موضع آخر ان الفجر في حلب « مسلمون يقومون بشعائر الدين الاسلامي بتمامها فيصومون ويصلون .. » (٢٨) .

سكن الفجر :

يعتبر السكن من العناصر المعبرة عن الشخصية الخاصة بالفجر والمحافظة على هذه الشخصية في آن واحد . فالشعور بالتميز والاحساس بالحذر من الآخرين ، بالإضافة الى الرغبة الدفينة في الابقاء على « العالم الفجري » ، كان يدفع الفجر في كل مكان وصلوا اليه الى العيش ضمن تجمع خاص بهم . وكان هذا « التجمع » يأخذ شكل معسكر بالقرب من المدن ، أو موقع مؤقت في ضواحي المدن . ولكن مع توسع المدن في العصر الحديث أخذت تتبلور وتتطور المحلات أو الحارات الخاصة بالفجر في المدن الشرقية والبلقانية (٢٩) . ولا شك انه مما ساعد على هذا التطور ان مفهوم المدينة في الدولة العثمانية كان يقوم على التعددية الدينية والقومية ، بحيث ان كل طائفة أو قومية في المدينة العثمانية كانت تتميز بحارة أو محلة خاصة كـ « حارة اليهود » و « حارة النصارى » و « حارة الاكراد » الخ (٣٠) .

وهكذا في حلب أيضا ، كما في بقية المدن المجاورة (٣١) ، نجد للفجر حارة خاصة بهم تسمى « حارة القرباط » وتقع شرق جامع التوبة ، أي في ضاحية حلب القديمة وقلب حلب الحديثة (٣٢) . وقد وصل عدد بيوت هذه الحارة في أواخر العصر العثماني

الى (٧٩) بيتا ، وعدد سكانها الى (٣٩٢٠) نسمة كلهم من المسلمين (٢٣) . وتبدو هذه الحارة ، بالاستناد الى وصف الاسدي المعاصر والمهتم بها ، كاية « حارة غجرية » اذ أن بيوتها كانت مبنية من الطين ومطلية بالكلس بينما يمر الكهريز مكشوفاً وسط الشارع . الا أن هذه الحارة ، كبقية حارات حلب القديمة ، لحقها الهدم ضمن مشروع تجميل حي النرب في الثمانينات (٢٤) .

المهن الخاصة بالفجر :

تعتبر « المهن الفجرية » من عناصر التفعيل الحضاري للفجر ، أي من العناصر التي قام الفجر بنقلها من موطنهم الاصلي (الهند) الى المواطن الجديدة التي استقروا فيها ، واشتهروا بها بين الشعوب المختلفة . وبعبارة أخرى يبدو في هذا المجال دور الفجر في التواصل الحضاري بين الشعوب في أنهم نقلوا بعض المهن من موطنهم الاصلي ونجحوا في اثارة اهتمام الاوساط الجديدة التي حلوا فيها بهذه المهن ، ولكنهم بقوا في الوقت نفسه يحتكرون هذه المهن كالتنجيم والرقص والغناء وترويض الحيوانات والحدادة وصنع بعض الادوات من الخشب (السلال والمناخل والقذور الخ) حتى أصبحت مرادفة لهم .

وتجدر الاشارة هنا الى ان ارتباط الفجر بهذه المهن انما يعود الى وضعهم الاجتماعي في الوطن الاصلي (الهند) . فقد كان نظام الطبقات في الهند القديمة يفرض على الطبقات الاجتماعية الدنيا والمتبوذين احترام المهن التي تشتمل منها الطبقات العليا لأسباب دينية أو اقتصادية . وهكذا لو نظرنا الى قائمة المهن المحرمة والملعونة التي احتوتها « قوانين مانو » Manava Dharma Sastra التي يعود تاريخها الى القرن الاول قبل الميلاد ، لوجدنا ان الفجر قد احترفوا بالذات تلك المهن التي حرّمها مانو كالتنجيم والرقص والغناء وترويض الحيوانات والحدادة الخ (٢٥) . ولكن هذه المهن التي كانت محرمة وملعونة في الهند لم تعد كذلك خارج الهند ، حيث أخذ الفجر يشتهرون بها ويتعيشون منها (٢٦) .

وهكذا نجد في حلب ، كما في البلاد المجاورة ، ان الفجر قاموا بدورهم في نقل واحتكار بعض المهن التي بقيت مرتبطة باسمهم . ومن هذه المهن التي اشتهروا بها في حلب العرافة أو التنجيم . وحول هذا يذكر لنا الاسدي في « موسوعة حلب المقارنة » ان « القرباط نساء ورجالا ماهرون جدا في فتح الفال » (٢٧) . وإلى جانب هذا اشتهر الفجر في حلب بشكل خاص باحتراف الرقص والغناء حتى أصبحوا يُعرفون باسم « المطاربة » ، أي اصحاب الطرب أو المطربون ، وذلك « لان منهم الطبال والزممار والعبلة والحجيات » كما يقول الاسدي (٢٨) . وتجدر الاشارة هنا الى أنه في العراق المجاور يطلق على حي الفجر اسم « حي الطرب » لاحتراف أو احتكار الفجر لهذه

(طريق الحرير - طريق الحواد)

المهنة (٢٩) . وفي الواقع ان الفجر يقدر ان يشكل خاص الطبول والدفوف ، التي يجيدون الضرب بها ، والتي يرجح ان تكون ذات اصل هندي (٤٠) . وبالإضافة الى هذا اشتهر الفجر في حلب ، كما في كل مكان ، باحتراف صنع المناخل والغرابيل وتجليد الطبول من شعور وجلود الحيوانات الميتة ، ولذلك اختصوا في حلب بالتجارة في جلود الدواب الميتة (٤١) . وهكذا في اطار حديثه عن « الصنائع في حلب » سلم الغزي بان الفجر في حلب هم الذين يختصون بهذه الصنعة (شد المناخل والغرابيل وتجليد الطبول) (٤٢) .

الفجر في نظر الغير (المحيط المحلي او الحلبي) :

لقد مر معنا ان الفجر يتميزون بنقل نمط معيشتهم من الموطن الاصلي الى المواطن الجديدة التي يستقرون فيها ، ويشتهرون باحتراف مهن معينة قد تختلف النظرة اليها من مكان الى آخر ومن شعب الى آخر . وبالإضافة الى هذا فقد تميز الفجر باستسلامهم لوضعية دونية في المجتمعات التي استقروا فيها، والتي كانت تبقيهم في حالة غجرية متماسكة . ولأجل هذا لا يعد من المستغرب أن تشكل صورة نمطية عند كل طرف ازاء الطرف الاخر . ولا شك ان الادب الشعبي في هذه الحالة يعتبر المصدر الغني للتعرف على الصورة النمطية التي يكونها ويحفظها كل طرف عن الطرف الاخر (٤٣) .

وهكذا نجد ان الادب الشعبي في حلب ، كما في الادب الشعبي للشعوب المجاورة، يحفل بصورة نمطية غنية للوسط المحلي (الحلبي) عن الفجر . ان العنصر الاول في هذه الصورة النمطية يعبر عن دونية الفجر ويتمثل في المثل الشعبي « مثل شيخ القرباط : كبير في عين حالو زغير بعين الناس » (٤٤) . وتجدر الإشارة هنا الى أنه من التقاليد الاساسية للفجر انتخاب زعيم او رئيس للجماعة او العشيرة الفجرية في كل مكان ، وهو عادة ينتخب مدى الحياة وتمتد سلطته لتشمل الجماعة او العشيرة كلها وبذلك يمتلك الحق في فرض اية عقوبة ، بما في ذلك عقوبة الطرد ، بحق الافراد ولا يعتبر نفسه مسؤولا امام احد (٤٥) . وبعبارة أخرى فان سلطة الزعيم او الرئيس مطلقة على اتباعه ولذلك يحظى بمكانة كبيرة بين الفجر ، الا انه ليس كذلك في نظر الغير او الوسط المحلي الذي ينظر اليه باعتباره من فئة دونية . اما العنصر الثاني في هذه الصورة النمطية عن الفجر فهو الفقر ويمثله المثل القائل « عند القرباط ما في قيمق » (٤٦) . ولا شك ان هذا العنصر ينسجم مع العنصر الاول المتعلق بالفجر كقوة وضيفة او دونية ، الا انه لا يعبر تماما عن واقع الحال . وقد أشار المؤرخ الغزي في وقته الى ان الفجر ليسوا متساويين في الفقر كما قد يبدو بل يوجد بينهم « الاغنياء واهل اليسار » (٤٧) . وهكذا نجد ان « الفقر الفجري » ليس فقرا بالمعنى المعروف

دائما وانما هو يمثل أيضا نمطا معيشيا يتخلص به « أغنياء الفجر » من فضول وتطاؤل الوسط المحلي (٤٨) .

ويشير العنصر الثالث في هذه الصورة النمطية الى حرص أو بخل الفجر ، ويعبر عنه المثل القائل « كأنك قرباطي » (٤٩) . ولدينا ما هو أكثر من هذا إذ ان الفجر أو القرباط في حلب أغنوا اللهجة الحلبية بفعل « قَرَبَط » الذي أصبح يستعمل بمعنى « بخل » (٥٠) . ويبدو لنا ان هذا العنصر ينسجم أيضا مع العنصر الاول والثاني ، الا أنه لا يعبر تماما عن واقع الحال . فالمؤرخ الغزي ، الذي يبدو من تاريخه انه على معرفة جيدة بالفجر في حلب ، يقول في تعليقه على هذا المثل الشائع في حلب أنه « يوجد في بعضهم من السخاء ما لا يوجد في كثير من الاغنياء » (٥١) . أما العنصر الرابع في هذه الصورة النمطية فيتعلق بانطباع شائع عن الفجر ويمثله المثل القائل « القرباطي ما بقول لمرتو وين كنتي ، بقول لا : اش جبتي ؟ » (٥٢) . ويرتبط هذا في الواقع بنظرة الفجر الى العمل ، وبالتحديد بدور المرأة في العمل . فالمرأة الفجرية تشتهر بانها امرأة عاملة ويعتمد دخل الاسرة كلها في بعض الجماعات الفجرية على ما تدره المرأة من ربح من الاعمال التي تمارسها . وتتجول النساء الفجريات عادة لممارسة العرافة (فتحال) أو بيع الادوات التي يصنعها الزوج ، كالسلال والمناخل والقذور والملاعق الخشبية الخ . ، ولذلك يهتم الفجري لحرصه على المال بسؤال زوجته عندما تعود الى البيت عما جمعته من مال طيلة النهار . ولاشك ان هذا ينسجم مع العنصر الثالث للصورة النمطية عن الفجر ، الذي يتعلق بحرص أو بخل الفجر ، ولكنه بالطبع لا ينسجم مع نظرة الوسط المحلي لخروج المرأة من البيت للعمل بهذا الشكل .



الحواشي :

- (١) من مقدمة لطفي الخوري للترجمة العربية لكتاب :
Jean-Paul Clebert, The Gypsies, London 1963.
جان - بول كليبير ، الفجر - دراسة تاريخية اجتماعية فولكلورية ، ترجمة لطفي الخوري ، بغداد ، وزارة الثقافة والاعلام ، ١٩٨٦ ، ص ١١ .
- (٢) من مقدمة محمد كمال لـ « موسوعة حلب القازنة » ج ١ ، حلب ، جامعة حلب ، ص.ج.
- (٣) ف. هايد (W. Heyd) تاريخ التجارة في الشرق الادنى في العصور الوسطى ، ج ١ ، ترجمة احمد محمد رضا ومراجعة د. عز الدين فودة ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٥ ، ص ١٣ .
- (٤) **Nëpër rrugët e mëndafshit « Bashkimi » , Tiranë 30. 11. 1990, f. 8.**
- (٥) للتوسع حول هذا انظر نماذج من هذه الحالات (النموذج الافاري ، النموذج ، الهنغاري ، النموذج الفجري) لدى :
برومليه - بودولني ، الانوس و التاريخ ، ترجمة طارق معصراني ، موسكو ، دار التقدم ، ١٩٨٨ ، ص ٢١٨ - ٢٣٠ و ٢٥٠ و ٢٥٤ .
- (٦) انظر الخرائط .
- (٧) يميل معظم العلماء الى تحديد القرن التاسع كبداية لتحرك الفجر نحو الغرب بينما يذهب الباحث المعروف كليبير الى تحديد سنة ١٠٠٠م كتاريخ مناسب : كليبير ، ص ٤١ .
- (٨) من مقدمة لطفي الخوري للترجمة العربية لكتاب :
Jean-Paul Clebert, The Gypsies, London 1963.
جان - بول كليبير ، الفجر - دراسة تاريخية اجتماعية فولكلورية ، ترجمة لطفي الخوري ، بغداد ، وزارة الثقافة والاعلام ، ١٩٨٦ ، ص ١١ .
- (٩) هناك خلاف بين الباحثين حول « السنجق الفجري » . فأنالجيك وسرت أوغلو مثلاً يعتبران أن هذا السنجق لم تكن له حدود أرضية بقبية السنجاق بل كان يشمل الفجر في استنبول وبلاد البلقان . أما ت غكبلجين T. Gekbilgin فيعتبر أن هذا السنجق كان له مركز بقبية السنجاق (كرك كليسه أو لوزن غراد **Lozengrad** في بلغاريا الآن) :
- Djuric, s. 46; Tatomir Vukanovic, Romi (Cigani) u Jugoslaviji, Vranje, 1983, s. 44.
M. Mujic , « Polozaj Cigana u jugoslovenskim zemljama pod otomanskom vascu », POF III-IV, Sarajevo 1953 , s. 146-155.
- (١١) تتميز « الحضارة » الفجرية بكونها حضارة حرفية اذ أن الفجر يميلون الى الحرف ويأتفون من الفلاحة ، ولذلك يعتبرون أنفسهم ارقى من الآخرين . وتجدر الاشارة هنا الى أن الفجر يطلقون على غيرهم اسما مشتركا يدل على استعلائهم الا وهو «كاجو» gadjo الذي يعني « الفلاح » أو « الزارع » :
كليبير ، ص ٩ .

- (١٢) انظر كنموذج لذلك الادب الشعبي للفجر ، حيث تبدو مثلاً « الاضافات » العربية - الاسلامية التي لحقت بهذا الادب خلال تنقله من الهند الى أوروبا :
- (١٣) عبد الله يوركي حلاق ، حليبات ، حلب ١٩٨٣ ، ص ٦٧ - ٧٥ ، أندريه ريمون ، العواصم العربية عمارتها وعمرانها في الفترة العثمانية ، تعريب قاسم طوير ، دمشق ، دار المجدد ، ١٩٨٦ ، ص ٣٧ ، عبد الفتاح رواس قلعجي ، حلب القديمة والحديثة ، بيروت ، مؤسسة الرسالة ، ١٩٨٩ ، ص ٥٢ .
- (١٤) J.M. Wagstaff, The Evolution of The Middle Eastern Landscapes, London 1985, p. 196.
- (١٥) القس جبرائيل رباط الرومي الملكي ، حلب ومنطقتها ، تعريب فتح الله قسطن ، حلب ١٩٢١ ، ص ٣٦ ، قلعجي ، حلب القديمة والحديثة ، ص ٣٠٠ .
- (١٦) Bayard Taylor, The Land of the Saracen, New York 1855, reprint Arno Press 1977, p. 208; Abdul - Rahman Hamide , La ville d'Alep, Paris 1959, p.13-14. Hamidé, p. 14
- (١٧) د. مصطفى جواد ، الفجر في المراجع العربية مجلة « العربي » ، عدد ١٢٦ ، الكويت ايار / مايو ١٩٦٩ ، ص ٣٥ - ٤٠ .
- (١٨) Djuric, s.34. Ibid.
- (١٩) المصدر السابق ، ص ٣٤ . ولكن هذا لا ينفي وجود أسماء أخرى مشهورة أكثر للفجر في هذه البلدان . ففي ألبانيا مثلاً اشتهروا باسم Jevgjët المنحدر من اسم مصر Egipt و باسم arrinjgji للدلالة على ممارستهم ترويض وترقيص الدبة ، وهي المهنة التي
- (٢٠) اشتهروا بها في بلاد البلقان بشكل عام . في باكستان على سبيل المثال يطلق الوسط المحلي على الفجر اسم « جات » ، وهو في الاصل اسم لعشيرة غجرية يعتقد انه انحدر منها اسم « زط » في العربية ، الا أن الفجر هناك يرفضون هذا الاسم لانه يعتبرونه يحمل المذلة لهم ، ولذلك يفضلون مثلاً تسمية أنفسهم بـ « القرباط » : Djuric, s. 35. خير الدين الاسدي ، موسوعة حلب المقارنة ج ١ ، ص ٢٤ .
- Djuric, s. 20.
- وانظر أيضاً : كليبر ، ص ٢٧ .
- Djuric, s. 31-33.
- وانظر أيضاً : كليبر ، ص ٢٣٠ - ٢٣٢ .
- كليبر ، ص ٣٨ .
- دكتور نبيل صبحي حنا ، البناء الاجتماعي والثقافة في مجتمع الفجر ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٨٣ ، ص ٢٨ - ٣٩ .
- كامل بن حسين بن مصطفى بالي الحلبي الشهير بالفزي ، نهر الذهب في تاريخ حلب ، ج ٢ ، حلب ، المطبعة المارونية ، ١٣٤٢ هـ ص ٥٠٦ - ٥٠٧ .
- طه حمادي الحديثي ، الفجر والفرج في العراق الموصل ١٩٧٩ ، ص ١٢ .
- الفزي ، ج ٢ ، ص ٥٠٦ - ٥٠٧ .
- « مع القوم الجماعي للفجر في المناطق السلافية (شبه جزيرة البلقان) » ، وبعد فتح الاتراك لاراضي البلقان ، نشأت ظاهرة عمرانية تاريخية مهمة : تجمع الفجر في حارات خاصة . ففي العصر الاقطاعي القروسي كان الفجر يعيشون بشكل مختلط مع بقية السكان سواء في المدن أو في الريف ... أما في العصر التركي ، وحيثما وصلت سلطة الامبراطورية العثمانية ، فقد أصبح الفجر يعيشون في حارات خاصة . ومن المؤكد أن التجمع العمراني للفجر قد وفر لهم مزايا تاريخية واجتماعية واثنية اذ انه حافظ على كليتهم الفجرية (اللغة والعقيدة) : Vukanivic, s. 88-89 .

جورج الرابع عرافة غجرية ، كما كانت للملكة اسبانيا عرافة غجرية ، أما قياصرة روسيا فقد كانوا كلهم يعتمدون على عرافات غجريات: J. A. Hammerton, **Lands and Peoples of the world**, vol. V, Delhi (India) , pp. 1907-1911.

- (٣٧) الاسدي ، ج ٦ ، ص ١٦ .
 (٣٨) الاسدي ، ج ٧ ، ص ١٣٨ .
 (٣٩) الحديثي ، ص ٥٨ . ويسوق لنا الحديثي (ص ١١٨ - ١١٩) احصائية مذهشة تبين ان عدد المشتغلين في الرقص والفناء من الغجر في العراق يبلغ ١٤٤٧ فنانا من الذكور والاناث ، أي بنسبة تساوي ٨١٪ من مجموع « القوى المنتجة للغجر » .
 (٤٠) كليبر ، ص ١٩٩ .
 (٤١) الغزي ، ج ٢ ، ص ٥٠٦ - ٥٠٧ .
 (٤٢) الغزي ، ج ١ ، ص ١١٠ .
 (٤٣) انظر على سبيل المثال الصورة النمطية للعربي كما تبدو في الادب الشعبي الغجري : قصص شعبية غجرية ، ص ٢٩-٣٠ .
 (٤٤) الاسدي ، ج ٥ ، ص ١١٦ .
 (٤٥) كليبر ، ص ٢١٨ - ٢١٩ .
 (٤٦) الاسدي ، ج ٦ ، ص ١٧٠ .
 (٤٧) الغزي ، ج ٢ ، ص ٥٠٦ - ٥٠٧ .
 (٤٨) يشفر الغجر بحق أنهم ملاحقون دوماً بأنظار المجتمع المحلي ، الذي « يستكثر » عليهم أي شيء . ومن هنا فقد برز مثلاً في مصر المثل القائل « حاسدين الغجر على ضل الشجر » : حنا ، البناء الاجتماعي والثقافة في مجتمع الغجر ، ص ٤١١ .
 ولذلك فان مظهر الفقر يحمي « أغنياء الغجر » في هذه الحالة من فضول وتناول المجتمع المحلي .
 (٤٩) الغزي ، ج ٢ ، ص ٥٠٦ - ٥٠٧ .
 (٥٠) الاسدي ، ج ٦ ، ص ١٧٠ .
 (٥١) الغزي ، ج ٢ ، ص ٥٠٦ - ٥٠٧ .
 (٥٢) الاسدي ، ج ٦ ، ص ١٧٠ .
 (٥٣) حنا ، ص ٣٦ .

- (٣٠) ريمون ، ص ٧١ .
 (٣١) الحديثي ، ص ٥٢ - ٥٨ .
 (٣٢) لقد ورد ذكر الغجر gpsies في هذه المنطقة - المحلة خلال « انتفاضة حلب » سنة ١٨٥٠ :
 Syria and Egypt under the last five sultans of Turkey , edited by E.B.B. Barker. vol.2, London 1876, reprint Arno Press 1973, p. 291 .
 وفي الواقع لقد أقيمت هذه الحارة بين جامع التوبة وباب النيرب ، أحد أبواب حلب الذي سمي بهذا الاسم لانه كان يفضي الى قرية النيرب القريبة . ولكن مع الزمن توسعت حلب كثيرا خارج الابواب وأصبحت « حارة القرباط » في قلب المدينة الحديثة : قلعجي ، حلب القديمة والحديثة ، ص ١٠٦ - ١٠٧ .
 (٣٣) الغزي ، نهر الذهب في تاريخ حلب ، ج ٢ ، ص ٥٠٦ - ٥٠٧ .
 (٣٤) خير الدين الاسدي ، أحياء حلب وأسواقها، حققه وزد عليه وقدم له عبد الفتاح رواس قلعجي ، دمشق ، وزارة الثقافة ، ١٩٨٤ ، ص ٧٠ .
 (٣٥) جاء في هذه القوانين ما يلي : « من الضروري الاحتراس من محترفي المهن الوضيعة هؤلاء الذين يمتنون الشعوذة (مادة ٨ فقرة ١٠٢) وقرء الطالع والحظوظ والكف (مادة ٩ فقرة ٢٨٥ و ٢٥٩) ومربي الكلاب التي تدرب لعرض ألعايبها على الناس (مادة ٣ فقرة ١٦٤) وكذلك الراقص المحترف (مادة ٣ فقرة ١٥٥) وتجنب اللعب بالنرد والرقص والفناء والعزف على الآلة الموسيقية (مادة ٧ فقرة ٤٧) . . . ولا يجوز للبراهمي تناول طعام من يشتغل بالمعادن حتى ولو كان صائغا للذهب أو للفضة (مادة ٤ فقرة ٢١٥) . . . » .
 كليبر ، ص ١٦٩ - ١٧٠ .
 (٣٦) بسبب هذه المهارة حظي الغجر بدخول قصور ملوك أوروبا . فقد كان للملك الانكليزي

صفحات من تاريخ الجمعيات في بلاد الشام

جمعية الجامعة العربية

د. سهيلة الريماوي
الجامعة الاردنية

جمعية الجامعة العربية ، تنظيم سياسي سري ، يقع في نطاق التنظيمات ، السرية والعلنية، التي أسسها العرب العثمانيون في الامبراطورية العثمانية بعد «انقلاب ١٩٠٨ الحزبي» ، والذي يعرف باسم الانقلاب الدستوري أو انقلاب «المشروطية» ، واکراه السلطان عبد الحميد على إعادة اعلان «المشروطية» ليصبح الحكم مقيدا ، أو مشروطا بمراعاة احكام القانون الاساسي تحت مراقبة مجلس الامة .

وتسميتنا لهذا الانقلاب ، بالانقلاب الحزبي ، ترجع لعدة أسباب منها :

ان هذا التغيير الكبير في طبيعة نظام الحكم تحقق نتيجة «انقلاب» قام به أعضاء حزب سري هو حزب الاتحاد والترقي ، أو جمعية الاتحاد والترقي ، أعاد الحياة الدستورية ، وفتح قیام نظام برلماني نشيط وحياة حزبية علنية ومشروعة في الامبراطورية من جهة ، وتوج انتصارا حزبيا اقام «حكما حزبيا» بعد أقل من سنة ، (١٩٠٩) بعد أن تمكن من خلع السلطان عبد الحميد اثر الانقلاب المضاد ، وتعرض للأحزاب القائمة في الامبراطورية آنذاك بما وضعه من تشريعات دستورية وقانونية تتعلق بحرية تكوين الجمعيات السياسية التي تشمل الأحزاب ، وبما يترتب على سياسته العامة ، وبصفة خاصة ، تجاه القوميات وحقوقها وتنظيماتها الحزبية ، من نتائج . وقد شجع هذا الوضع الحزبي ابناء القوميات الاخرى على تأسيس الأحزاب ، فأخذت قوميات «الرعية» العثمانية تؤسس الأحزاب ، وتضع لها النظم الاساسية . ويقول الاعظمي انه تأسس في أنحاء الامبراطورية أكثر من ثلاثمائة حزب (١) . وهكذا أصبحت مسألة التنظيم السياسي ، إحدى أهم المسائل التي فرضها واقع الامبراطورية العثمانية الحزبي ، والوطن العربي جزء منه .

وكان رواد القرن التاسع عشر من المفكرين والدعاة العرب قد طرحوا قضية الجمعيات السياسية بعد أن أسسوا الحلقات العلمية والجمعيات الخيرية والادبية . وفي أواخر القرن التاسع عشر حدث (تطور ايجابي) لهذه الجمعيات العلمية أدى الى مد الجسور نحو فكرة تأسيس الجمعيات السياسية ، فتصور بعضهم وجود مثل هذه الجمعيات كما فعل الكواکبي في كتابه أم القرى عندما ناقش حالة «الفتور» التي أصابت العرب والمسلمين (٢) «وشخص» أسبابها من خلال مناقشة أعضاء الجمعية

دراسات تاريخية ، العددان ٣٩ و ٤٠ ، كانون الاول ١٩٩١

(الوهمية) لهذه الحالة ، والبعض الآخر دعا صراحة لتأسيس التنظيمات السياسية بل وساهم في تأسيسها مثل رشيد رضا (٢) ومحب الدين الخطيب (٤) ورفيق العظم (٥) وغيرهم ، حتى كان الانقلاب الحزبي ١٩٠٨ .

الواقع الحزبي غداة الانقلاب العثماني :

اصبح الواقع الحزبي غداة الانقلاب العثماني يتكون من حزب حاكم هو حزب الاتحاد والترقي ، في مواجهة ثلاثة أحزاب أخرى كانت قائمة في الامبراطورية قبل الانقلاب ، وأعلنت عن وجودها بعده ، وهي :

— حزب التثبيت الشخصي واللامركزية الادارية ، وفيه قلة من العرب ورئيسه الامير صباح الدين .

— جمعية الشورى العثمانية ، واكثريتها من العرب ورئيسها الشيخ رشيد رضا .

— جمعية النهضة العربية ، وأعضاؤها من العرب فقط ورئيسها محب الدين الخطيب .

وقد انطلقت هذه الاحزاب من عقالتها باعلان الدستور وشاركت جمعية الاتحاد والترقي احتفالاتها ، ولكن الوضع تطور سريعا وجذريا خلال السنوات العشر من حكم الاتحاديين وذلك تبعا للصراع الذي كان يدور في الامبراطورية العثمانية حول محورين رئيسيين :

— محور الاستبداد في صورته الجديدة . اذ حكم الاتحاديون حكما استبداديا مقنعا بالدستور ، مما ادى الى عدم المساواة بين المواطنين .

— محور القوميات وتشبيها بالمساواة في الحقوق السياسية القومية .

وكانت سياسة حزب الاتحاد والترقي الحاكم تجاه هذين المحورين ، وخطته في تنفيذ هذه السياسة ، من العوامل الحاسمة في تطور تأسيس الاحزاب والحياة الحزبية في الامبراطورية العثمانية ، فمن ناحية أصبحت مشكلة القوميات مطروحة بصورة اكثر وضوحا وحدة ، بعد أن جاء استلام جمعية الاتحاد والترقي للحكم انتصارا لمبدأ التسلط القومي التركي المركزي المنع بقناع وحدة الامبراطورية والحفاظ على الخلافة . ومن ناحية أخرى ، جاءت المادة لارابعة من الدستور مخيبة آمال العرب وغيرهم من القوميات ، فنصت : « يمنع تأسيس الجمعيات والنوادي والصحف بأسماء قومية » . وعندما عرضت على التصويت في مجلس المبعوثان حصلت على اكثرية الاصوات بنسبة (٦٠ ضد ٤٠) (٦) .

أسس العرب جمعياتهم بشكل سري وفي مقدمتها الجمعية القحطانية وجمعية العربية الفتاة السرية (٧) وغيرها ، كما ألفوا عدة جمعيات علنية في مقدمتها حزب اللا مركزية الادارية العثماني ، وأصبح النادي العربي يسمى بالمنتدى الادبي ، وكان ملتقى جميع التيارات الفكرية العربية بما يشبه « الجبهة » في وقتنا الحاضر ، وكان الطابع العام لهذه الجمعيات السياسية ، السرية منها والعلنية ، هو طابع الاصلاح في الامبراطورية . غير ان سياسة الاتحاديين المتزمتة ، وضعف الدولة أمام هجمات الاوروبيين على ممتلكات السلطان في افريقيا ، وسقوط طرابلس الغرب بيد الايطاليين وانفصال البلقان وعلان استقلاله ، كل ذلك أدى الى قطع خيط التفاهم الرفيع بين العرب والأتراك ، ولجوء العرب الى تأسيس جمعيات سياسية سرية في مواجهة هذا الضعف العام للامبراطورية ، كان من أشهرها جمعية العهد العسكرية (٨) وجمعية الجامعة العربية .

جمعية الجامعة العربية :

رائد تأسيس هذه الجمعية السرية هو الشيخ رشيد رضا ، الذي ولد في سورية سنة ١٨٦٥ في منطقة القلمون وتوفي بالقاهرة سنة ١٩٣٥ . ومن أبرز أعضائها محب الدين الخطيب ، ورفيق العظم .

هاجر الشيخ رشيد رضا الى مصر هرباً من استبداد السلطان عبد الحميد وبطشه في أواخر القرن التاسع عشر ، وأسس مجلة المنار في أواخر عام ١٨٩٧ فاحتلت مكاناً مرموقاً بين المجلات العربية والاسلامية ، وأصبحت أكثرها جرأة في تحدي الاستبداد ، بالمقالات التي نشرتها وحملتها عناوين جديدة بالنسبة لصحافة ذلك العصر ، وعالجت مشكلة الخلافة ، ومشكلة الدين والدولة ، وطالبت باستعادة مجد العرب ، وقارنت بين العرب والترك ... الخ .

وفي المجلد الاول للمنار (فاتحة العدد ٣٩) اقترح الشيخ رشيد رضا تشكيل جمعية دينية توحد المسلمين ، على أن تكون مكة المكرمة مقرها ، ويبرر صاحب المنار تفضيله مكة على (دار الخلافة) بعدة أسباب ، منها تجمع المسلمين في مكة أثناء تأدية فريضة الحج وبعدها عن دسائس الاجانب (٩) .

وطالب رشيد رضا بتعميم اللغة العربية في الدولة العثمانية ، وطالب الخليفة العثماني أن يكون البادئ في هذا التوحيد ، وذكر عدة أسباب ترجح اللغة العربية على اللغة التركية في وجوب تعميمها ، أولها : انها لغة القرآن الكريم ، ويقول : « .. ان لغة الدين تجمع قلوب المسلمين ويفهمها أكثر علماء الدين في الاقطار الاسلامية (١٠) » . كما طالب بالاستقلال بعدة مقالات نشرها تباعاً في المنار تحمل عنوان « استنهاض امم »

شرح فيها الاستقلال وبين الفرق بين الاستقلال السياسي والاستقلال الجنسي، بقوله: « اما الاستقلال السياسي فهو أن تحكم الأمة نفسها بنفسها »، والاستقلال الجنسي هو « ان تحافظ الأمة على لغتها ودينها » (١١) .

واسس الشيخ رشيد رضا في سنة ١٩٠٦ جمعية الشورى العثمانية في مصر، وفتح أبوابها لجميع العثمانيين ، عربهم وتركهم والبانهم . الخ . وكان أعضاء هذه الجمعية على صلة بالاحرار العثمانيين في استامبول وبقية البلدان عن طريق المنشورات التي كانت تدخل البلاد بواسطة البريد الاجنبي العائد للسفارات الاجنبية : وكان مصونا من المراقبة بسبب الامتيازات الاجنبية (١٢) وافتتحت الجمعية الفروع في انحاء الامبراطورية ومنها اليمن (١٣) .

وفي المجلد العاشر من مجلة المنار (١٩٠٧) نادى الشيخ رشيد رضا بصورة علنية بضرورة تشكيل الجمعيات السياسية ، « فهي التي ظهرت اوروبا من استبداد الملوك والبابوات » وعلل ندائه بتأييده لعلماء الاجتماع الذين ينادون بتأليف الجمعيات ، وفي رايه : « لا ترتقي امة الا بعد ان تنبه حوادث الزمان افرادا من اولي الالباب فيها الى وجوب السعي لترقيتها ورفع شأنها ، وأول ما يجب عليهم هو تأليف الجمعيات للتعاون على ما يجب القيام به من الاعمال . ويؤكد رشيد رضا في مقالاته التي تحمل عنوان : « منافع الاوروبيين ومضارهم في الشرق » الى « ان الجمعيات هي السبب الاول والعلة الاولى لكل ارتقاء » ويضرب المثل بأوروبا حين يقول : « بها (أي بالجمعيات) صلحت العقائد والاخلاق في اوروبا وبها صلحت الحكومات وبها ارتقت علومها وفنونها » (١٤) .

وقد حاول احمد رضا بك ضم جمعية الشورى الى جمعية الاتحاد والترقي بعد الانقلاب فأبى مجلس الادارة ذلك . واخذت جمعية الاتحاد والترقي تطارد الجمعيات القائمة آنذاك ، ومنها جمعية الشورى العثمانية ، حتى تمكنت من حلها واستقطبت بعض اعضائها ، وبدأت تتبع سياسة التتريك العنصرية المعروفة .

نشأة جمعية الجامعة وظروف تأسيسها :

ويمكننا تحديد تاريخ نشوء الجمعية ، منذ ان كانت فكرة تدور في رأس مؤسسها حتى صدور نظامها الاساس ، من كتابات الشيخ رشيد رضا ، في مجلة المنار ، وبمقدمة كتاب « مجموعة اثار رفيق العظم » ، ثم بالاستناد الى ما أشار اليه الاستاذ محب الدين الخطيب في مذكراته المخطوطة . ويقول الشيخ رشيد رضا ما معناه : انني على اشتغالي الاساسي بالاصلاح الاسلامي العام كنت اسعى مع بعض

احرار العثمانيين من الترك وغيرهم لاصلاح الدولة العثمانية ، ولما اعلن فيها الدستور تجدد الرجاء لجميع الشعوب العثمانية بحياتها ونهضتها بالدولة فكنت ابث في الشعب العربي العثماني أنه : « يجب أن يوجه استعدادده ليكون عضوا رئيسيا كالترك في الدولة ينهض بها وتنهض به » . ثم يقول : ذهبت الى الاستانة للسعي لدى الدولة فيما تحيا به ويحياء الاسلام وتتحده العرب أمم الاتحاد ، وبعد معالجة العمل سنة كاملة اقتنعت بان هذه الدولة غير مستعدة للبقاء وان انحلالها بايدي رجالها من اعضاء جمعية الاتحاد والترقي ضربة لازب ، وان العرب اذا لم يؤسسوا بانفسهم لانفسهم بناء للاستقلال القومي فلا بد من سقوطهم بسقوطها ان لم يسقطوا قبلها بسعيها(١٥) . ويقول في مكان اخر « عرفت الشريف عبد الله في الاستانة سنة ١٣٢٨ هـ الموافق سنة ١٩١٠ م »(١٦) . وفي مكان ثالث : « عرفت في الاستانة نجله عبد الله (الكلام علي الحسين بن علي) وكنا نشتغل في ذلك الوقت بتكوين الجامعة العربية فرأيت منه ميلا اليها ورغبة في تأييدها فتعارفنا وتواعدنا على ذلك وعقدنا رابطة المودة »(١٧) . ويذكر أيضا : ان هذه الجمعية هي اخر الجمعيات التي اشترك في تأسيسها مع رفيق العظم ... « وكان الملجئ اليها انكسار الدولة العثمانية في حرب البلقان » ويضيف : « ووضعت الجمعية نظاما ولم يقنع رفيق العظم بضرورة هذه الجمعية الا بعد أن رأى من انكسار الدولة في حرب البلقان ما اقنعه بأن ليس لها من القوة الذاتية ما يضمن بقاءها وانها عرضة للزوال فجأة اذا صدمتها صدمة اخرى(١٨) .

مما تقدم يتضح لنا ان فكرة تكوين جمعية الجامعة العربية نبتت في الاستانة بعد الانقلاب الدستوري وعلى الأرجح سنة ١٩١٠ ، أما تاريخ تأسيسها فيمكن تحديده ما بين سنة ١٩١٢ و ١٩١٣ ، أي بعد الحروب البلقانية وسقوط طرابلس الغرب بيد ايطاليا ، ويظهر أن رفيق العظم لم يقتنع بتأسيس هذه الجمعية ،لانه كان يؤسس حزب اللامركزية الادارية العثماني العلني في القاهرة ، وكان الشيخ رشيد رضا ومحب الدين الخطيب من أعضائه المؤسسين .

أما بالنسبة لنشاط الجمعية ، فيلقي الشيخ رشيد رضا ضوءا في مجلة المنار على هذا النشاط في كلامه على الشريف عبد الله بن الحسين وزيارته لمصر وهو في طريقه الى الاستانة لحضور جلسة مجلس المبعوثان فيقول : نزل ضيفا في قصر عابدين كعادته ، وكانت المودة قد رسخت بيني وبينه ، فزرت في عابدين ضحوة يوم الجمعة ١٧ شعبان سنة ١٣٣٢ الموافق ١٠ يوليو سنة ١٩١٤ وكتبت عقب الزيارة في مذكرتي ما نصه : « دخل الشريف في الجامعة العربية وحلف اليمين الكبرى كبتها له بورقة وقرأها على سبيل الانشاء كما قال »(١٩) .

هذه الدلالات توصلنا الى النتائج التالية :

— ان تأسيس الجمعية تم في مصر بعد عودة الشيخ رشيد رضا من الاستانة .

- ان الشيخ رشيد رضا وضع نظاما أساسيا للجمعية قبل انتهاء حرب البلقان .
— ان الجمعية كانت قائمة ونشطة بعد انتهاء حرب البلقان فعلا بدليل انها كسبت من الاعضاء رفيق العظم ثم الشريف عبد الله سنة ١٩١٤ .

اسباب تأسيس الجمعية وغاياتها ومبادئها :

لم نعثر على دستور هذه الجمعية أو نظامها الاساسي الذي ورد في أقوال الشيخ رشيد رضا السالفة ، وأنه وضع قبل ان ينضم رفيق العظم اليها ، فمجلة المنار لم تذكر شيئا عن تفاصيل هذا النظام . غير ان الاستاذ محب الدين الخطيب واحسان الجابري اكدا بأنه كان للجمعية عند تأسيسها نظام أساسي مختصر هو في جوهره تأكيد الالتزام بالعمل لجمع قلوب الامراء والمنظمات العربية ولذلك سميت « الجامعة العربية » (٢٠) . ولكن ما كتبه مؤسس الجمعية الشيخ رشيد رضا عنها في المقدمة التي وضعها لكتاب « مجموعة اثار رفيق العظم » أو في مجلة المنار التي كان يصدرها في القاهرة يوفر لنا المادة اللازمة لاستخلاص الاسباب الدافعة لتأسيسها وتحديد أهدافها ومبادئها . يقول :

« كان اخر الجمعيات السرية التي اشتركنا في تأسيسها (يعنى هو ورفيق العظم) جمعية عربية أسست للتأليف بين امراء جزيرة العرب ، وللتعاون والاتفاق بين الجمعيات السياسية التي انشئت في الولايات العربية وفي الاستانة لمقاومة تعصب الاتحاديين ، وضغطهم على العرب ، ولحفظ حقوق العرب في الدولة والعمل لمستقبلهم » يؤكد رشيد رضا في أكثر من مكان ، ان تأسيس هذه الجمعية كان ضروريا بقوله : كان تأسيس هذه الجمعية ضروريا لان آفة العرب المفسدة لجميع مواهبهم الفطرية هي التفرق والاختلاف وكان الملجأ اليها انكسار الدولة العثمانية في حرب البلقان والخوف على البلاد العربية ان تتخطفها الدول المستعمرة ، فرأى المؤسسون ان قوة العرب في جزيرتهم وانها لا يمكن الانتفاع بها الا بتأسيس اتحاد حلفي يجمع بين امرائها وكان قد سبق لهذا تمهيد من بعض المؤسسين ثم وضع له النظام الذي يرجى تنفيذه . واما الجمعيات العربية فكانت مختلفة المقاصد وليس بينها من التعارف والاستعداد للاتحاد عند الحاجة ما يؤمن معه سوء المغبة ويرجى به حسن العاقبة فوضعت الجمعية نظاما لذلك (٢١) .

ويصوغ الشيخ رشيد رضا الغرض من تأسيس هذه الجمعية بصيغة محددة فيقول : « أما جمعية الجامعة العربية التي اسسناها بعد عودتي من الاستانة فكان الغرض الاول منها أمرين : أحدهما السعي لاتحاد حلفي بين أمراء جزيرة العرب للاتفاق ومنع الشقاق ، والثاني: التعاون على عمران البلاد والدفاع عنها ، وللتعاون بين الجمعيات العربية في سوريا والعراق وغيرهما » (٢٢) .

وهو هدف يؤكد رشيد رضا أنه « كان ضروريا » يقتضي تأسيس هذه الجمعية لان مؤسسي الجمعية كانوا يرون بوضوح الحقائق التالية القائمة حينئذ في الحياة السياسية العربية وهي :

١ - ان آفة العرب المفسدة لجميع مواهبهم هي التفرق والاختلاف ، وهذا في رأينا يدل على بعد نظرهم .

٢ - ان السبب المباشر في الاقدام على تأسيس الجمعية هو الخوف على البلاد العربية ان تتخطفها البلاد المستعمرة بعد ان ظهر هذا الخطر للعيان في حرب البلقان ، وضياح طرابلس الغرب .

٣ - ان قوة العرب في جزيرتهم وانه لا يمكن الانتفاع بهذه القوة الا بتأسيس اتحاد حلقي يجمع بين امراء هذه الجزيرة .

٤ - ان الجمعيات العربية كانت مختلفة المقاصد بعيدة عن التعارف والاستعداد للاتحاد بصورة خطيرة تتطلب بذل الجهد لتوحيدها بتأسيس جمعية جديدة ذات نظام جديد يستوعب تلك الجمعيات ويتخطاها ، وهذا السبب - في رأبي - هو الذي حمل بعض مفكري العرب الى الدعوة الى قيام « حركة عربية واحدة » تتخطى الجمعيات القائمة وتستوعبها (٢٣) .

القسم :

قسم الجمعية هو الوثيقة الوحيدة التي عثرنا عليها مما يتصل بمرحلتها الاولى ، اورده الشيخ في المجلد ٣٣ من المنار عندما تعرض لبعض نشاطاته في تكوين الجمعية وفي ضم الامير عبد الله بن الحسين الى عضويتها ، وهذا نصه :

« اقسم بالله العظيم القهار ، المنتقم الجبار ، العالم بسري وعلايتي ، القادر على سلمي كل ما اعطاني من المواهب والقوى ، وبكتاب الله المجيد ، انني ابذل جهدي وما في وسعي لجمع كلمة العرب والتأليف بين امرائهم وتأسيس ملك جديد لهم بحسب القواعد التي وضعتها لذلك جمعية الجامعة العربية التي انتظم في سلكها اليوم وانني اسعى لذلك مع أعضاء هذه الجمعية بمنتهى الصدق والاخلاص وانني لا ابخل في سبيل ذلك بمالي ولا بنفسي ولا يلفتني عنه هواي وحظي الشخصي ولا حظ احد من أهلي وولدي وانني احافظ على مقاصد الجمعية واسرارها باشد ما احافظ على ديني وشرفي وعرضي فلا افشي لها سرا ولا اعارض لها عملا ولا اقول قولا ولا اعمل عملا يخالف مقاصدها او يحدث فيها خلاا او يقع فيها فشلا لعله من العلل ولا لسبب من

الاسباب وانني أقوم بكل عمل يكلفني اياه مركزها العام من مقاصد هذه الجامعة أو وسائلها بحسب استطاعتي .

عليّ عهد الله وميثاقه لأبرنّ بقسمي هذا بلا تأويل ولا عذر ولا كفارة وان حثت بشيء مما تضمنه أو غدرت أو أفشيت سرا أو قلت أو فعلت ما يضر هذه الجامعة أو أحدا من العاملين لها أو يخل بشيء من أعمالها أو يخالف شيئا من مقاصدها فعلي اثم من حقر اسم الله ونبذ كتاب الله وبريء من الدين والشرف ومن ذمة العرب وأستحق انتقام الله ولعنته ولعنة الملائكة والناس أجمعين وانتقام الجامعة العربية وكل من يفار على ملته وأمته وكان من الخائنين الملعونين الى يوم الدين والله على ما أقول وكيل وشهيد « (٢٤) » .

ولعل أهم ما في هذا القسم تحديده لهدف الجمعية بصورة واضحة هي « جمع كلمة العرب والتأليف بين أمرائهم وتأسيس ملك جديد لهم » . وبإشارة صريحة الى تأسيس « ملك جديد » للعرب . ولكننا لا نجد ما يدل على القواعد التي وضعتها الجمعية من أجل تأسيس هذا الملك الا اذا اعتبرنا أن الدستور الذي أشرنا اليه آنفا ، يحتوي على هذه القواعد .

تطور جمعية الجامعة العربية في عهد الحكم العربي - الفيصلي :

أدت التطورات الكبيرة التي لحقت بالقضية العربية خلال الفترة بين تأسيس جمعية الجامعة العربية وبين قيام العهد العربي - الفيصلي الى تطور كبير طرأ على هذه الجمعية ، وشمل اسمها ، الذي أصبح « الوحدة العربية » ، كما شمل دستورها وقسمها . فصدر الدستور المعدل في وثيقة وجدناها بين وثائق الاستاذ محب الدين الخطيب بعنوان « ما يجب معرفته على كل عربي وعربية .. مبادئ أساسية » . أما القسم المعدل فقد نشرته مجلة المنار (٢٥) وسأذكر نصه فيما بعد .

تتكون هذه الوثيقة من مقدمة ومتن يضم خمسة فصول هي حسب ترتيبها :

— جمعية الوحدة العربية — مبادئها الأساسية الاربعة .

— واجبات أعضائها .

— ما يجب أن يعرفه العربي .

— العرب والثقافة .

— شعار دعاة الوحدة العربية .

اما المقدمة فانها تبرز ثلاث نقاط جديرة بالانتباه :

الاولى : مخاطبة كل عربي وعربية في مختلف الاقطار العربية وتقديم الكراسة اليه ، وفي هذا تعبير واضح عن الشمول القومي المتميز للجمعية .

الثانية : تحديد مضمون ذلك الخطاب بأنه القضية العربية التي ترحو الجمعية من كل عربي وعربية في مختلف أقطار العرب أن يقرأ كراستها المقدمة اليه من أجل : « تكوين فكرة صحيحة عن حقيقة القضية العربية وأهدافها وعن بعض ما يجب أن يعرفه كل عربي عنها وعن واجباته نحوها » .

وفي استعمال تعبير « القضية العربية » دلالة واضحة على الشمول القومي للاهداف التي تعتبر عناصر تكون قضية واحدة هي القضية العربية .

الثالثة : الاخذ بأسلوب جماهيري متميز يبدو في رجاء الجمعية وهي تطرح كراستها « أن يتفضل كل من يقرأها بتقديمها الى صديقه أو جاره بعد الانتهاء منها » الى آخر المقدمة .

واما المتن بفصوله الخمسة فانه يشتمل على مبادئ الجمعية الاساسية وعلى أهدافها وعلى معالم منهاجها في العمل ، بالاضافة الى كثير من الافكار المتناثرة بين الفصول الخمسة التي يمكن أن نقول بأنها ، بمجموعها ، تكون فلسفة هذه الجمعية أو عقيدتها ، وعلى الاخص ما ورد في الفصل الثالث المسمى « ما يجب أن يعرفه العربي » .

وعلى الرغم من أنه يبدو من عنوان الفصل الثاني من الدستور المعدل ، المسمى « واجبات الاعضاء » ، انه فصل ينحصر في تحديد واجبات الاعضاء ، الا أن عددا كبيرا من مواده السبع عشرة لا يقع في نطاق تحديد واجبات الاعضاء ، بل في نطاق الافكار والمبادئ والاهداف .

تفتتح الجمعية دستورها بتأكيد أربعة مبادئ تعدها المبادئ الاساسية :

- (١) تعريف الامة العربية وتعريف الوطن العربي وتحديد من هم العرب .
- (٢) تأكيد وحدة الوطن العربي ووحدة الامة العربية ورفض التجزئة .
- (٣) رفض الاستعمار بجميع أشكاله وصوره ومناصرة مبدأ الحرية للجميع .
- (٤) تأكيد هدف الوحدة العربية باعتباره حاجة طبيعية وتحديد النظام الذي تريده الامة العربية لهذه الوحدة .

وتبرز لنا في الصيغ التي أوردت فيها الجمعية هذه المبادئ السمات التالية :

أولا : وصف هذه المبادئ الأربعة بأنها المبادئ الأساسية ، وهو وصف يضعها في مرتبة أكثر عمقا وأهمية من الأفكار والمبادئ الأخرى الواردة في بقية فصول الدستور . وهذا التصنيف يخص بعض المبادئ بسمه الأساسية ويجعلها في مستوى المنطلقات بالنسبة لغيرها من المبادئ أو الأفكار ، وهو في ذاته موقف فكري عقائدي يسجل لجمعية الوحدة العربية .

ثانيا : بروز التفاعل العضوي بين الأمة والوطن في هذه المبادئ ، فنجد الأمة العربية تعترف بأنها « التي تسكن الاقطار المتاخمة الممتدة بين المحيطين الاطلسي والهندي » ، ويعترف العرب بأنهم « الذين لغتهم العربية يتأدبون بآداب الأمة العربية ويستوحون ماضيها ويعتزون بعزتها وعزة الانتساب إليها » .

ونجد كذلك أن تأكيد وحدة الوطن العربي مبني على كون « البلاد العربية وطنا واحدا امتزج سكانه منذ آلاف السنين وتكونت وحدته الثقافية من قرون عديدة ، فكل ما طرأ عليه من تجزئة مخالفة لارادة أبنائه لا تفره الأمة العربية ولا تعترف به .

يبدو مما سبق أن جمعية الوحدة العربية تبني وحده الأمة العربية والوطن على أسس الحياة والتاريخ واللغة ، وتبرز بصورة خاصة وحدة الماضي والثقافة والاعتزاز كعوامل أساسية في تكوين الأمة ، وهو موقف فكري قد نراه اليوم مفتقرا الى بعض العناصر ولكنه يبقى مستندا الى عناصر كلها صحيحة ويتمسك به الكثير من المفكرين حتى اليوم .

ثالثا : بروز رفض الأمة العربية للاستعمار بجميع أشكاله من أية جهة جاء ، ولأي سبب استند ، بروزا واضحا وقويا مرتبطا في الوقت ذاته مع فكرة الحرية ومع عمومية هذه الفكرة والتزام العرب بمناصرتها بالنسبة لجميع الشعوب .

رابعا : تأكيد هدف الوحدة العربية تأكيدا يقوم على أساس انها حاجة طبيعية فيرفعها بذلك الى مستوى يرفض مناقشتها كوسيلة لانها حاجة طبيعية .

وعلى الرغم من هذا فان المادة ١٧ من الفصل الثاني « واجبات الاعضاء » تبين موقف الجمعية ورايها في الدعامة الاقتصادية للوحدة العربية ، إذ تنص على « اعتبار البلاد العربية وحدة اقتصادية طبيعية لا تنافس بين أقطارها ولا تضارب وتنظيم استغلال كل منها تنظيما علميا دقيقا » .

فاذا انتقلنا بعد هذا العرض الموجز للمبادئ الأساسية الأربعة الى الفصول الأخرى نجد أن الانسب بأن نتبع تحليلنا للمبادئ الأساسية بتحليل لمواد الفصل الثالث « ما يجب أن يعرفه العربي » قبل أن نقف عند الفصل الثاني ، وهو واجبات الاعضاء . وذلك لان المواد الثلاث عشرة التي تكون الفصل الثالث تنطوي على أفكار

ومفاهيم نظرية أقرب ، في مستواها ، من غيرها للمبادئ الأساسية وأكثر التصاقا بها حتى ليكاد يصح القول بأن فهم تلك المبادئ لا يتيسر الا بدراستها في نطاق أفكار الفصل الثالث .

يتكون هذا الفصل من ثلاث عشرة مادة ، في المواد الأربع منها تعاريف محددة للعبارات التالية على التوالي :

الوطن العربي ، الأمة العربية ، القومية العربية ، القضية العربية .

وما بلغت النظر ، الى جانب ما في تعريف الوطن والأمة من تفصيل يضع حدود الوطن العربي ويحدد أقطاره ويعرف الفرد العربي كذلك ، تعريف القومية العربية وتعريف القضية العربية .

أما القومية العربية فتعرف بأنها « مجموعة الصفات والمميزات والخصائص والارادات التي ألفت بين العرب وكونت منهم أمة متحدة في الوطن واللغة والثقافة والتاريخ والمطامع والألام والجهاد المستمر والمصلحة المادية والمعنوية المشتركة .

وأما القضية العربية فتعرف بأنها « هي الحركة التي يقوم بها العرب لتحرير أمتهم من الاستعمار والاستعباد والفقر والجهل ومختلف ضروب الوهن بتأليف كتلة أو كتل قومية عربية قوية متحضرة تنهض بكيان العرب المادي والمعنوي وترفع من شأنهم وتشد من أزهم في أداء رسالتهم الانسانية والعمرانية » .

وواضح ان في هذا التعريف خلطا بين القضية العربية والحركة العربية يعجز عن التفريق بينهما من حيث كون القضية هي في مجموع الأهداف بينما الحركة تنصرف الى عملية الصراع والتطور التاريخي على طريق تحقيق هذه الأهداف او تنصرف لاداءات منظمة تقود عمليات هذا الصراع والتطور . ولكنه من العدل ان نقول ان النقد الذي يوجه الى هذين التعريفين لا يقل أبدا من أهمية ادراك جمعية الوحدة العربية لوجود حقيقتين جديرتين بالتعريف والتوضيح هما القومية العربية والقضية العربية ، وان هذا النقد بذاته يصح في مبادئ وافكار الكثير من المنظمات والاحزاب العربية المعاصرة ، الامر الذي يقلل من أثره في تقييم المستوى الفكري لواضعي دستور جمعية الوحدة العربية وعلى الاخص عندما يقيم في نطاق عصره .

وتوضح الجمعية في المواد التسع التالية من هذا الفصل موقفها تجاه عدة مسائل أولية واساسية ومنها :

١ - مسألة الدولة . فتشير المادة الخامسة الى ان الدولة العربية التي تنشدها

هي دولة قومية لا دينية ، لان الاديان عندها هي سبيل المرء الى خالقه ولان العبادات مقدسة ومحترمة على الدوام .

٢ - مسألة الحريات . فتشير الجمعية الى ان الحريات العامة حق مقدس للجميع ولكن يسوغ للقانون تقييدها عندما تتطلب ذلك مصلحة الامة العربية (بقية المادة الخامسة) .

٣ - أما المسألة الثالثة فهي ان حق العربي في كرامته وحرية ووطنه ، شأن حق الامة العربية في كل ذلك، هو « حق مقدس لا يجوز التخلي عنه للاجنبي سواء بالرضى أو بالارهاب » (مادة ١١) .

٤ - وأما المسألة الرابعة فتتعلق بالوحدة العربية ، وتحددها عدة مواد :

« ان فكرة الوحدة العربية هي نتيجة طبيعية تترتب على وجود الامة العربية وتستمد نشاطها من حياة اللغة العربية وتاريخ الامة العربية واتصال البلاد العربية بعضها ببعض » (مادة ١٣) . « وان العروبة هي وسيلة النجاة فما من قطر عربي يستطيع النجاة العاجلة او الاجلة من الفقر والجهل والاستعباد والاستعمار الا بعروبه » (م ١٢) . « وان العربي يجب ان يؤمن بوحدة الهدف فيؤمن بان هدفه القومي واحد لا يتجزأ مهما تختلف أساليب الوصول اليه وان جميع الجهود الفردية والجماعية يجب ان توجه الى هذا الهدف كما ان المساعي التي تبذل في هذا القطر العربي أو في ذاك لا يجوز أن تؤدي الا الى التحرر والاتحاد » (٧م) .

ولا يملك المقيم للفكر العربي القومي الا ان يقف باعجاب امام هذه المفاهيم التي تكون بالمعنى والمبنى مستوى من الوعي القومي ارقى من المستويات التي وصلت اليها اكثر الافكار السياسية والحزبية العربية .

٥ - وأما المسألة الخامسة التي تتطرق اليها مواد هذا الفصل فهي مسألة « المنهاج » فتبرز معالم المنهاج الذي اكدته جمعية الوحدة العربية في دستورها وهو المنهاج القائم على ثلاث دعائم هي :

الايمان : فسبيل كل نهضة محفوف بالصعوبات « فليس غريباً ان تصادف النهضة العربية ما تراه من عقبات ولكن ايمان العربي بمستقبله لا يتزعزع وعزيمته لا تكل من جراء المصاعب التي تعترضه والمساوىء التي يلحظها والتي واجهت مثلها وأشد منها وتغلبت عليها جميع الامم التي نهضت واتحدت في التاريخ » .

ويؤمن العربي ايمانا راسخا بان الامة العربية التي نهضت في الماضي نهضتها الجبارة لا بد لها من ان تستأنف نهضتها وتسترد المكانة اللائقة بماضيها المجيد في العالم الجديد (م ٦) .

أساليب الجهاد : ليست أقطار العرب اليوم في العلم او الفن او الاستقلال سواء . لذلك جاز ان تتنوع أساليب الحركات السياسية والاجتماعية فيها ولكن يجب ان يقوم بينها جميعا تعاون صادق وتآزر متبادل لتنسيق الجهود وتوجه الحركات المختلفة نحو الغاية الموحدة وذلك بمكافحة النزعات والارادات الفردية او الاقليمية التي لا تتفق مع أهداف العرب العليا وتنظيمها تنظيمًا يحقق هذه الاهداف (م ٨) .

الجهاد : تعود العربي واحجامة عن الانتظام في مواكب المجاهدين عار وضلال يشبهان الخيانة ومثله الاخلال بالنظام وفي ميسور كل عربي ان يجاهد بيده أو قلمه أو لسانه أو ماله أو قلبه ولا عذر لتخلف ولا سيما في ساعات الخطر أو أوقات البعث والنهضة .

٦ - البعد الانساني : وتتطرق جمعية الوحدة العربية الى موقفها من الانسانية جمعاء (م ١٠) بقولها : ان التعاون الانساني والدولي هو مبدأ وهدف انساني شامل يتمسك به جمعية الوحدة العربية وتضع مفاهيمها المذكورة انفا في نطاقه كما ترسم لهذا المبدأ مضمونه وحدوده القومية وتؤكد في معرض بيان سمات العمل القومي العربي انه « ليس في مطامع العرب اعتداء على أحد فهم انسانيون متعاونون دوليا في حدود النظم العالمية التي لا تؤذي نهضتهم وكيانهم ولا تمس كرامتهم على انهم يعملون بالطبع على مقاومة كل اعتداء يقع عليهم ويعدون عملهم هذا دفاعا مشروعاً عن النفس (مادة ١٠) .

وبهذه الصياغة لمفهوم مبدأ التعاون الانساني والدولي تقف الجمعية موقفا سليما وعمليا من هذه القضية ، يؤكد بوضوح حقوق الامم في تقرير مصائرهما ويبرز أهمية التعاون الانساني والدولي بمقدار ما يؤكد ويبرز الحق الطبيعي في دفاع الامم عن نفسها ومصائرهما .

أما الفصل الثاني : المسمى « واجبات الاعضاء » فانه يشتمل على سبع عشرة مادة تحدد بعض الواجبات التي فرضتها الجمعية على أعضائها ومؤيديها من الافراد والجماعات على حد نص الدستور . واذا كنا نجد فعلا في هذه المواد حضا للاعضاء والمؤيدين على اداء « واجبات » معينة فاننا نجدها مصاغة بصيغ عامة لا تجيز لنا ان نعتبرها تحديدا تفصيليا لواجبات حزبية داخلية أو حركية يومية ، يقدر ما هي توكيد لبعض المبادئ الاجتماعية التي لا يملك احدا الا ان يعجب بما فيها من معاني « التقديمية » سيما اذا قيمت بالنسبة لوضع عصرها وأهم هذه المبادئ :

١ - تأكيد شأن المرأة العظيم في النهضة القومية وتأكيد واجب الجمعية في ان
تشاركها في الجهود المبذولة لاستعجال النهضة العربية .

٢ - تأكيد بعض المبادئ الاساسية الاقتصادية والانتاجية التي يمكن ان نلمح فيها
بذور تطلعات اشتراكية وذلك بالنص على مايلي :

أ - العمل اشرف موارد الانتاج (م ٦) .

ب - ايجاد العمل للجميع وتمكين كل عربي من القيام بعمل منتج مفيد (م ٧)
اي مقاومة البطالة .

ج - تأمين التعليم والعلاج والطمانية والصحة لكل عربي وعربية .

د - تفضيل المنتجات العربية على غيرها في الاسواق (م ٨) .

هـ - تحسين حال المعيشة في الريف وتشجيع السكنى فيه بمختلف الوسائل
الصحية والاجتماعية (م ١١) .

و - تنظيم الثروات على أساس تحديد الحد الاقصى للدخل والحد الأدنى
للاجور (م ١٢) .

ز - القيام بمشروعات عمرانية للزراعة والري والصناعة وانشاء مصانع ومعامل
ومزارع وشركات لاستثمار الثروات المائية والارضية (م ١٤) .

ح - جميع الصناعات والحرف متساوية في الشرف من الوجهة الاجتماعية (م ١٣) .

ط - مراقبة الطباعة والمسارح ودور السينما مراقبة خلقية ووطنية دقيقة (م ١٥) .

ي - تحضير البدو لتأمين وسائل العيش الثابت لهم ومضاعفة العناية بتعليمهم
(م ١٦) .

كل ذلك في نطاق تأكيد « اعتبار البلاد العربية وحدة اقتصادية طبيعية لا تنافس
بين أقطارها ولا تضارب ، وتنظيم استغلال كل منها تنظيمًا علميًا دقيقًا ويجب أن
تكون مراقفها للعرب أولا » (م ١٧) .

ولا يسعنا الا أن نشير الى نقطة مهمة تعرضت لها الجمعية في المادة الخامسة من
هذا الفصل فسجلت بوضوح تقويمها للأحزاب والجمعيات في ذلك الوقت :

« اللجان والاحزاب والجمعيات والجماعات والاندية مع توفرها في البلاد العربية
غير مطبوعة بالطابع القومي الصحيح ، بل بالطابع الاناني السياسي والطائفي فعلي
الجمعية وأعضائها بذل أعظم الجهود لاصلاح هذه الحالة » (م ٥) .

ان وقفة سريعة عند هذا التقويم تكشف عن أمرين ، الاول : ان البلاد العربية كانت زاخرة باللجان والاحزاب والجمعيات والاندية خلال الفترة السابقة لوضع هذا الدستور ، والثاني ان معيار الجمعية في تقويم تلك الاحزاب وحياتها الحزبية كان معيارا قوميا سليما يرفض الاقليمية ، التي سماها الانانية السياسية ، كما يرفض الطائفية .

اما الفصل الرابع من دستور جمعية الوحدة العربية ، فجاء بعنوان العرب والثقافة وتبرز من قراءة فقراته نقاط تكشف عن بعض نواحي الحالة الفكرية لواضعي الدستور . وهي حالة يصح القول بأنها كانت عامة بين الشباب العرب المثقف في ذلك الوقت ، وتدور حول مسألة لا تزال تشغل الشباب حتى اليوم ، ألا وهي تحديد الموقف من انسانية الثقافة ، وقومية الثقافة ، ثم ما يجب ان يتمتع به التراث القومي من مكان في صنع الحياة العقلية العربية ، وما تستحقه الثقافة المعاصرة .

ففي هذا الفصل موقف من هذه المسألة يتركز في النقاط التالية :

١ - المناداة بانسانية الثقافة مع تأكيد أهمية التراثات القومية في صنعها ، ذلك ان « الثقافة ثروة انسانية شائعة ، يساهم الغرب في خدمتها بوحى تقاليدهم ، وهي تكفل لهم ، أفرادا وأمة ، وسائل العيش والرفي الفكري والعزة القومية ، والفداء الروحي ، ومنفعة الجنس البشري ، اذا استمدت عناصرها من مميزاتهم وخصائصهم وتاريخهم ومصالحهم » .

٢ - المناداة بتعانيك الدعامين الروحية والمادية في صنع الثقافة العربية المنشودة ، والمناداة بالتالي بأن « الثقافة التي يريدها العرب لحاضرهم ومستقبلهم هي الثقافة القائمة على الحضارتين الشرقية الروحية والغربية المادية ، لانهما خير ضمان لايجاد الطمأنينة الفردية والدولية ، وايجاد الرقي المعنوي والرخاء المادي في العالم أجمع » .

٣ - التأكيد أن العرب أقدر الامم على بناء الثقافة القائمة على تينك الدعامين والمجسمة لتفاعل تينك الحضارتين ، وذلك لسببين :

« أولهما جغرافي : فبلادهم الواقعة في قلب الكرة الارضية على طول شواطئ البحر المتوسط هي قطب القارات وصلة الاتصال بين جميع الشعوب . والثاني تاريخي : فهم وارثو مدينة حفلت بالخصائص والمميزات اللازمة للحضارة » .

وبعد تأكيد هذا الموقف من الثقافة بمضمونها ودور العرب المتميز في صنعها نجد جمعية الوحدة العربية مهتمة ببيان ضرورة الاخذ ببعض الاجراءات التي تنبع عن ذلك الموقف : كتأكيد أهمية تعريب المعاهد الاجنبية القائمة في الوطن العربي من ناحية

اللغة والبرامج ، وأن « الامية بين العرب المعاصرين كارثة متوطنة عامة لها في تأخير بعثهم الاثر العظيم فيجب أن تكافح الوبئة » وتأکید مكان اللغة العربية كحصن للعرب وشرفهم وكمظهر لوحدهم ، فيجب أن يفرض استعمالها على المؤسسات الاجنبية ووسائل النشر ، ثم التنبيه على أهمية دور العلماء والفنيين المجددين ، ومطالبة الدولة بأن تكفل لهم الرزق والمعاش لكي لا يشغلوا بهما عن الاجادة والابداع والنبوغ.

سلطة رجال الدين ، والجندية :

وأخيرا تعرض دستور جمعية الوحدة العربية في هذا الفصل الى مسألتين هامتين هما : سلطة رجال الدين في الوعظ والارشاد ، والجندية . وتجاه المسألة الاولى ينادى بأن « سلطة رجال الدين في الوعظ والارشاد قوة ذات فعل خطير في توجيه الارادة عند الشعب ، فيجب أن تضبط هذه السلطة وتنظم لها القواعد بحيث لا تشذ عما وجد له الدين ، وعن خطوط الفكرة القومية السليمة » ، وتجاه مسألة الجندية نجده مهتما اهتماما شديدا بتأكيد أهميتها قائلا : « يفرض البعث القومي على الامة جمعاء أن تأخذ بروح الجندية الاجبارية ، فهي تجمع خصال الرجولة والوطنية كالشجاعة والبأس والسماحة والمروءة وترك الدنيا والصبر على المكاره والطاعة حيث تجب ويجب النظام » .

وينتهي دستور جمعية الوحدة العربية من فصله الخامس الى تحديد شعار قائم على أربعة عناصر هي : الايمان ، النظام ، الطاعة ، العمل .

وليس في مضامين هذه العناصر كما يحددها دستور الجمعية ما يحتاج الى شرح او تعليق . وهو يذكر بالشعار الثلاثي الذي طرحته ثورة ٢٣ يوليو في أوائل عهدها وهو : الاتحاد والنظام والعمل .

وخلاصة تحليل هذا الدستور ، أنه يكشف عن مستوى ومحتوى من الفكر القومي - الاجتماعي والاقتصادي والسياسي لا يقل ، أن لم يتفوق ، عن مستوى ومحتوى الفكر كما يبدو في دساتير كثير من الاحزاب العربية القائمة الان .

قسم جمعية الجامعة العربية :

لقد امتد التفسير الذي أصاب جمعية الجامعة العربية الى قسمها . فقد تفسر هذا القسم بعد الحرب ، كما يؤكد الشيخ رشيد رضا : « ثم اننا غيرنا هذا القسم بعد الحرب تفسيرا قليلا ، وعندي صورة منه عليها امضاء بعض من انتظموا فيها معي ، ثم عدلته بالتشاور مع الاعضاء وطبعته هكذا » :

قسم الجامعة العربية الاخير ، غير بعد الحرب :

أقسم بالله القهار انني أبذل جهدي وما تصل اليه استطاعتي من السعي لجعل بلاد العرب المؤلفة من الجزيرة وفلسطين وسوريا ولبنان وما بين النهرين (دجلة والفرات) والعراق مملكة عربية مستقلة أتم الاستقلال على قاعدة الا مركزية ، وعلى ان تكون حكومتها شوروية نيابية ينتخب اعضاء مجالسها من اهل الحل والعقد الذين هم خواص الامة ومحل ثقته في الشؤون العلمية والعملية بمقتضى القوانين التي يقررونها عند العمل - وانني أقاوم بقدر استطاعتي كل ما ينافي هذا الاستقلال وهذا الشكل من الحكومة او يضعفه من تدخل الاجانب ونفوذهم ، او استبداد الحكام وفساد انصار الاستبداد من الجماعات او الافراد - وانني أكون وليا ونصيرا للساعين والعاملين لهذا المقصد من رجال الجامعة العربية وغيرهم بمنتهى الصدق والاخلاص لا يثنيني استقلال بعض هذه البلاد عن السعي التام لاستقلال سائرهما وانني لا أفشي لفرد من الافراد ولا لجماعة من الجماعات العاملة لهذه الغاية سرا ولا أعمل عملا يخل بهذا الغرض والقصد ، او يضر احدا من العاملين له او يعرقل عملا من أعمالهم له .

فان حنث في يميني هذه لاي سبب وبأي تأويل فأنا بريء من الشرف والانسانية مستحق اللعنة الابدية ، وان يسجل علي عار الخيانة وذلها في تاريخ أمتي العربية وفي كل تاريخ والله خير الشاهدين (٢٦) .

وأبرز ما يلفت الانتباه في هذا القسم هو التحديد الجديد لهدف الجمعية ، الذي اصبح في الصيغة الجديدة للقسم :

١ - السعي لجعل بلاد العرب المؤلفة من الجزيرة وفلسطين وسوريا ولبنان وما بين النهرين ، (دجلة والفرات) العراق دولة واحدة .

٢ - التمسك أن يكون نظام الحكم في هذه الدولة المستقلة (أتم الاستقلال) ملكيا دستوريا نيابيا لا مركزيا .

٣ - مقاومة كل ما ينافي الاستقلال التام لتلك الدولة وذلك الشكل للحكم فيما يضعفها ، سواء جاء ذلك من تدخل الاجانب او نفوذهم او جاء من استبداد الحكام وفساد انصار الاستبداد من الجماعات او الافراد .

وقد جاء هذا التطور في القسم نتيجة طبيعية للاوضاع التي قامت في اعقاب الحرب العالمية الاولى ، وجعلت من الاستقلال هدفا صريحا معلنا تنادي به جميع الجمعيات والاحزاب العربية بعد أن كان هدفا مستبعدا في ظل الامبراطورية العثمانية،

وتعبيرا واضحا عن المفاهيم والمبادئ السياسية التي كانت تنمو بسرعة بين صفوف الحركة العربية على مختلف جمعياتها من حيث انه :

٢ - يحدد نظام الحكم في الدولة المنشودة بأنه ملكي نيابي دستوري .

ب - يؤكد ضرورة حماية هذه الدولة واستقلالها من خطرين كان قادة جمعية الوحدة العربية يدركون انهما الخطران اللذان يحدقان بها، سواء من حيث وحدتها ، أو استقلالها ، أو دستورية الحكم وهما خطر النفوذ الاجنبي وخطر الاستبداد الداخلي .

فعاليات الجمعية :

بدأت فعاليات جمعية الجامعة العربية باندلاع الحرب العالمية الاولى في شهر تموز سنة ١٩١٤ ، وكانت الدولة العثمانية تعيش أوضاع « الرجل المريض » تحت سيطرة حزب الاتحاد والترقي الحاكم ، والذي كان يميل بطبيعته الى جانب الالمان أحد الطرفين المتصارعين في الحرب .

وكان موقف الاحزاب العربية القائمة في هذه الفترة موقفا حرجا ، اذ أن الانحياز الى أحد الفريقين ، المناهضين في الواقع للقضية العربية ، مخاطرة غير مأمونة الجانب وتشير الوثائق الى أن الجمعيات العربية قامت بتحرك واسع وسريع بقيادة جمعية العربية الفتاة ، ويشير محب الدين الخطيب في مذكراته قائلا : لقد كان رجال الحركات العربية مثل أعضاء حزب اللامركزية وجماعة الجامعة العربية وغيرهم يرون انه من الضروري مواجهة الموقف وتقرير ما ينبغي على العرب ان يعملوه (٢٧) .

وقد عقدت هذه الجمعيات عدة اجتماعات في القاهرة ، قررت فيها الاتصال بالامراء العرب بغية الوصول الى موقف عربي موحد اذا ما دخلت الدولة العثمانية الحرب الى جانب أحد الطرفين المتصارعين . وكتب رشيد رضا كتابا الى العاصمة يرجو فيه قادة الاتحاديين الوقوف على الحياد (٢٨) ولكن الدولة لم تجب بالنفي أو الايجاب على هذه الرسائل ، وعندها ارسلت الجمعيات العربية ثلاثة من كبار قادتها لاداء مهمة الاتصال بامراء العرب ولكنهم فشلوا جميعا في الوصول الى الامراء الذين توجهوا نحوهم بسبب دخول الدولة العثمانية الحرب الى جانب المانيا في شهر تشرين ثاني سنة ١٩١٤ .

كان الاتصال بامراء الجزيرة العربية وتوحيد كلمتهم ، من الاهداف الرئيسية التي تسعى اليها جامعة الجامعة العربية دون غيرها من الجمعيات الاخرى ، ولذلك لم تتقاعس عن مواصلة الجهد للاتصال والتشاور مع الامراء العرب على الرغم من صعوبة ارسال المبعوثين اليهم ، وكان أحد هؤلاء الرسل « محب الدين الخطيب »

عضو جمعية العربية الفتاة والجامعة العربية ، السريتين ، وعضو حزب اللامركزية العلني ، ولذلك وافقت هذه الاحزاب على ارساله ، ولكنه اعتقل في البصرة قبل أن يصل الى هدفه ويقول في مذكراته في معرض التعليق على اعتقاله : والظاهر ان برسي كوكس (الحاكم البريطاني في العراق) كان يعلم بالمهمة التي كان سفرنا من أجلها ، اذ قال لي عندما ودعني بعد الافراج عني بأن العرب سينالون استقلالهم ، ويشير متسائلا الى أنه لم يتمكن من تحديد كيفية اطلاع الانكليز على سفره أو على مهمته بالرغم من أهمية هذه المسألة في ذلك الوقت (٢٩) .

وقد أشرت الى هذه الحادثة ، لان محب الدين الخطيب يشر نوعا من الشكوك حول تصرف برسي - كوكس ، قبل الافراج عنه ، وان أمين سعيد في كتابه اسرار الثورة العربية الكبرى ، يضع قصة المشاورات بين الجمعيات العربية وقرار الاتصال بالامراء العرب في نطاق فصل عن المخطط الانكليزي لاستقلال الحركة العربية تحت عنوان فرعي هو : الاتصال بالهيئات العربية الاخرى (٣٠) يصور فيها عملية التشاور التي أشرت اليها سابقا ، ثم عملية ارسال الرسل ، تصويرا مفايرا لكل ما اطلعت عليه من وثائق حول هذه الجمعيات من ناحية ، وللصورة التي اعطتنا اياها مجلة المنار ومذكرات محب الدين الخطيب من ناحية أخرى .

يصور أمين سعيد الامر كما يلي : ان الانكليز اتصلوا سنة ١٩١٤ وقبل اعلان الحرب بقليل بالسيد رشيد رضا صاحب مجلة المنار ومؤسس جمعية الجامعة العربية - وكان في ذلك الوقت عضو حزب اللامركزية الادارية أيضا وسألوه أن يوفد مندوبين الى الامراء في الجزيرة العربية ، فوافق مبدئيا وسألوه عن النفقات ، فقدرت بألف جنيه دفعت له ، ثم أرسلت الرسل وفشلت كما شرحت .

ومما يلفت النظر ، ان قضية اتصال الانكليز بالشيخ رشيد رضا هي قضية صحيحة ، لان رشيد رضا يذكرها في مجلة المنار ، والذي لا يذكره ، قضية تسلمه مبلغ الالف جنيه التي يشير اليها أمين سعيد ، كما ان محب الدين الخطيب لم يشر الى اتصال الانكليز ، بحزب اللامركزية أو حزب الجامعة العربية ، او جمعية العربية الفتاة بل يستغرب سؤال برسي كوكس كما أشرت ، وربما اخذ رشيد رضا هذا المبلغ بصفة شخصية ، وليس بصفته احد أعضاء هذه الاحزاب ، هذا اذا كانت رواية أمين سعيد صحيحة .

وعلى العموم فان الشيخ رشيد رضا ، قد ذهب الى الحجاز وقابل شريف مكة وشارك في قيام الثورة العربية الكبرى ، وكان برفقة محب الدين الخطيب وكامل القصاب وعزيز علي المصري وغيرهم من رجال الاحزاب .

فعاليات الجمعية في العهد العربي الفيصلي :

ويظهر ان نشاط جمعية الجامعة العربية قد طرا عليه الكثير من الحيوية في العهد العربي الفيصلي ، فبالرغم من ان مركز الجمعية كان في القاهرة ، الا ان الاعضاء مثل رشيد رضا ، ومحب الدين الخطيب ، وكامل القصاب وغيرهم ، كانوا يراقبون الاحداث التي تجرى في سورية من حيث كانوا في مصر او الحجاز .. واضطرت الجمعية الى نقل مركزها الى دمشق امام الظروف والاضاع في سورية ، وان تعدل منهاجها واسمها ، بحيث اصبح اسمها جمعية الوحدة العربية - كما عدلت قسمها لتماشي الجو السائد في دمشق، وحضر رئيسها الشيخ رشيد رضا الى دمشق ، فتقرب من الملك فيصل ، كما قام بعملية (تقارب) بين أعضاء حزب الاتحاد السوري ممثلين بالدكتور عبد الرحمن الشهبندر ، والملك فيصل (ومما تجدر الإشارة اليه ان رشيد رضا كان من أعضاء حزب الاتحاد السوري ايضا) وفي جو هذا التفاهم الجديد ، انتسب الشهبندر الى جمعية العربية الفتاة ، كما انتسب رشيد رضا وغيرهما من أعضاء هذه الاحزاب ، في جلسة خاصة عقدتها الهيئة الادارية للعربية الفتاة ١٩١٩ واکرمتهم الجمعية فأطلقت عليهم لقب أعضاء مؤسسين (٢١) .

يستنتج مما تقدم ان هذه الاحزاب والجمعيات ، ومنها « جمعية الوحدة العربية » لم تتسع أو تنتشر في هذه الفترة ، ولم تستقطب « أعضاء جددًا » في العهد الفيصلي ، بل عدلت منهاجها كما اشرت ، وكان تأثيرها بالاحداث وتأثر الاحداث بها قليلا جدا بعد انتساب اكثر اعضائها الى جمعية العربية الفتاة - الحزب الحاكم - كما اشرت ، وعندما تأسس حزب الاستقلال سنة ١٩١٩ كواجهة علنية لجمعية العربية الفتاة السرية ، كان بين أعضائه رشيد رضا ومحب الدين الخطيب وهكذا أصبح أعضاء « جمعية الجامعة العربية / الوحدة العربية » ركنًا مهما من أركان احزاب هذه الفترة .

ومما يلفت النظر ان الشيخ رشيد رضا قد استلم مراكز هامة في العهد العربي الفيصلي ، فكان عضو المؤتمر السوري ، وساهم في وضع قراراته المشهورة ، ثم كان عضوا في مجلس النواب السوري سنة ١٩٢٠ ، وقد تشكل حزبان جديدان داخل البرلمان بعد انتخاب فيصل ملكا على سورية ، هما حزب التقدم ، والحزب الديمقراطي ، وكان حزب التقدم برئاسة الشيخ رشيد رضا ، وكان يضم أعضاء حزبي الفتاة والاستقلال وكل مؤيد ومناصر لهما ، ويقول الشيخ ان هذا الحزب كان بمثابة حزب الحكومة ، وكانت اكثرية أعضاء المؤتمر مندمجة في هذا الحزب الذي يمثل العهد العربي الفيصلي بملكه وحكومته ورؤساء دوائره ، أما الحزب الديمقراطي فكان بمثابة حزب المعارضة (٢٢) .

وعندما شكل هاشم الاتاسي الوزارة الائتلافية بتاريخ ٣ ايار/مايو ١٩٢٠ فرغ منصب رئاسة المجلس النيابي ، فانتخب لرئاسته الشيخ رضا بدلا من هاشم الاتاسي ، ولما كان رئيس حزب التقدم ، فقد قدم استقالته من رئاسة الحزب ليساوي بين الحزبين في ساحة المجلس ، في كل شيء يتعلق به وفي احترام افرادهما (٢٢) .

وكانت معركة ميسلون بتاريخ ٢٤ تموز سنة ١٩٢٠ ضربة كبرى للحركة العربية والحكومة الفيصلية ، انتهت بها هذه الاحزاب .

الهوامش :

- (١) أحمد عزت الاعظمي ، القضية العربية ، ج٤ ط١ ، بغداد ١٩٣٢ .
- (٢) د. سهيلة الريماوي ، مجلة دراسات تاريخية ، العددان ٢٤/٢٣ كانون اول ١٩٨٦ « عبد الرحمن الكواكبي دراسة في فكره السياسي » ص٧ - ص٤٦ .
- (٣) د. سهيلة الريماوي ، مجلة دراسات تاريخية ، العدد السابع ١٩٨٢ « صفحات من تاريخ الجمعيات في بلاد الشام من ١٨٥٠ - ١٩٠٨ » ص١٣٤ - ص١٥٦ .
- (٤) د. سهيلة الريماوي ، مجلة البحث التاريخي ، العدد الثالث سنة ١٩٨٤ « مع رواد اليقظة محب الدين الخطيب » د. سهيلة الريماوي مجلة دراسات تاريخية ، العددان ٣٤/٣٣ سنة ١٩٨٩ « جانب من فعاليات محب الدين الخطيب - الجانب الصحفي » ص٢٣ - ص٤٨ .
- (٥) د. سهيلة الريماوي ، مجلة دراسات تاريخية ، العددان ١٤/١٣ سنة ١٩٨٣ تطور مفهوم اللامركزية عند العرب العثمانيين .
- (٦) الامير صباح الدين هو ابن الداماد محمود وابن أخت السلطان عبد الحميد .
Correspondances d' Orient ,
Revue économique - Politique ,
Paris 1906 - 1912 .
- (٧) د. سهيلة الريماوي ، جمعية العربية الفتاة السرية - « دراسة وثائقية » ، دار مجلاوي سنة ١٩٨٨ .
- (٨) أسس هذه الجمعية عزيز علي المصري وهي جمعية خاصة بالعسكريين ، لمزيد من التفاصيل راجع :
Saab, H., The Federalists of the Ottoman Empire, Amsterdam 1985 .
- (٩) المنار ، م١ ، عدد ٣٩ ، ص ٧٦٦ الطبعة الثانية .
- (١٠) المنار ، م١ ، عدد ٣٩ ، ص ٧٧٠ ومابعدھا .
- (١١) المنار ، م٢ ، عدد ٢٢ ، ص ٣٤٦ .
- (١٢) يقول احسان الجابري انه قد سجن مرة في استامبول لانه ساهم في توزيع المنشير (من أوراق د. سهيلة الريماوي) .
- (١٣) محب الدين الخطيب ، المذكرات المخطوطة ، سيرة جيل . يقول انه افتتح فرع اليمن .
- (١٤) المنار ، م١٠ ، ج٤ ، ص ٣٤٢ . رشيد رضا : منافع الاوربيين ومضارهم في الشرق المنار ، م٣٣ ، ج٧ ، ص ٥٥٦ .
- (١٥) المنار ، م٣٣ ، ج٦ ، ص ٤٦٠ .
- (١٦) المنار ، م٣١ ، ج١٠ ، ص ٧٩٩ .
- (١٧) رفيق العظم ، آثاره ، المقدمة ص ٢ ، بقلم بقلم رشيد رضا .
- (١٨) مجلة المنار ، م٣٣ ، ج٧ ، ص ٥٥٥ وما بعدها .
- (١٩) من أوراق الدكتور سهيلة الريماوي : مقابلة خاصة من القاهرة مع الخطيب واحسان الجابري سنة ١٩٦٨ .

د. سهيلة الريماوي

- | | |
|---|--|
| <p>الجزائري ، ورشيد رضا ، وغيرهم كثير من العرب والترك .</p> <p>(٢٩) محب الدين الخطيب ، سيرة جيل ، المذكرات المخطوطة .</p> <p>(٣٠) امين سعيد ، اسرار الثورة العربية الكبرى ومأساة الامير حسين ، ص ٣٧-٣٩ .</p> <p>(٣١) وثيقة من وثائق محب الدين الخطيب - اسماء الاعضاء . راجع د. سهيلة الريماوي ، جمعية العربية الفتاة السرية ، الملاحق .</p> <p>(٣٢) لمزيد من التفاصيل راجع : المنار ، ٢٣م ، ج ٥ ، ص ٣٩٥ .</p> <p>(٣٣) انظر حول الوزارة والمجلس : ساطع الحمري ، يوم ميسلون ، ص ٢٧٠ ، والمنار ، ٢٣م ، ج ٥ ، ص ٣٩٦ .</p> | <p>(٢١) رفيق العظم ، اثاره ، المقدمة ص ز ، بقلم ورشيد رضا .</p> <p>(٢٢) المنار ، ٢٣م ، ج ٧ ، ص ٥٥٧ .</p> <p>(٢٣) انظر : كتاب عبد الله الريماوي ، الحركة العربية الواحدة ، ط ١ ، دار النشر للجامعيين ، بيروت ١٩٦٤ .</p> <p>(٢٤) المنار ، ٢٣م ، ج ٧ ، ص ٥٥٧ وما بعدها .</p> <p>(٢٥) المصدر السابق .</p> <p>(٢٦) المنار ، ٢٣م ، ج ٧ ، ص ٥٥٨ وما بعدها .</p> <p>(٢٧) محب الدين الخطيب ، المذكرات المخطوطة ، سيرة جيل .</p> <p>(٢٨) لقد طالب الدولة عدد من رجال الحركة العربية بالوقوف على الحياد ، دون جدوى مثل : شريف مكة الحسين بن علي ، وسليم</p> |
|---|--|



الاحتلال البريطاني لبرقة (١٩٤٢ - ١٩٤٩ م) دراسة تاريخية في الجوانب العسكرية والادارية

د. محمد رجائي ريان
جامعة اليرموك

مقدمة :

برقة (بفتح الباء والقاف وسكون الراء بينهما) ، الى جانب طرابلس ، وفزان ، واحدة من اقاليم ثلاثة تتكون منها ليبيا ، وتشكل شبه جزيرة واسعة ، ممتدة بين خليجي بومبا وسرت ، وتقع بين خطي الطول ٢٠ و ٣٠ ، وبين خطي العرض ٣٠ و ٣٣ ، وهي تغطي ما مساحته ٨٥٥٤٠٠ كم^٢ مما مجموعه ١٧٥٩٥٠٠ كم^٢ . هي كل مساحة ليبيا (١) .

وكانت برقة قديما مرتبطة بمصر ، فقد الحق بها في عهد البطلمة (٢) ، ثم أصبحت مقاطعة رومانية حتى القرن السابع الميلادي ، حين دخلت ضمن عملية الفتح العربي ، ومن ثم ارتبطت بمصر ارتباطاً وثيقاً ، واصبحت تعتمد مثلها على دمشق وبغداد ، وفي عهد المماليك خضعت برقة لسلطانهم ، لكن هذا السلطان كان اسماً ، فقد كانت تسيطر على برقة القبائل البدوية (٣) .

أما تاريخها الحديث ، فقد تنازعت ثلاثة تيارات هي :

١ - الحكم التركي :

فقد سقطت دولة المماليك في عام ١٥١٧م والتحقت برقة بسلطة الباب العالي في الوقت الذي لم تنضم فيه ليبيا رسمياً الى الدولة العثمانية الا بعد أن تم فتح طرابلس في عام ١٥٥١م (٤) ، وفي ظل الحكم العثماني الاول (١٥٥١م - ١٧١١م) كانت برقة تتبع طرابلس أحياناً وتنفصل عنها أحياناً أخرى ، حتى ان هذه التبعية كانت اسمية أكثر منها عملية ، وكانت ادارياً تسمى متصرفية بني غازي (٥) .

وفي عام ١٦٤٩م ، اضيف سنجق بني غازي ودرة الى ولاية طرابلس حين تمكن الداوي عثمان من ضمها الى ولايته وعين حاكماً برتبة بك ، الا انه في عهد القرمانليين تم دعم وحدة ليبيا بأقاليمها الثلاثة خاصة على يد احمد القرمانلي (١٧١١م - ١٧٤٥م) الذي اعترف به السلطان العثماني وعينه باشاً على طرابلس ، فعين هذا اخاه شعبان بك عاملاً له في برقة (٦) .

دراسات تاريخية ، العددان ٣٩ و ٤٠ ، كانون الاول ١٩٩١

وفي عام ١٨٣٥م ، احتل العثمانيون طرابلس ، وأنهوا حكم الاسرة القرمانلية ، وبدأت فترة الحكم العثماني الثاني (١٨٣٥ - ١٩١١م) ، وامتد حكمهم على معظم ليبيا بما فيه برقة ، في الوقت الذي جعل العثمانيون من برقة ولاية قائمة بذاتها وذلك في عام ١٨٣٨م (٧) . وفي سنة ١٨٧٩ أصبح متصرفها مرتبطا مباشرة باستنبول ، ثم ربطت بولاية طرابلس الغرب عام ١٨٨٢ ، وأصبحت تتألف من قضاء درنة والمرج وجالو ، ثم ارسل العثمانيون في عام ١٩٠٥ قائمقاما الى الجغبوب (٨) .

٢ - انتشار السنوسية :

تقلص الحكم العثماني في أواخر القرن التاسع عشر في برقة ، فلم يعد يمتد وراء السواحل ، اذ كانت السلطة العثمانية ضعيفة جدا في تلك المناطق ، وقد لازم هذا انتشار السنوسية في داخلية البلاد ، حتى أصبح لها النفوذ الفعلي بين القبائل وسيطرت على أوجه الحياة فيها ، وكان ثمة نوع من الاتفاق بين السنوسية والدولة العثمانية لإدارة برقة (٩) .

والسنوسية في الاصل هي احدى الطرق الصوفية التي ترغب في تجديد الاسلام ، والرجوع به الى مصادره الاولى والاعتماد على الكتاب الكريم والسنة ، مع بقاء باب الاجتهاد مفتوحا على مصراعيه ، والعمل على توحيد الامم الاسلامية (١٠) . مؤسسها هو محمد بن علي السنوسي ، ولد في الجزائر عام ١٧٨٧ ، وتعلم في فاس ، ثم جاء الى الازهر الشريف في القاهرة وسافر بعدها الى مكة ، وفي عام ١٨٤٣م عاد الى شمال افريقيا حيث أخذ ينشر دعوته ، واتخذ من برقة - المجاورة لمصر في الناحية الغربية - مركزا (١١) ، يقيم فيه مذهب دين ودعائم امارة (١٢) .

لقد اختار محمد بن علي السنوسي النزول في برقة دون غيرها ، لانه وجد فيها مكانا ملائما لدعوته (١٣) فأسس من ثم فيها زاوية البيضاء . لتكون أول زاوية سنوسية في شمال افريقيا ، ولتكون مركز زواياه (١٤) . وعند وفاة السنوسي في عام ١٨٥٩ خلفه ابنه السيد محمد المهدي الذي بلغت السنوسية في عهده أوج انتشارها وترسخت جذورها في برقة . وأصبح السنوسيون أصحاب الامر فيها (١٥) . وعندما توفي السيد محمد المهدي في عام ١٩٠٢ . تولى زعامة السنوسية أخوه احمد الشريف (١٨٧٣ - ١٩٣٣) (١٦) .

٣ - الغزو الايطالي :

تعرضت برقة مع غيرها من اقاليم ليبيا في عام ١٩١١ الى عدوان ايطاليا الذي تمخض عنه عقد معاهدة أوشي - لوزان (Ouchy - Lausanne) في تشرين الاول

(أكتوبر) عام ١٩١٢ بين إيطاليا والدولة العثمانية ، وتنازلت فيها الدولة العثمانية عن ليبيا(١٧) .

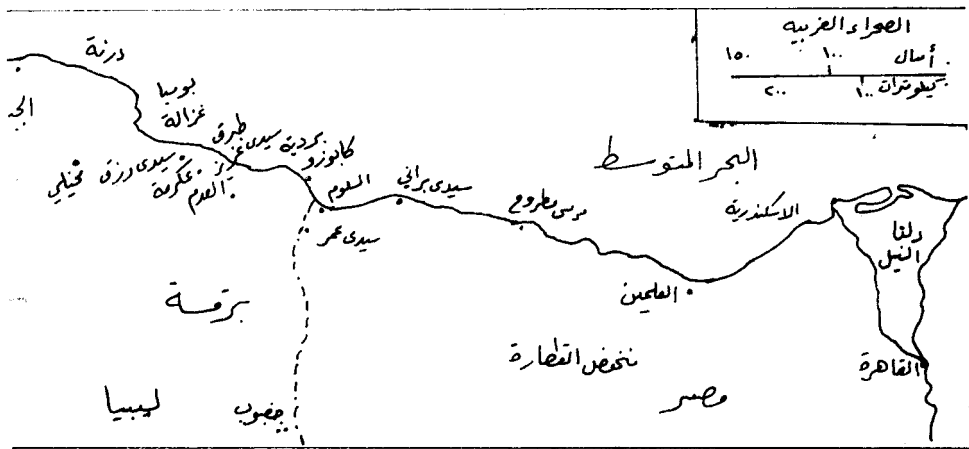
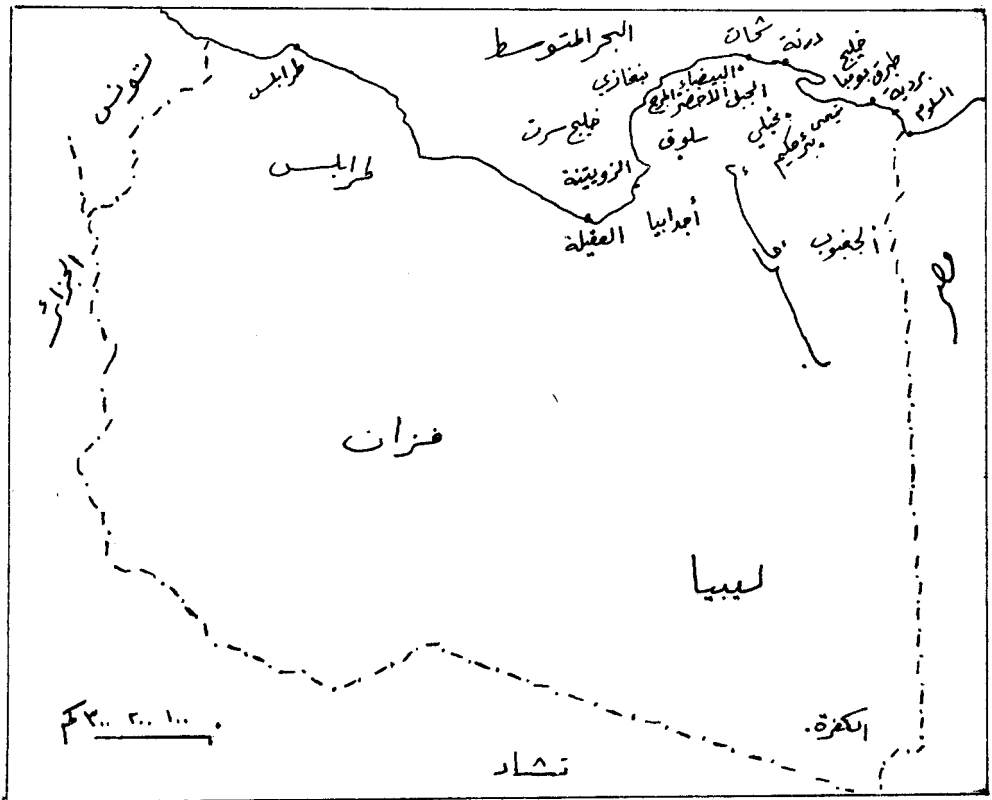
وكان من نتائج هذه المعاهدة حصول فراغ عسكري وسياسي في برقة ، فقامت السنوسية بملء هذا الفراغ ، فمن الناحية السياسية أبلغت الدولة العثمانية السيد أحمد الشريف أمر اسناد ليبيا اليه تاركة له الحق في أن يقرر مصيرها لتدافع عن نفسها(١٨) ، أما من الناحية العسكرية فقد دخلت السنوسية في حرب ضد الايطاليين ، أعقبها اندلاع الحرب العالمية الاولى ، ودخول أحمد الشريف في حرب ضد بريطانيا بمهاجمة مصر وذلك بتحريض من الاتراك والالمان ، وقد انهزم فيها السنوسيون(١٩) .

هذا ، وقد ترك أحمد الشريف القيادة ليتسلمها ابن أخيه السيد محمد ادريس السنوسي ، فقد تمخض عن الاحداث السابقة قيادة سنوسية جديدة دخلت مع الايطاليين في برقة عقد سلسلة من التسويات بموافقة البريطانيين(٢٠) ، نجم عنها الاعتراف بالسيد محمد ادريس أميرا على الاجزاء الداخلية من برقة ، ولكن هذا الوضع انتهى عندما تخلى الايطاليون عن تلك التسويات خاصة بعد سيطرة موسوليني (Mussolini) على السلطة في روما في تشرين الاول (أكتوبر) عام ١٩٢٢ ، وظهور النظام الفاشي فيها(٢١) .

وفي عام ١٩٢٢ ترك محمد ادريس برقة الى مصر وحصلت حرب بين السنوسيين والايطاليين بدأت في عام ١٩٢٣ ، وانتهت بأسر عمر المختار قائد المقاومة الوطنية في برقة وذلك في ١١ أيلول (سبتمبر) ١٩٣١ ثم شنته بعد خمسة أيام ، وكانت حربا غير متكافئة ، تولى قيادة الجانب الايطالي فيها الجنرال غرازياني (Graziani) وتوقفت بنتيجة ذلك المقاومة الوطنية في برقة(٢٢) .

ولم يتمكن الايطاليون الا في نهاية عام ١٩٣١ من السيطرة الكاملة على منطقة برقة والداخل ، وقد بذلوا جهدهم لاستعمار المنطقة ، وتوجت الجهود المنظمة نحو الاستغلال والاستيطان من قبل الايطاليين في الجبل الاخضر ، من أجل اقامة مستعمرات لصغار الملاك من الفلاحين الايطاليين ، وتم تأسيس عدد من القرى قبل اندلاع الحرب العالمية الثانية تضم عددا من المزارع ، يقيم فيها مزارعون ايطاليون على شكل جماعات ذات تنظيم مشترك، ومن أجل ذلك فقد تم طرد المواطنين الاصليين وحرّم عليهم رعاية الماشية ، واذا كان سكان برقة قبيل الحرب العالمية الثانية قد بلغوا حوالي ٢٠٠.٠٠٠ نسمة ، فقد كان منهم ما بين ٦٠ الى ٧٠ ألف ايطالي يعملون ضمن المزارع والخدمات المدنية ويملكون ما مجموعه ٨٠٠.٠٠٠ هكتار(٢٣) .

وبعد اندلاع الحرب العالمية الثانية عام ١٩٣٩ ، دخلت منطقة شمالي افريقيا



بما فيها برقة في ظل متغيرات جديدة نجم عنها في النهاية احتلال بريطانيا لبرقة وطرابلس واحتلال فرنسا لقران ، فأصبحت ليبيا تحت نفوذ هاتين الدولتين .

والهدف الاساسي من هذه الدراسة يدور حول الاحتلال البريطاني لبرقة والادارة العسكرية البريطانية التي اقيمت فيها والتي استمرت حتى بعد الحرب العالمية الثانية . ومن الملاحظ أن هذا الموضوع قلما طرقة المؤرخون العرب باستثناء بعض المحاولات مما لا يتعدى صفحات قليلة ، وبعد نهاية الاربعينات من هذا القرن ظهرت مصادر أجنبية وخاصة انجليزية تعرضت للخوض في هذا الموضوع ، وقد اعتمدنا عليها وجعلنا منها الدعامة الاساسية التي بنينا عليها هذه الدراسة .

الاحتلال البريطاني لبرقة :

اعلنت إيطاليا انضمامها الى ألمانيا في الحرب العالمية الثانية في ١١ حزيران (يونيو) ١٩٤٠ ، واعلنت الحرب على بريطانيا (٢٤) . وقد أعقب ذلك توقيع فرنسا وألمانيا الهدنة في ٢٢ حزيران (يونيو) من العام نفسه ، وتضمنت شروط الهدنة التي قبلتها حكومة بيتان (Petain) وقف الاعمال الحربية للقوات الفرنسية على الفور (٢٥) .

ان خروج فرنسا من القتال الى جانب بريطانيا ، ثم انشغال بريطانيا في الدفاع عن نفسها ، جعلت موسوليني يشعر بأن أحلامه في السيطرة على البحر المتوسط غاية يمكن تحقيقها (٢٦) ، لذلك أصدر تعليماته الى غرازياني (Graziani) بالاستعداد لغزو مصر ، وكان الألمان على علم بالتطورات التي كانت تتم في برقة من جانب الإيطاليين ، وأن هدف إيطاليا هو طرد الانجليز من مصر وتحقيق اتصال بري مع شرق أفريقيا (٢٧) .

وعلى الرغم من الحالة الصعبة التي كانت تمر بها القوات البريطانية في مصر ، الا أن التعليمات قد صدرت الى الجنرال ويقل (Wavel) ، قائد القوات البريطانية في الشرق الاوسط بأن يواجه الهجوم الإيطالي (٢٨) ، الذي حدث في ١٤ أيلول (سبتمبر) ١٩٤٠ ، وذلك عندما اخترقت القوات الإيطالية الحدود المصرية ، فوصلت الى سيدي براني ، داخل الحدود المصرية ولم تستطع تجاوزها (٢٩) .

أعد البريطانيون هجوما مضادا ، وضع خطته أوكونر (Oconner) ، وتم دحر الإيطاليين واجلائهم عن سيدي براني ، وسقوط طبرق التي أصبح مينائها جاهزا لاستقبال السفن الحربية البريطانية (٣٠) ، وانتهى الهجوم البريطاني في بيضا فوم ، بعد أن سقطت بنغازي ودخلتها القوات البريطانية في ٦ شباط (فبراير) ١٩٤١ (٣١) ، وقد أدى ذلك الى ما يسمى بالاحتلال البريطاني الاول لبرقة .

على أثر هذه الهزيمة الإيطالية ، بدأت ألمانيا في التحضير لارسال فصائل خاصة من جيشها الى طرابلس (٣٢) ، ووضعت خطة لاحتلال برقة ، وأنيطت المهمة بالجنرال رومل (Rommel) (٣٣) ، الذي دخلت قواته بنغازي ، بعد أن انسحبت القوات

البريطانية خارج حدود برقة ، وتمركزت على جانب الحدود ما عدا حامية صغيرة بقيت في طبرق (٢٤) ، التي بقيت في أيدي البريطانيين ، مع استمرار محاصرتها من ناحية البر (٣٥) .

قام ويقل بتجهيز عملية عسكرية جديدة ، تعتمد في أساسها على شن هجوم معاكس ، ولكن هذه العملية لم تنجح كما أريد لها ، والشيء الوحيد الذي أنجزه البريطانيون منع سقوط طبرق في يد الألمان ، ولذلك بقيت شوكة في الجانب الألماني (٣٦) .

وعلى اثر ذلك ، حلّ الجنرال أوكنل (Ouchinleck) محل الجنرال ويقل ، الذي اخترقت قواته الحدود المصرية في ١٨ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤١ ، واندفعت داخل برقة ، ونجحت في ابقاء طبرق بعيدة عن متناول قوات المحور ، فاضطر رومل في ٦ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٤١ أن يتراجع عنها (٣٧) .

لقد نجحت القوات البريطانية في التقدم نحو درنة ، واستعادت بنغازي ، وتراجع رومل الى العقيلة ، وحشد قواته في تلك المنطقة المحاذية لاقليم طرابلس (٣٨) ، وبذلك استعاد البريطانيون برقة ، وبدأ ما يسمى بالاحتلال البريطاني لبرقة .

لكن أوكنل لم يستطع قطع خطوط تراجع رومل ، الذي تحرك شرقا في ٢١ كانون الثاني (يناير) ١٩٤٢ ، وهدفه الوصول هذه المرة الى قناة السويس ، فاستعاد القسم الاكبر من برقة واستولى على طبرق في ٢٠ حزيران (يونيو) ١٩٤٢ (٣٩) ، واجتازت قواته حدود مصر ، ووصلت العلمين ، التي حدثت فيها المعركة الكبرى بقيادة الجنرال مونتجمري (Montgomery) ، قائد الجيش الثامن البريطاني (٤٠) ، الذي استطاع تقطيع اوصال قوات المحور في هجوم عنيف ، مما أجبر تلك القوات على التراجع (٤١) ، واستعادت القوات البريطانية برقة بعد أن انهارت قوات المحور في نهاية تشرين الاول (أكتوبر) ١٩٤٢ ، وبعد أسبوعين من ذلك ثم اجلاء باقي قوات المحور عن ليبيا كلها ، وبذلك تم الاحتلال الثالث والاخير لبرقة من قبل القوات البريطانية (٤٢) .

الاجراءات الادارية العسكرية :

بعد أن تم للحلفاء ، اخيرا احتلال ليبيا ، اقيمت فيها ثلاث ادارات عسكرية ، هي ادارة برقة وادارة طرابلس وادارة فزان ، وتولت بريطانيا ادارة الاقليمين الاولين ، بعد أن فصلتهما عن بعضهما ، وعهد بالاقليم الثالث فزان الى فرنسا ، وكان من الطبيعي أن تكون الادارة العسكرية في اول امرها ، لكن هذه الادارة العسكرية استمرت طويلا بعد الحرب ، فبريطانيا لم تنقل ادارتي برقة وطرابلس من وزارة الحرب الى وزارة الخارجية الا في نيسان (ابريل) ١٩٤٩ ، وان كانت قد ادخلت عنصر الادارة المدنية قبل ذلك بمدة (٤٣) .

لقد حددت مناطق تلك الادارات العسكرية بين بريطانية وفرنسا بموجب اتفاقات عسكرية عقدت بين الدولتين ، كان اخرها الاتفاق الذي عقد في ٢٦ كانون الثاني (يناير) ١٩٤٣ بين الجنرال الكسندر الانجليزي والجنرال لوكلرك (Luclerc) الفرنسي (٤٤) ، وكانت الحجة التي استمدت منها هاتان الدولتان شرعية ادارتها لهذه الاقاليم هي معاهدة لاهاي (La Haye Convention) لعام ١٩٠٧ (٤٥) ، التي تنظم ما يحتله العدو من ارض ، وقد منحت هذه المعاهدة السلطات البريطانية والفرنسية سلطات تشريعية وادارية كاملة في انتظار التسوية النهائية عن طريق معاهدة صلح مع ايطاليا (٤٦) .

والذي يهمنا في هذا المجال هو برقة ، التي بدأت فيها الاستعدادات عن طريق الجنرال ويفل لاقامة ادارة عسكرية بريطانية فيها قبل ان يتم احتلالها نهائيا ، فقد أبرق الى وزارة الحربية البريطانية في ٦ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٤٠ أي قبل الهجوم البريطاني على سيدي براني طالبا أن يتركز الاهتمام في المسألة التي ستصبح ملحة وهي ادارة اقاليم العدو ، فطلب في برقيته تلك ان يتم تعيين مديرين ذوي خبرة في جهازه ويهيء لهم الدعم المالي والمساندة القانونية . وكان هدف ويفل من ذلك هو ايجاد حكومة عسكرية في برقة مع ادارة محلية تحت اشراف مديرين مؤهلين ذوي خبرة يتبعون قيادته مباشرة ، فخبرة ويفل في الشرق الاوسط واتصاله بقيادة الجنرال اللنبي (Allenby) خلال السنوات من ١٩١٧ الى ١٩١٩ جعلته يتلاءم مع المشاكل التي تبرز في المناطق المحتلة والتي تتصل بالسكان نتيجة للعمليات العسكرية (٤٧) .

ثم أشار ويفل في برقية اخرى تاريخها ٢٥ كانون الثاني (يناير) ١٩٤١ ، بعد ان تم الاحتلال الاول لبرقة الى اقتراح حكومة عسكرية في برقة تتبع الانماط التي استعملت خلال حرب ١٩١٤ - ١٩١٨ وما بعدها في الشرق الاوسط ، وذلك بأن تستند مسؤولية حكم المناطق المحتلة للقيادة العسكرية وذلك بالاعتراف بقوانين الحرب الى أن تتم التسوية النهائية عند انتهاء الحرب ، أي أن القرار النهائي في جميع المسائل السياسية وتنظيم الحكم يجب أن يتم عن طريق القيادة العسكرية ، وذلك حتى لا تتعارض تلك المسائل مع الضرورات العسكرية ومتطلباتها ، أما رئاسة الادارة المدنية فهي من مسؤولية رئيس المكتب السياسي ويتولاها بتوكيل من القائد العام شخصيا (٤٨) .

لقد استجابت لندن الى برقيات ويفل في ٣ شباط (فبراير) ١٩٤١ وعينت فيليب ميتشل (Philip Mitchel) أول ضابط سياسي في برقة ، ومنحته صلاحية ادارة مناطق العدو المحتلة وتحت اشراف ويفل وبتوافق مع الاحتياجات العسكرية المحلية ، وقد أدى هذا الى تبني أسلوب الحكم العسكري الذي اتبعه اللنبي في فلسطين (٤٩) . واستنادا الى ذلك ، قرر ويفل فصل برقة عسكريا عن القيادة العسكرية البريطانية في مصر ، وعين الجنرال ولسون حاكما لبرقة وقائدا عاما

للقوات البريطانية فيها ، ويتولى ذلك مع وكيل رئيس المكتب السياسي المسؤول عن الادارة المدنية الذي جعل من بني غازي مركزا لقيادته في ١٨ شباط (فبراير) ١٩٤١ .

ولتأكيد فعالية تلك الاجراءات الادارية العسكرية وارتباط الشؤون السياسية بها ، قرر مجلس الحرب في لندن في ٢٠ شباط (فبراير) ١٩٤١ أن تكون وزارة الحربية البريطانية هي المسؤولة عن ادارة اقليم برقة ، وقد جاءت تلك الخطوة بناء على توصية تقدم بها لورد بريفي سيل (Privy Seal) بعد اجتماع لمجلس الحرب والتي جاء فيها : « ان مؤسسة واحدة فقط يجب ان تكون مسؤولة عن الاقاليم المحتلة وهي وزارة الحربية وليست وزارة الخارجية » (٥١) .

والجدير بالذكر ان الاجراءات الادارية لم تتوقف عند هذا الحد في سبيل الوصول الى ادارة عسكرية بريطانية ، بل تمت اجراءات أخرى في مطلع خريف عام ١٩٤١ ، استعدادا لعملية الاحتلال العسكري الثاني لبرقة ، فقد قام ويقل في ١٤ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٤١ باعلام وزارة الحربية بعزمه على تنظيم هياكل الادارة العسكرية، فاستدعت تلك الوزارة ستيفن لونج ريج (Stephen Longrigg) (٥٢) ، الضابط السياسي وعينه على رأس تلك الادارة (٥٣) . وخلال الاسابيع اللاحقة ، تم اعداد الضباط الاداريين ، ولاسباب أمنية فان اسماءهم في ذلك الوقت بقيت سرية وأكثرهم كانت لهم معرفة بالعربية وكانوا قد سحبوا من جهاز الاستخبارات ومن أجهزة الامن، وفي أثناء هجوم الجنرال أوكنلك الذي بدأ في ١٧ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤١ تحرك العديد من هؤلاء الضباط الى المراكز الرئيسية التي عينت لهم في برقة وخاصة الى طبرق التي كانت لا تزال تحت حصار قوات المحور ، وكانت مهمة هؤلاء الضباط الرئيسية هي اجراء الاتصالات مع القبائل (٥٤) .

وفي أيار (مايو) عام ١٩٤٢ عين لونج ريج رئيس الادارة البريطانية حاكما عسكريا لاريتريا وخلفه الكولونيل كمنج (Cumming) الذي كان يحتل منصبا سياسيا هاما في السودان (٥٥) ، الذي شرع في وضع الخطوط الرئيسية للادارة العسكرية لبرقة ابان الاحتلال الثالث وذلك في خطاب وجهه الى جميع الضباط السياسيين والموظفين الاداريين في ١١ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٢ (٥٦) . وفي اليوم نفسه وقع الجنرال مونتجمري مرسوما أعلن فيه الاحتلال البريطاني لاقليم برقة . كما وضع مراسيم أخرى بشأن جرائم الحرب وغير ذلك من المراسيم التي تتصل بالاحتلال العسكري ، ولم ينته شهر تشرين الثاني (نوفمبر) من عام ١٩٤٢ حتى كانت الادارات قد انتشرت في كافة أنحاء اقليم برقة ، وحصل رئيس الادارة العسكرية من الجنرال مونتجمري على سلطة اطلاق اسم « الحكومة العسكرية لبرقة » على

ادارته (٥٧) ، وجاءت تفاصيل الاسس التي قامت عليها تلك الادارة في رسالة نشرها مونجمري على الشعب في برقة (٥٨) .

والجدير بالذكر أنه في عام ١٩٤٣ دخلت الادارة العسكرية البريطانية في برقة مرحلة جديدة فبعد أن كانت المرج مقر هذه الادارة في عام ١٩٤٢ ، أصبحت بني غازي هي المقر في عام ١٩٤٣ ، وتبدل الاسم من الحكومة العسكرية البريطانية الى الادارة العسكرية البريطانية وذلك ابتداء من ١٠ آذار (مارس) ١٩٤٣ (٥٩) .

والحقيقة أنه حدثت جملة عوامل سهلت أمور تلك الادارة، فلقد غادر المستوطنون الايطاليون برقة بعد الاحتلال الثالث والاخير مخلفين البلاد كلها في أيدي السلطات البريطانية ، وهذا الاختفاء النهائي للايطاليين في برقة مع ادارتهم في عام ١٩٤٣ سهل قيام الادارة العسكرية البريطانية فيها ، وسهل أيضا اقامة نظام يتم التعامل بوساطته مع السكان الاصليين ، ثم تطور هذا النظام بشكل مشابه لمناطق كثيرة في السودان المصري الانجليزي (٦٠) . وانطلاقا من هذه النتيجة أرسل كمنج رئيس الادارة العسكرية في برقة مذكرة الى وزارة الخارجية البريطانية أوصى فيها أن تكون معاملة برقة بطريقة افضل من معاملة المستعمرات الايطالية الاخرى ، فقد اقترح أن تنتهي السيادة الايطالية وأن يكف عن اعتبار - عرب برقة رعايا ايطاليين - ، وأن تلغى القوانين والمحاكم الايطالية ، تستبدل بها قوانين ومحاكم جديدة تناسب مجتمعا عربيا (٦١) .

كذلك ادرك الانجليز أن العرب في ليبيا لم يكونوا أعداء لهم ، فوضعت الادارة العسكرية البريطانية نصب عينيهام معاملة السكان على هذا الاعتبار ، وقد تمثل ذلك بصورة واضحة في خطاب ألقاه كمنج في ١١ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٢ في برقة بعد تسلمه ادارة الاقليم جاء فيه : « تبرز برقة سمات خاصة بها ، فالبرغم من اعتراف بريطانيا العظمى وغيرها من الحكومات بالسيادة الايطالية عليها ، فالسكان العرب ليسوا أعداءنا ، فالعرب على العموم ، قاموا بمساعدتنا ، ووقفوا الى جانبنا بوسائلهم الهزيلة معرضين أنفسهم للمخاطر التي تترتب على هجرهم الايطاليين ومساعدة وكلائنا ، واخفائهم ، ومساعدة أسرى الحرب على الهرب (٦٢) .

ثم برز عامل آخر تمثل في انشاء مراكز قيادية في القاهرة للاشتراك في النشاطات المقبلة التي كانت ترسم من أجل برقة ، لقد كان العديد من الاسس التي وضعت للادارة العسكرية البريطانية قد صيغت في القاهرة من المسؤولين البريطانيين فيها ، وهذا أسهم في تأسيس علاقات ودية مع السيد محمد ادريس السنوسي الذي كان مقيما في القاهرة والذي كان على صلة بمجريات الامور في برقة كزعيم سياسي وديني، بالإضافة الى تأسيس علاقات ودية مع غيره من الزعماء الذين طردوا من برقة خلال الحكم الايطالي، ولا شك أن هذه العلاقات الودية أسهمت في تسير دفعة الادارة العسكرية في برقة (٦٣) مما جعل هذه الادارة تقيم خدمة مدنية أهلية سنة ١٩٤٣ ، وقد اتبعت هذه السياسة

اتشجيع العرب على شغل المناصب ذات المسؤولية ، فقد بحثت تلك الادارة عن أولئك الذين عملوا مع الادارة الايطالية والمنفيين الذين عادوا الى بلادهم (٦٤) ، كذلك لابد أن نشير الى انعدام الاقليات القومية في برقة قد جعل العمل أسهل والتفاهم مع اهل البلاد أسرع فكان ذلك بدوره عاملا سهلا لعمل الادارة العسكرية البريطانية في برقة (٦٥) .

وانطلاقا من الاسس السابقة التي قامت عليها الادارة العسكرية البريطانية في برقة ، استطاعت بريطانيا من خلال تلك الادارة أن تتصدى للمشكلات التي واجهتها وان تقوم بالعديد من المنجزات وتعرض لذلك كما يلي:

النظام الاداري والقضائي :

كانت برقة في العهد الايطالي مقسمة الى منطقتين ، درنة وبنى غازي الخاضعتين لاشراف مباشر من طرابلس ، أما في عهد الاحتلال البريطاني ، فقد أصبحت تحت الادارة العسكرية البريطانية وحدة منفصلة وقسمت أولا الى سبعة اقصية هي : المرج واجدانية والشحات ودرنة وطبرق والكفرة ومدينة بنى غازي ومنطقتها ، ثم جمعت في ثلاثة أقسام وهي بنى غازي والجبل ودرنة (٦٦) .

وبناء على هذا التقسيم ، عين في كل بلد موظف بريطاني يقوم بشؤون الادارة يعاونهم تسعة ضباط بريطانيون فضلا عن ثلاثة معاونين آخرين يطلق عليهم اسم « نائب المتصرف » من الليبيين ، ومن دونهم آخرون منهم تسعة قائمقامين و ١٧ مديرا و ٤ نواب مدير وكلهم من الليبيين ، أما واحات الكفرة فيقوم على ادارتها ضابط للشؤون المدنية (٦٧) .

كذلك تكون مجلس تنفيذي في ١٤ شباط (فبراير) سنة ١٩٤٨ في بنى غازي عدد أعضائه سبعة بريطانيين وخمسة ليبيين كمستشارين لهيئة الادارة ، وانشيء في بنى غازي والمرج ودرنة مجالس بلدية من الليبيين ذات سلطات مالية وتشريعية محدودة (٦٨) .

وكان عدد الموظفين الذين يتقاضون مرتبات في عام ١٩٤٨ كالآتي (٦٩):

بريطانيون	أجانب	ليبيون
٩٠	٨	—
٢٥	٨٣	٧٥٨
١١٥	٩١	٧٥٨

ضباط عسكريون أو مدنيون

غير ذلك

المجموع

أما بالنسبة للقضاء ، فإن الذي يتولى شؤونه هو القائد الأعلى للقوات البرية في الشرق الأوسط ، ويتولى مندوبون عنه السلطة وشؤون الإدارة بواسطة ضابط الشؤون المدنية ، ويتولى هذه السلطة عن رئيس الإدارة المسؤول رأساً عن إدارة البلاد (٧٠) .

والجدير بالذكر ، أن القوانين التي كانت سائدة في برقة في عهد الإدارة العسكرية البريطانية أربعة قوانين . الأول منها القانون البريطاني ، وكان ينفذ بواسطة اعلانه أو تنظيمه من قبل رئيس الإدارة الخاضع لسلطة القائد الأعلى للقوات البرية في الشرق الأوسط ، والثاني هو القانون المدني الإيطالي ، فقد أعلن رئيس الإدارة في ١٧ تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩٤٥ أن جميع القوانين التي كانت سارية في برقة قبل هذا التاريخ تبقى كما كانت ما عدا القوانين التي كانت معلقة والقوانين التي كانت تتعارض مع ما تصدره القيادة العسكرية البريطانية ، وما عدا القوانين التي توجب الضرورة تعديلها أو ما تقتضيه ظروف الاحتلال ، لذلك بقي القانون المدني والتجاري الإيطالي ساري المفعول ، والثالث هو الشريعة الإسلامية وتطبيقها المحاكم الشرعية ، والرابع يتمثل في القوانين اليهودية وتطبيقها المحاكم المالية اليهودية (٧١) .

وبناء على هذه القوانين ومن أجل تطبيقها ، فقد كانت في برقة المحاكم التالية : المحاكم العسكرية البريطانية ، وأنشئت في ١١ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٢ ، وهي محاكم عسكرية عامة ذات سلطات رئيسية ، ومحاكم ابتدائية عامة ذات سلطات محدودة . المحاكم الشرعية ، وتنظر في شؤون الشريعة الإسلامية ويرأسها قاض تعينه الإدارة العسكرية البريطانية ، وأنشئت محكمة استئناف شرعية عليا برئاسة قاضي القضاة . المحاكم اليهودية ، وتنظر في شؤون الطائفة اليهودية . المحاكم الأهلية ، وقد أنشئت في أول يناير (كانون الثاني) سنة ١٩٤٨ لتحل محل محاكم البلدية التي أنشئت في شباط (فبراير) ١٩٤٦ (٧٢) .

الامن الداخلي :

كانت قوات البوليس في العهد الإيطالي مقسمة الى قسمين : أولهما القسم المسمى الكارينيري Carabinieri الشرطة الملكية ، والثاني البوليس الأفريقي ، وفي عهد الإدارة العسكرية البريطانية ومنذ البداية كان لا بد من إيجاد قوة بوليس جديدة ، ولما وجدت تلك الإدارة نقصاً في ضباط البوليس المدربين وقوة البوليس الجاهزة استبقت الكارينيري لفترة في بني غازي والمرج خاصة في مراقبة المرور (٧٣) ، ثم وضعت خطة للاستفادة من الكتائب الليبية السنوسية التي كانت قد جندت في مصر من اللاجئين من برقة بعد اندلاع الحرب (٧٤) ، كنواة لقوة بوليس ليبية ، وأخذت فصائل هذا التنظيم تصل الى المراكز التي عينت لها بعد اخلاء برقة نهائياً من قوات

المحور وبدأ تحويلها من جنود الى شرطة (٧٥) ، ويعتقد رايت (Wright) في كتابه ان تشكيل قوة البوليس الليبية بهذا الشكل كان أكثر انجازات الادارة العسكرية البريطانية نجاحا ، فقد نظمت على الاسس نفسها التي نظمت عليها قوات البوليس في المستعمرات البريطانية الاخرى (٧٦) .

ثم حلت هذه وانشئت قوة دفاع برقة « التي أصبحت مسؤولة عن جميع أعمال البوليس في انحاء البلاد كافة ، فضلا عن قيامها بأعمال البوليس العادية تقوم أيضا بالمحافظة على الموانئ وحماية الغابات وأعمال السجون ، وكان عدد قوة الدفاع تلك في عام ١٩٤٨ ، ٢٩ ضابطا ومفتشا بريطانيا و ٧١٦ شخصا من الوطنيين من ضباط وجنود » (٧٧) .

بخصوص حالة الامن في برقة فيذكر رود (Rodd) في كتابه أن الامن كان مستتباً بصورة غير متوقعة على الرغم من تسليح الاهالي ، ويضع أسباباً لذلك وهي : رحيل المدنيين الايطاليين والانضباط الذي أظهره رجال البوليس والدعوة التي وجهها السيد محمد ادريس السنوسي من القاهرة الى أهالي برقة والتي طلب منهم فيها ترك الخلافات التي كانت قد تراكت في العهد الايطالي ، واهتم أهالي برقة برغبته تلك اهتماماً ملحوظاً ويضيف « رود » أنه لم يحدث في برقة في عهد الادارة العسكرية البريطانية سوى ٦٠ حالة قتل ، و ٤٨٢ حالة سطو في جميع انحاء اقليم برقة ، في الوقت الذي لم تجر أية محاولة لتجريد السكان من السلاح ، اذ وجد الكثير من الاسلحة والذخائر في الصحراء بين أيدي البدو (٧٨) .

الا أن كيرك (Kirk) يذكر في كتابه أنه جرى خرق للنظام والقانون في منطقة الجبل الاخضر حيث كان الليبيون قد جردوا من اراضيهم من أجل المشاريع الايطالية الاستيطانية ، وفي بداية الاحتلال البريطاني النهائي ارادوا استعادتها بالقوة . وكانت هذه هي المشكلة الرئيسية التي واجهت البوليس ، ويضيف كيرك الى ذلك ان الادارة العسكرية البريطانية توصلت الى قرارات أدت الى حل تلك المشكلة (٧٩) .

الناحية المالية :

كانت الليرة الايطالية (Italian Lire) هي العملة المستعملة قبل عهد الاحتلال البريطاني ، ومنذ بدايته استعملت العملة المصرية كعملة رسمية ، ولكن الليرة الايطالية ظلت مستعملة حتى ١٧ تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩٤٥ حتى صدر القرار رقم ٩٣ الذي أقر الجنيه المصري بأنه الجنيه الرسمي . أما المذكرة العامة رقم ٤٨ الصادرة في ١٧ تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩٤٥ فقد سمحت باستعمال العملة الايطالية من ورق نقدي وغيره من فئة عشر ليرات فما دون لتدفع في داخل البلاد حتى ١٠ ٪ من قيمة الدين (٨٠) .

وحتى ٣٠ ايلول (سبتمبر) سنة ١٩٤٥ سمح باستعمال الليرة الإيطالية من قيمة عشر ليرات فما فوق لشراء الاطعمة من الادارة العسكرية البريطانية ، بحيث يعادل الجنيه الاسترليني ٤٨٠ ليرة والجنيه المصري ٤٩٠ . وليس هناك احصاء للعملة الإيطالية المتداولة بالليرة في بداية الاحتلال البريطاني ولكن يقدر ما سحبه الادارة العسكرية البريطانية من عملة متداولة منذ بداية الاحتلال حتى ٣٠ سبتمبر ١٩٤٥ بنحو ٢٠٢٠٧٨٤٧ر٤٣٧ (٨١) . ويذكر « رود » أن المبلغ الاجمالي لليرات الإيطالية التي استلمتها الادارة خلال عام ١٩٤٣ بلغ ٢٢٧ مليون ليرة ايطالية تقريبا ، وبقي من هذا المبلغ تحت تصرف الادارة ٥١ مليون ليرة في ٣١ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٤٣ (٨٢) .

وعندما انتهى التعامل بالليرة الإيطالية عام ١٩٤٥ ، لم يكن في البلاد رصيد لعملتها الرسمية ، فعمدت الادارة العسكرية في برقة الى سد حاجتها من العملة الرسمية وذلك بالحصول عليها من البنك الاهلي المصري بترخيص من الحكومة المصرية وعلى أن تصدر تلك العملة عن طريق بنك باركليز Barclays في بني غازي حسب تقديرات الادارة العسكرية البريطانية . وكانت في هذا البنك ميزانية تقابل الاحتياجات العادية (٨٣) .

وقد قدرت العملة المتداولة في عام ١٩٤٨ بنحو ١٣٠٠.٠٠٠ جنيه مصري ، في حين قدرت العملة التي دخلت البلاد رسميا منذ الاحتلال كما يلي (٨٤) :

تموز (يوليو) ١٩٤٣	٣٠٠.٠٠٠	جنيه مصري
متبقى ١٩٤٣	٨٠٠.٠٠٠	جنيه مصري
متبقى ١٩٤٤	١٠٠.٠٠٠	جنيه مصري
متبقى ١٩٤٥	١١٠.٠٠٠	جنيه مصري
متبقى ١٩٤٦	٢٦.٠٠٠	جنيه مصري
متبقى ١٩٤٧	٣٦.٠٠٠	جنيه مصري
متبقى ١٩٤٨	٣٦.٠٠٠	جنيه مصري
المجموع	٢٠٤١٢.٠٠٠	جنيه مصري

أما بالنسبة للبنوك ، فقد كان في برقة ثلاثة منها أيام الحكم الإيطالي ، وبعد الاحتلال البريطاني الاول هجرت هذه البنوك واختفى موظفوها ومعهم معظم النقد والسجلات ، وعندها استقدمت الادارة العسكرية البريطانية مسؤولا من بنك باركليز

في فلسطين ، فرغ تقريراً انه لم يبق سوى القليل من الكوادر البنكية الإيطالية في برقة للدرجة انه من غير الممكن إعادة تشغيل تنظيم بنكي على النمط الإيطالي (٨٥) ، لذلك قامت السلطات البريطانية بفتح فرع من بنك باركليز سنة ١٩٤٣ ، أصبح المصرف الوحيد في برقة الذي يقدم تسهيلات لمدة قصيرة الاجل ، لكنه لا يقوم بتقديم سلف للتجار أو الزراع ، كما انه لا يدفع فوائد على الاموال المودعة (٨٦) .

هذا وقد كان التعامل بالعملة الاجنبية ، بجميع أنواعه بما فيها العملة المصرية ، يخضع لرقابة الادارة العسكرية البريطانية وهي سياسة اتبعتها تلك الادارة منذ البداية ، وطبقت على بنك باركليز . لذلك لم يكن هذا البنك يستطيع تصريف أمواله للخارج دون اذن ، وهذا ما أدخل برقة ضمن نطاق الاسترليني والتحويلات اليها مسموح بها ، وطبق تقديرات الادارة العسكرية البريطانية كانت المبالغ المدفوعة في الخارج عن طريق بنك باركليز ٩٧ر٩٪ خلال عام ١٩٤٧ الى البلاد الداخلة نطاق الاسترليني و٧٠٪ منها الى مصر و ٢ر١٪ الى بلاد خارج الاسترليني (٨٧) .

ومما يجدر ذكره أن اقليم برقة تمتع بمركز ممتاز فيما يتعلق بالتبادل مع مصر ، اذ أن بائعي الماشية ، وهي من صادرات الاقليم الرئيسية ، الى مصر كان مسموح لهم باستثمار ٥٠٪ من معاملاتهم في بضائع مصرية دون الرجوع الى موافقة مراقبة النقد بصرف المال ويسهل الحصول على العملة الخارجية لدفع ثمن الواردات التي كانت تعتبرها الادارة العسكرية البريطانية أساسية (٨٨) .

أما بخصوص الميزانية ، ففي خلال فترة الادارة العسكرية البريطانية وحتى ٣٠ حزيران (يونيو) سنة ١٩٤٧ بلغت المساعدات التي قدمتها الحكومة البريطانية ١٠ر٧٥٠ر٦٩٨ جنيها وهذا ما يوازي ٢٦٪ من مجموع المنصرف وهو كالآتي:

جنيه

١٩٨٥٧	المدة التي نهايتها ٣١ حزيران (يونيو) ١٩٤١
٤٥٥٤٧	المدة التي نهايتها ٣١ حزيران (يونيو) ١٩٤٢
٣٧٣ر١٠	السنة التي نهايتها ٣٠ حزيران (يونيو) ١٩٤٣
٣٩٨ر٩٧٧	السنة التي نهايتها ٣٠ حزيران (يونيو) ١٩٤٥
١١٩ر٨٠٢	السنة التي نهايتها ٣٠ حزيران (يونيو) ١٩٤٦
٤٤٥ر٢٤٠	السنة التي نهايتها ٣٠ حزيران (يونيو) ١٩٤٧

وقد قدرت الميزانية للسنة المنتهية في ٣٠ حزيران (يونيو) سنة ١٩٤٨ بنحو ٢٥٠.٢٦٥ ر.جنيها ، أما الدخل فبلغ ٢٥٠.٢٥ ر.جنيها مما استلزم مساعدة بلغت ٣٤٥٠٠٠ ر.جنيه (٨٩) .

وبخصوص الضرائب فقد تقرر بعد الاحتلال البريطاني انه من الاصلح التخلي عن الضرائب المباشرة بوجه عام للمساعدة على انعاش البلاد من اضرار الحرب ، وطبقا لذلك فان مساهمة السكان ازاء نفقات الادارة العسكرية امكن الحصول عليه كله عن طريق الضرائب غير المباشرة ما عدا ارباح التجارة التي ادخلت في مايو سنة ١٩٤٦ ، وهذه الضرائب فرضت على كل شخص مصرح له بالتجارة او اعمال مالية او وظيفية في منطقة من مناطق المجالس البلدية بنسبة ٣٪ من الدخل السنوي من هذا النشاط ، ومع ان هذه الضرائب تجمع تحت نفوذ الادارة البلدية وقانون المجالس في المدن فان المحتصل من الضرائب يؤخذ الى دخل الادارة العامة (٩٠) .

وكانت الادارة العسكرية البريطانية قد ادخلت منذ عام ١٩٤٤ تعرفه مبسطة للضرائب ، وقد اعيد سن هذه الضريبة عام ١٩٤٥ ، كما صدر امر رقم (١٤) ، اصبح نافذ المفعول منذ اول مايو سنة ١٩٤٦ ، يعلق بضرائب المجالس البلدية والمصاريف المتصلة بها (٩١) .

التجارة :

توقفت تجارة برقة مع مصر في العهد الايطالي لاسباب سياسية واقتصادية ، واجبر اهلها على تحويل تجارتهم الى ايطاليا والاعتماد على التجار الايطاليين ، وكان انتاجهم قد توقف لمصادرة افضل اراضيهم من اجل اقامة المستعمرات لاستيطان الفلاحين الايطاليين (٩٢) ، وفي الاحتلال البريطاني الاول لبرقة ، اتخذت الخطوات من قبل مراقب المالية والحسابات في القاهرة لاعادة التجارة مع مصر ، وبمساعدة المكتب البريطاني للتجارة في الاسكندرية وضعت الخطوات التنفيذية ، واستعد عدد من التجار لتوريد البضائع الى برقة وخاصة المواد الغذائية ، وقد تم شحن هذه البضائع الى برقة عن طريق البحر الى المخازن العسكرية ليتم توزيعها عن طريق سلطات الادارة العسكرية البريطانية (٩٣) .

ثم بدا في عام ١٩٤٣ ، ان التجارة متوقفة تماما ، فعملية الشحن الى خارج البلاد كانت غير ممكنة وخاصة شحن الحبوب والصوف ، وكذلك عدم امكانية استيراد البضائع المصنعة ، مما ادى الى تزايد الشكوى الرئيسية للتجار والمنتجين الذين

كانوا يعيشون على ما يمكن بيعه لجيش الاحتلال ، وزاد الحالة سوءا النقص الحاد في النقل (٩٤) . ولذلك - في نهاية عام ١٩٤٣ - تقدم مجلس بلدي بني غازي بالتماس الى الادارة العسكرية البريطانية ، يحتج فيه على الركود العام للتجارة ، وقد اجابت تلك الادارة على ذلك « بأن هذا الركود خارج عن نطاق سيطرتها ، وانه يعود الى قوانين الاستيراد والملاحاة التي يشرف عليها الحلفاء والناجمة عن الحالة التي كان يعيشها العالم آنذاك » (٩٥) .

وأمام هذا الواقع الذي كانت تعيشه برقة من ناحية التجارة ، قامت الادارة العسكرية البريطانية بإلغاء امتيازات التعرفة الجمركية ووضعت رخصة للاشياء التي تصدر أو تستورد ومنحت تسهيلات خاصة للبضائع المستوردة من اقليم طرابلس ومن مصر (٩٦) .

وبالنسبة للواردات ، فأهم ما كان يستورد الحبوب بمشتقاتها ، والمواد الغذائية والبضائع المصنعة التي كانت يفضل الحصول عليها من البلاد الداخلة في نطاق الاسترليني ، ومنذ عام ١٩٤٧ وضعت الحكومة البريطانية قيودا على البضائع المستوردة (٩٧) .

الواردات (القيمة بالجنيه الاسترليني) (٩٨)

(أ) حبوب			(ب) مواد غذائية أخرى			(ج) بضائع أخرى		
١٩٤٣			١٩٤٤			١٩٤٥		
أ	ب	ج	أ	ب	ج	أ	ب	ج
١٠٣	٤٨٠.٢٩	١٢٤ر١٦٦	١٥٩ر١٤٥	٥٣٣ر٩٠.٩	٤١٢ر٩٥٢			

أما فيما يخص بالصادرات ، فقد شجعت الادارة العسكرية البريطانية تصدير ما يزرعه الاهالي من خضراوات وما ينتجونه من منتجات حيوانية ومواد مصنعة وذلك بمنحهم رخص لتصدير الزائد من منتجات البلاد (٩٩) .

الصادرات (القيمة بالجنيه الاسترليني) (١٠٠)

(أ) خضروات ومنتجات حيوانية (ب) منتجات مصنعة (ج) معادن ومنتجات أخرى

١٩٤٤			١٩٤٣		
ج	ب	أ	ج	ب	أ
٥٢ر٠٠٦	٥٢ر٢٧٠	٩٩ر٢٥٥	٣٧٦٧	١٤ر٢٨٠	
			١٩٤٥		
			ج	ب	أ
			١٥٨ر٨١٧	١٢ر٠١٨	٢٧ر٠٩٦

الناحية الزراعية :

منذ الاحتلال البريطاني الاول ، ترك المستوطنون الزراعيون من الايطاليين مزارعهم في برقة لخوفهم من انتقام العرب اصحاب الارض والذين كانوا قد جردوا منها ، وقد حاول الضباط السياسيون البريطانيون حثهم على استئناف العمل ، الا أن تلك المحاولة لم تنجح ولذلك جاء في رسالة مونجوميري الى أهالي برقة في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٢ أن يقوم هؤلاء بحماية المزارع الايطالية المهجورة ويعملون على فلاحتها حسب ما يستطيعون (١٠١) .

ثم قامت الادارة العسكرية البريطانية من ناحيتها بانشاء دائرة الزراعة وعلى أساس انها تابعة لها وانيط بها مايلي :

١ - مشروع سهل المرج : أصبح هذا المشروع أهم النشاطات الزراعية التي كانت تجرى في عهد الادارة العسكرية البريطانية ، وكجزء من خطة عامة لزيادة المنتجات الغذائية في الشرق الاوسط ، بحيث يتم تزويد برقة باحتياجاتها ثم يصدر الفائض ، لذلك تعهدت دائرة الزراعة بزراعة الاراضي التابعة للدولة بالإضافة الى الملكيات الخاصة الواقعة داخل منطقة سهل المرج ، وفي هذا السهل وحده ٣٠ ألف هكتار صالحة للزراعة ، ويمكن استغلالها بالطرق الحديثة ، وكانت هذه الاراضي في معظمها قد جردت من مالكيها الاصليين في عهد الايطاليين واعطيت لجهاز الانتي (Ente) (١٠٢) .

ولكن منذ شهر آذار (مارس) ١٩٤٣ ، بدأت تظهر في سير المشروع نواقص في الجهاز المشرف عليه وفي الآلات ، لذلك قام اثنان من ممثلي « مركز تموين الشرق

الاطوسط « بدراسة للمشروع ووضعوا تقريرا أوصوا فيه بزراعة ١٢ ألفهكتار من القمح والشعير في سهل المرج ، وفي حزيران (يونيو) من السنة نفسها وافقت وزارة الحربية البريطانية على تنفيذ المشروع وأنيط بالكولونيل ج. فلمنج (G. Fleming) تنفيذه وبمراقبة مباشرة من الادارة العسكرية البريطانية ، واشترك في التنفيذ أربعة من الضباط البريطانيين ومجموعة من أسرى الحرب تم تحويلهم الى عمال زراعيين ، مما أتاح الفرصة لنجاح مشروع سهل المرج ، ولم يتم فقط زرع مزارع القمح الايطالية وحصادها ، بل تم في نهاية عام ١٩٤٣ حراثة وزراعة ٨٦٣.١ هكتار بالقمح والحنطة، وفي نهاية تلك السنة وافقت وزارة الحربية البريطانية على توسيع المشروع لكي يشمل ٢٠٠٠ هكتار في موسم ١٩٤٤ - ١٩٤٥ (١٠٢) .

٢ - صيانة أماكن الاختبار الزراعي في بني غازي ودرة والمرج وغيرها من المراكز التي كان قد تم انشاؤها سابقا من قبل الايطاليين ، وقامت دائرة الزراعة بالاشراف المباشر على تلك المراكز كي تزود المزارعين بما يحتاجونه من البذور والفسائل، وعمدت أيضا دائرة الزراعة الى تأجير المزارع الصغيرة العائدة الى المستوطنين الايطاليين والتي بلغت حوالي ١٧٠٠ مزرعة الى المزارعين من العرب مع اعانتهم فنيا (١٠٤) .

وجاء في التقرير السنوي للادارة العسكرية البريطانية لعام ١٩٤٧ ، أن دائرة الزراعة قامت بزراعة ١٢١٤٦ هكتار وفقا لطرق الزراعة الحديثة من مجموع الاراضي التي استولى عليها الايطاليون سابقا والتي بلغت ٧٩٨٣٢ هكتارا ، وأعطت ٦٢٠٠٠ هكتارا للعرب بمقتضى نظام سنوي بلغ ٧٤١٤٦ هكتارا (١٠٥) .

الناحية التعليمية :

عند احتلال الجيوش البريطانية للبلاد ، وجدت جميع المدارس مغلقة والابنية مهتمة ، ولذلك لم يكن من السهل فتح مدارس في برقة بالسرعة التي كان يريدونها الجميع ، وازضافة الى ما سبق فان قلة المعلمين كانت من ضمن المعوقات أيضا ، ذلك ان الاحتلال الايطالي لليبيا قضى بتجهيل الناس لا تعليمهم (١٠٦) .

وقد تصدت الادارة العسكرية البريطانية لهذه المشكلة ، فقامت ببعض الخطوات، وحدث تطور في عملية التعليم لكنه كان بطيئا ، ففي حزيران (يونيو) ١٩٤٣ دعت لزيارة البلاد مجموعة من الموظفين الرسميين يمثلون دائرة التعليم السودانية ، وبناء على تقرير وضعته تلك المجموعة فقد استخدم في نهاية عام ١٩٤٣ من المدرسين ٤٨ لتعليم ٢٣٠٠ طالب ، وكان تدبير المواد التعليمية هو العائق الرئيسي في العملية التعليمية ، وأمكن تدبير ذلك بالتعاون مع الحكومة المصرية ، ثم استعانت الادارة

العسكرية البريطانية بالخبرات العربية فاستقدمت بعض المدرسين المصريين للتعليم في المدارس القليلة التي أنشأتها في برقة ، وصارت البرامج المصرية هي السائدة في التعليم حتى زوال تلك الإدارة (١٠٧) .

وحول المدارس ، فقد تم في كانون الاول (ديسمبر) سنة ١٩٤٦ فتح ست مدارس ، وفي عام ١٩٤٨ أصبح هناك ٥١ مدرسة مفتوحة في البلاد اضافة الى ٢٦ مدرسة قرآنية ، وكان تقسيم المدارس على نمطين :

المدارس الخاصة : مدرسة كاتدرائية واحدة فيها ١٥٠ طالبا (من العرب واليهود والمسيحيين) .

المدارس الحكومية : ٤٦ مدرسة عربية فيها ٥٨٥١ طالبا (١٠٨) .

ويبدو أن السياسة التي وضعتها بريطانيا في برقة عن طريق ادارتها العسكرية تعكس سياسة بريطانية موجهة الى انشاء درجة كبيرة من الاستقلال الذاتي في برقة (١٠٩)، مثلما تعكس سياسة بريطانية قائمة على الفصل بين برقة وطرابلس وتقريب العناصر التي لا تقاوم النفوذ البريطاني بل ترحب به ، وقد فرقت الإدارة العسكرية في المعاملة بين الاقليمين ، فسياسة الانجليز في برقة غيرها في طرابلس ، « ففي برقة أباحوا التعامل بالعملة المصرية ورفعوا الرقابة عن الممتلكات وأباحوا تصدير التجارة واستيرادها الى حد ما ، وتوسعوا في توظيف ابنائها في وظائف الحكومة وأدخلوا على التعليم تحسينات ، أما في طرابلس فلا يوجد شيء من هذا » (١١٠) .

وكان من المقرر أن لا يطول العهد بالإدارة العسكرية البريطانية في برقة ، فنتهي بانتهاء الحرب العالمية الثانية ، إلا أن ذلك لم يتم واستمرت هذه الإدارة قائمة بالشكل الذي بدأت به حتى ١٦ أيلول (سبتمبر) ١٩٤٩ عندما منحت بريطانيا برقة الاستقلال الذاتي ، بعد أن أصدر رئيس الإدارة العسكرية البريطانية دوكاندول de Candol

البيان رقم (١٨٧) بعنوان « أمر السلطات الانتقالية » وقد جاء مطابقا للسياسة البريطانية بتشجيع الاستقلال الذاتي في برقة ، وتحول رئيس الإدارة في برقة الى المقيم العام (١١١) ، فدخلت برقة نتيجة لذلك في مرحلة جديدة بالنسبة للاحتلال البريطاني .

الخاتمة :

كان لموقع برقة الجغرافي أثر كبير على تاريخها على مر العصور ، خاصة وأنها واقعة على حدود مصر الغربية ، لذلك ارتبط تاريخها قديما بمصر ، وازداد هذا الارتباط قوة عندما دخلت برقة ضمن عملية الفتح العربي .

وفي العصر الحديث تنازع تاريخها تيارات سياسية عديدة ، وكانت تتبع طرابلس أحيانا وتنفصل عنها أحيانا أخرى . وكان للقبائل البدوية - العنصر الغالب على سكان برقة - شأن كبير فيها ، لا سيما بعد أن انتشرت السنوسية فيها ، منذ منتصف القرن التاسع عشر واستطاعت تنظيم هذه القبائل سياسيا وعسكريا ، وتمكنت من سد الفراغ الذي نجم عن تخلي الدولة العثمانية عن برقة وباقي أقاليم ليبيا بعد التوقيع على معاهدة أوشي - لوزان عام ١٩١٢ مع إيطاليا .

وبعد اندلاع الحرب العالمية الثانية وانضمام إيطاليا الى معسكر المحور ، حدث الصدام العسكري بين بريطانيا المسيطرة على مصر وإيطاليا المسيطرة على برقة ، فبريطانيا ترغب في حماية وجودها في مصر وتخشى خطر إيطاليا عليها ، وإيطاليا في ظل حكم موسوليني ترغب في الوصول الى قناة السويس وتثبيت أقدامها في شرقي البحر المتوسط . ونجم عن ذلك حرب في برقة امتدت سنتين (١٩٤٠ - ١٩٤٢) ، ودخل الألمان ضمن هذه العملية ، حيث شعروا بخطورة موقف حليفهم إيطاليا ، واشتركوا في العمليات العسكرية بفاعلية ، إلا أن تلك الحرب حسمت لصالح بريطانيا وتم الاحتلال البريطاني الثالث والآخر لبرقة عام ١٩٤٢ ، ثم خروج قوات المحور من جميع أقاليم ليبيا عام ١٩٤٣ .

وقد أعقب ذلك انشاء ثلاث إدارات عسكرية ، اثنتان منها بريطانيتان في برقة وطرابلس وثالثة فرنسية في فزان . وكانت الإدارة العسكرية البريطانية في برقة منفصلة تماما عن تلك التي في طرابلس واستطاعت بريطانيا من خلال إدارتها العسكرية في برقة أن تسير في حل المشكلات التي واجهتها بدون عوائق ، حيث اجتمعت عوامل عديدة ساندت في ذلك الإدارة البريطانية في برقة حتى عام ١٩٤٩ حيث منحت بريطانيا برقة الاستقلال الذاتي .



الهوامش

- برقة بالإدارة التركية - السنوسية انظر
حول هذا الموضوع :
Abun - Nasr, Jamil : **A History
of Maghrib** , Cambridge 1975 ,
303 - 307 .
- محمود الشنيطي : قضية ليبيا ، القاهرة
١٩٥١ ، ص ٢٤ .
- Bagnold, R. A., **Libyan Sands**,
London 1942 , pp. 198 - 190 .
- هنري أنيس ميخائيل : العلاقات الانجليزية
الليبية مع تحليل للمعاهدة الانجليزية
الليبية ، الهيئة المصرية العامة للتأليف
والنشر ، القاهرة ١٩٧٠ ، ص ٥٠ .
- حول هذا الموضوع انظر : أحمد صدقي
الدجاني ، الحركة السنوسية ، نشأتها
ونموها في القرن التاسع عشر ، القاهرة
١٩٦٧ ، ص ٨٦ - ٨٧ . وأيضا :
- Ziadeh , Nicola : **Sanusiyah ,
A Study of Revivalist Move-
ment of Islam** , Leiden 1968 ,
p. 46.
- Pritchard, Evans : **The Sanusi
of Cyrenaica**, Oxford 1949, pp.
13 - 14 .
- Nyrop , R . F. and Others :
**Area Handbook far Libya Libya
a country Study** , American
University: Washington, D. C.
Foreign Aria Studies, 1979, p.
25.
- حول هذا الموضوع انظر :
Ziadeh, Op. Cit., p. 66.
- للاطلاع على نص هذه المعاهدة انظر :
- Hurwitz , J. C., **The Middle
East and North Africa in World**
- Despois (J.). «Barka», in : **The
Encyclopaedia of Islam** (New
Edition) , Vol. 1, Brill, Leiden
1960 , p. 1048 .
- وانظر : خارطة رقم (١) .
- لمزيد من المعلومات حول ذلك انظر : ابراهيم
نصحي ، مصر في عهد البطالة ، القاهرة
١٩٦٦ ، ج ١ ، ص ٨٠ - ٨٦ .
- Despois, in : E. I. , Vol. 1, p.
1049 (Art: Barka) .
- ولمزيد من التفاصيل انظر : عبد الكريم
رافق ، العرب والعثمانيون ١٥٢٦ - ١٩١٦ ،
دمشق ١٩٧٤ ، ص ٨٠ .
- Rossi, Ettore., **Storia di Iripoli
edella Iripolitania**, Roma 1968,
pp. 141 - 142 .
- ستودارد ، لوثرروب : حاضر العالم الاسلامي،
نقله الى العربية عجاج نويهض ، وفيه فصول
وتعليقات وحواش مستفيضة ، بقلم الامير
شكيب أرسلان ، دار الفكر : بيروت .
(د.ت) ، ج ٢ ، ص ١١٢ .
- كورود ، فرانشمكو : ليبيا أثناء العهد
العثماني ، ترجمة خليفة محمد التليسي ،
طرابلس ١٩٧١ ، ص ٢٩ . ولمزيد من
التفاصيل ، انظر : أحمد النائب ، المنهل
العذب في تاريخ طرابلس الغرب ، طرابلس
(د.ت) ، ص ١٩٩ .
- رافت الشيخ : في تاريخ العرب الحديث ،
القاهرة ١٩٨٣ ، ص ٢٢٩ .
- Anderson, Lisa : **The State and
Social transformation in Tuni-
sia and Libya , 1830 - 1980** ,
Princeton 1986 , p. 90.
- نشير هنا الى ان جميل أبو النصر يطلق على
هذه الفترة الواقعة ما بين ١٩٨٧ و ١٩١١ في

Royal Institute of International Affairs, Vol. XVII, No.13, June 29, 1940, pp. 779-780.

Churchill, Winston: **The Second World war**, London 1964, Vol. 4, p. 86.

Playfair, Op. Cit., Vol. 1, p. 207.

Churchill, Op. Cit., Vol.4, p.86.

للاطلاع على العوامل التي منعت الإيطاليين من تجاوز سيدي براني ، انظر :

Montgomery of Alamein, Faeld Marshal Viscount : A Hisstory of Warfare, Cleveland and Newyork 1968, p. 506 .

Play Fair, Vol. 1, p. 238.

حول تفاصيل تقدم القوات البريطانية حسب الخطة التي وضعها أوكورنر وتراجع الجيش الإيطالي في داخل برقة انظر :

Play Fair, Op. Cit. , Vol. 1, pp. 358 - 362 .

Ibid. , p. 367 .

Ibid. , Vol. 2, p. 11 .

Hart, **History of the Second World War**, Newyork, 1971, p. 120 .

للاطلاع على تفاصيل معركة طبرق وعوامل فشل المحور في احتلالها انظر :

Play Fair , Op. Cit, Vol. 2, pp. 155 - 156 .

Hart, **Strategy**, New york, wa-shington, 1967 , p. 277 .

Ibid. , P. 279 .

Roodd , Lord Rennel : **British Military Administration of Occupied Territories in Africa, 1941 - 1947**, Published by his Majesi's Stationary Office, London 1948, p. 1.

Politics, A documentary Record, European Expansion, 1535 - 1914 , Yale University Press : New Haven and London 1975, Vol, 1, pp. 552 - 557 .

(٢٦) نقولا زيادة ، محاضرات في تاريخ ليبيا من الاستعمار الإيطالي الى الاستقلال ، القاهرة، ١٩٥٨ ، ص ٨٤ .

(٢٧) الشنيطي ، المرجع السابق ، ص ٦٠-٦١ .

(٢٨) Wright, John: **Libya, Nations of the Modern World** , London 1969, pp. 140 - 141 .

(٢٩) زيادة ، المرجع السابق ، ص ٩٨ .

(٣٠) المرجع نفسه ، ص ١١١ .

(٣١) وحول الحرب السنوسية - الإيطالية التي حدثت في تلك الفترة ، انظر : محمود شلبي، حياة عمر المختار ، بيروت ١٩٨٢ ، ص ١٠٩ - ١٦٣ .

(٣٢) للتوسع في موضوع الاستعمار الاستيطاني الإيطالي في برقة في فترة الثلاثينات في هذا القرن ، يمكن العودة الى المرجعين التاليين :

(٣٣) ادريس صالح الحرير : الاستعمار الاستيطاني الإيطالي في ليبيا ١٩١١ - ١٩٧٠ ، طرابلس ١٩٨٤ ، ص ٦٩ - ٨٨ .

(٣٤) Segre , Claudio . G ., **Fourth Shore, The Italian Colonization of Libya**, Chicago and London 1974, pp. 82 - 101 .

(٣٥) Play Fair, I. S. O., **The Midite-ranean and Middle Eest**, Vol.1, **The Early Success against Italy**, Published by Her Maje-sty's Stationary Office: London 1954, p. 109.

(٣٦) للاطلاع على النص الكامل لبنود الهدنة الألمانية الفرنسية ، انظر :

(٣٧) « The Bulletin of International News, » Fortnightly by the

(٣٨) (٣٩)

(٣٩) (٤٠)

(٤٠) (٤١)

(٤١) (٤٢)

ational Affairs, Oxford University Press, London 1952, p. 382.

Rodd, Op. Cit., pp. 23-24.

كان لوندجرج يتمتع بخبرة اكتسبها أثناء إقامته في العراق وفلسطين .

لزيد من المعلومات حوله ، انظر :

Rodd, Op. Cit., pp. 34-35.

Ibid., pp. 243-244.

Ibid., p. 244.

Ibid., pp. 247.

للاطلاع على نص هذا الخطاب انظر :

Rodd, Op. Cit., p. 249.

Ibid., p. 250.

للاطلاع على نص هذه الرسالة ، انظر :

Rodd, Op. Cit., pp. 250-251.

خدوري ، المصدر السابق ، ص ٥٨ .

Rod, Op. Cit., p. 34.

Oodd, Op. Cit., p. 248.

خدوري ، المصدر السابق ، ص ٥٨ .

Op. Cit., Loc. Cit.

خدوري ، المرجع السابق ، ص ٥٩ .

للمزيد حول هذا الموضوع أنظر : نقولا

زيادة ، المرجع السابق ، ص ١٢٧-١٢٨ .

ليبيا سنة ١٩٤٨ (وثيقة رسمية) ،

ص ١٦٣ .

المصدر نفسه والصفحة نفسها .

المصدر نفسه والصفحة نفسها .

المصدر نفسه ، ص ١٦٤ .

المصدر نفسه ، ص ١٦٣ .

المصدر نفسه ، ص ١٦٤-١٦٥ .

المصدر نفسه ، ص ١٦٥ - ١٦٦ .

ونشير هنا أن المحاكم الشرعية واليهودية هي

الوحيدة التي كانت موجودة قبل عهد

الاحتلال . وقد اختفت جميع المحاكم

الإيطالية على اختلاف أنواعها عقب انسحاب

الإيطاليين من البلاد : انظر : المصدر

نفسه ، ص ١٦٦ .

(٣٩) حول معركة طبرق والطريقة التي تم فيها

احتلال رومل لها أنظر :

Montgomery of Alamein, p. 513.

(٤٠) للاطلاع على تفاصيل تلك المعركة يمكن

الرجوع الى المصادر التالية :

Churchill, Op. Cit. , pp. 158-173;

Hart, History, of the Second

World War pp. 281-283; Young,

Op. Cit, pp. 162 - 182 .

وللاطلاع على موقع العلمين أنظر الخارطة

رقم (٢) .

Montgomery of Alamein, Op. Cit

pp. 513 - 514,

Wright, Op. Cit. , p. 186 .

(٤٣) ليبيا سنة ١٩٤٨ (وثيقة رسمية) ، قدم

لها وأعددها للنشر نقولا زيادة ، الجامعة

الامريكية ، بيروت ١٩٦٦ ، ص ٣ . وهي

تقرير قدمته لجنة خاصة تمثل مجلس وزراء

خارجية الدول الاربعة (بريطانيا وفرنسا

والولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي) ،

زارت ليبيا بأقاليمها الثلاث ووضعت تقريرا

مفصلا ليسترشد به الوزراء في قراراتهم .

(٤٤) مجيد خدوري : ليبيا الحديثة ، ترجمة

نقولا زيادة ، بيروت ١٩٦٦ ، ص ٦٤-٦٥ .

Pelt, Adrian : Libyan Inde-

pendence and the Uni ted Na-

tions , Yalc University Press ,

New Havan and London, 1970,

p. 58 .

(٤٦) هنري حبيب ، ليبيا بين الماضي والحاضر،

ترجمة شاكرا ابراهيم ، طرابلس ١٩٨١ ،

ص ٧٠ - ٧١ .

Rodd , Op. Cit. , pp. 11 - 14 .

Ibid. , pp. 15 - 16 .

Ibid. , p. 16 .

لزيد من المعلومات حول ذلك أنظر :

Kirk, George, The Middle East

in the War, Survey of Intern-

- Rodd, Op. Cit., p. 409. (٩٨)
- ليبيا سنة ١٩٤٨ (وثيقة رسمية)، ص ١٨٢. (٩٩)
- Rodd, Op. Cit., p. 412. (١٠٠)
- Kirk, Op. Cit., p. 396. (١٠١)
- Rodd, Op. Cit., p. 259. (١٠٢)
- ونشير هنا أن جهاز الانتى كان قد أنشأ سنة ١٩٢٢ تحت اسم مؤسسة الاستيطان في برقة (Ente Per La Colonizzazione Della Cirenaica)
- لغرض احياء وتعمير منطقة برقة وخاصة الجبل الاخضر ، ثم شملت نشاطاته منطقة طرابلس .
- حول هذا الجهاز انظر :
- Moore, Martin : **Fourth Shore, Italy's Mass Colonisation of Libya**, London 1940. p. 233.
- Rodd, Op. Cit., p. 259. (١٠٣)
- Op. Cit., Loc. Cit. (١٠٤)
- للاطلاع على تفاصيل ما جاء في هذا التقرير أنظر : ليبيا سنة ١٩٤٨ (وثيقة رسمية) ص ١٧١ - ١٧٢ .
- المصدر نفسه ، ص ٤. (١٠٦)
- انظر : (١٠٧)
- Rodd, Op. Cit., p. 257.
- ليبيا سنة ١٩٤٨ (وثيقة رسمية) ، ص ١٩٢ - ١٩٣ . (١٠٨)
- Pelt, Op. Cit., p. 127. (١٠٩)
- الشنيطي ، المرجع السابق ، ص ١٨١ . (١١٠)
- ونشير هنا الى أن الادارة العسكرية البريطانية في اقليم طرابلس خارجة عن نطاق هذه الدراسة ، ولكن للاطلاع على تلك الادارة يراجع :
- Rodd, Op. Cit p. 266-293.
- للاطلاع على تفاصيل ذلك البيان انظر : (١١١)
- Pelt, Op. Cit., pp. 157-158.
- انظر : (٧٣)
- Rodd, Op. Cit., p. 36; Kirk, Op. Cit., p. 382 .
- نشير هنا الى ان هذه الكتاب التي كانت تسمى أيضا باسم « الجيش الليبي السنوسي » وأحيانا القوات العربية الليبية كان قد تم تشكيلها لتحارب الى جانب الحلفاء ، وقد تم ذلك اثر مباحثات بين القيادة العامة البريطانية في القاهرة وبين السيد محمد ادريس السنوسي في عام ١٩٤٠ .
- حول هذا الموضوع انظر : الشنيطي ، المرجع السابق ، ص ١٦٦-١٦٧ .
- Rodd, Op. Cit., p. 36. (٧٥)
- Wright, Up., Cit., p. 193. (٧٦)
- ليبيا سنة ١٩٤٨ (وثيقة رسمية)، ص ١٦٧. (٧٧)
- Rodd, Op., Cit., p. 256. (٧٨)
- Kirk, Op. Cit., pp. 282-283 (٧٩)
- ليبيا سنة ١٩٤٨ (وثيقة رسمية)، ص ١٧٦. (٨٠)
- المصدر نفسه والصفحة نفسها . (٨١)
- Rodd, Op. Cit., p. 262. (٨٢)
- وللاطلاع على موقع سيدي براني ، انظر انظر خارطة رقم (٢) .
- ليبيا سنة ١٩٤٨ (وثيقة رسمية)، ص ١٧٦. (٨٣)
- المصدر نفسه ، ص ١٧٦ - ١٧٧ . (٨٤)
- Rodd, p. 383 . (٨٥)
- ليبيا سنة ١٩٤٨ (وثيقة رسمية)، ص ١٧٧. (٨٦)
- المصدر نفسه ، ص ١٧٧-١٧٨. (٨٧)
- المصدر نفسه ، ص ١٧٧ . (٨٨)
- المصدر نفسه ، ص ١٧٨-١٧٩ . (٨٩)
- المصدر نفسه ، ص ١٨٠ . (٩٠)
- المصدر نفسه ، ص ١٨٠-١٨١. (٩١)
- Rodd, Op. Cit., p. 398. (٩٢)
- Ibid., p. 401. (٩٣)
- Ibid., pp. 256-257 . (٩٤)
- Ibid., p. 263 . (٩٥)
- ليبيا سنة ١٩٤٨ (وثيقة رسمية)، ص ١٨٢. (٩٦)
- المصدر نفسه ، ص ١٨٢. (٩٧)

البعد التاريخي للدور العسكري الصهيوني

في تهديد الامن القومي العربي

د. نظام عزت العباسي

جامعة اليرموك

نظرا لتعدد عوامل تهديد الامن القومي العربي سياسيا واقتصاديا واجتماعيا وثقافيا (*) فستلقي هذه الدراسة الضوء على زاوية واحدة ومهمة وهي : الدور العسكري الصهيوني في تهديد هذا الامن وبعده التاريخي .

فاذا اعتبر المفكرون العرب ان الدولة الصهيونية منذ قيامها عام ١٩٤٨ قد شكلت تهديدا مباشرا ومتواصلا للامن القومي العربي ، بدأ باقتلاع الشعب الفلسطيني ومحاولة استئصاله عضويا ، فان هناك تقصيرا في فهم ابعاد هذا الدور الصهيوني الذي خطط له منذ القرن التاسع عشر . وهكذا فستركز هذه الدراسة على الدور العسكري للحركة الصهيونية في بعده التاريخي / السياسي الذي ارتبط حتى عام ١٩٤٨ بقدرة الحراب الاوروبية على تفتيت امن منطقتنا العربية واستقرارها ، وتحول بعد هذا التاريخ الى رأس حربة يطعن ويمزق امن أمتنا العربية القومي .

شكل البرنامج الصهيوني منذ مؤتمر بال تحديا نوعيا وكما ، ليس في تهديد وجود الشعب العربي الفلسطيني فحسب ، بل وللأمة العربية جمعاء . ويمكن حصر تاريخ تطور هذا التهديد في المراحل الثلاث التالية :

١ - المرحلة الاولى ١٨٩٧ - ١٩١٧ .

٢ - المرحلة الثانية ١٩١٧ - ١٩٤٨ .

٣ - في الفترة اللاحقة لعام ١٩٤٨ .

تتميز المرحلة الاولى (١٨٩٧ - ١٩١٧) بمولد الحركة الصهيونية بشكل رسمي ومنظم . وقد تناقضت هذه الحركة ، من خلال محاولاتها خلق « قومية يهودية » مع القومية العربية الناشئة ، واثرت سلبيا عليها ، خاصة وانها لم تكن قد تبلورت

(*) هناك دراسات كثيرة وحديثة حول « الامن القومي العربي » تبدأ جميعها بمحاولة توضيحية لمعنى الامن القومي . للمزيد حول الامن القومي العربي وعوامل تهديده ، انظر مثلا : مجلة شؤون عربية ، عدد ٣٥ ، كانون ثاني ١٩٨٤ فقد خصص هذا العدد لمعالجة موضوع الامن القومي العربي تحت عنوان « ملف الامن القومي العربي » .

دراسات تاريخية ، العددان ٣٩ و ٤٠ ، كانون الاول ١٩٩١

بشكل واضح بعد . ولعبت القوى الخارجية في هذه المرحلة دورا أساسيا في انجاح أو افشال نمو الحركة الصهيونية والحركة القومية العربية الناشئة ، تباعا حسب ما تقتضيه مصالحها . وما اعنيه هنا بالقوى الخارجية ، هي قوى الاستعمار الاوروبي بتأثيره المباشر وغير المباشر على العرب ، سواء أولئك الذين كانوا تحت حكم الاتراك أو تحت حكم المستعمرين الاوروبيين (الانجليز والفرنسيين والايطاليين) .

ويبدو في هذا المجال ، أن نجاح التجربة المصرية (محمد علي باشا) هي التي حدثت بالقوى الاوروبية وخاصة الانجليزية منها أن تنتج سياسة الاحباط والافناء لكل توجه يراد به تثبيت دعائم قوة هذه الامة ، سواء كان ذلك على الصعيد الداخلي (جمع عناصر القوة الذاتية من الداخل) أو الخارجي (المتمثل في حماية هذه المنجزات من الاخطار الخارجية) .

وعلى الرغم من الاجهاض الانجليزي للحركة المصرية - بزعامة محمد علي بدعم اوروبي ، الا ان النتائج التي ترتبت على امتداد اثارها لبلاد الشام (حكم ابراهيم باشا لبلاد الشام ١٨٣١ - ١٨٤٠) كان له تأثير حاسم على اليقظة العربية (١) .

وهنا عازمت القوى الاوروبية - بخاصة الانجليزية - على احتواء اثار هذه الحملة المصرية باتجاهين :

الاول : عن طريق فرض سطوتها على كثير من قرارات الباب العالي السياسية والاقتصادية .

الثاني : عن طريق نشاطها المباشر داخل المنطقة العربية ، والذي شمل التجسس وبناء قوى محلية عميلة لها في المنطقة ، كاليهود الذين استطاعت انجلترا اخذ حق حمايتها لهم عام ١٨٥٠ م .

أما مجمل التأثيرات على حياة اليهود في أوروبا بشرقها وغربها في عصر المد القومي الاوروبي الذي امتد لينال بالتصفية الجسدية يهود شرق أوروبا ومحاولة التخلص من اخطارهم في غرب أوروبا ، فيبدو أنه شكل في توجه السياسة الانجليزية الاوروبية والشرق اوسطية أيضا احد المرتكزات لاستغلاله لصالح هذه السياسة (٢) .

وهكذا نستطيع ان نرى أيضا البعد الحقيقي لعدم تبني بريطانيا وبشكل رسمي لبرنامج الحركة الصهيونية حتى عام ١٩١٧ . فالوضع الدولي الذي طرحت فيه المسألة الشرقية خلال القرن الماضي وحتى الحرب العالمية الاولى ، لم يتمكن بريطانيا نتيجة لمنافسة الدول الكبرى انذاك ان تجتازة لتسيطر منفردة على فلسطين ، ناهيك عن الموقف الصلب من قبل السلطان العثماني في عدم تفريطه بفلسطين رغم محاولات

بريطانيا المتكررة للسيطرة عليها ولو عن طريق اليهود منذ عام ١٨٤٠ ، حين طالبه بالميرستون وزير خارجية بريطانيا انذاك باقامة دولة يهودية في فلسطين - لتشكيل حاجزا بينه وبين اطماع محمد علي باشا القابع في مصر (٣) .

الا ان نتائج تطورات الوضع السياسي الدولي قبيل نهاية الحرب العالمية الاولى ، التي اسفرت عن هزيمة كل من المانيا وحلفائها وخروج روسيا بعد ثورة اكتوبر الاشتراكية ولو مؤقتا من ساحة الصراع الدولي المتمثل بالتنافس الاستعماري مع كل من فرنسا وبريطانيا ، مكن بريطانيا من الالتفاف على اتفاق سايكس لعام ١٩١٦ وتجييره لصالحها (٤) .

لقد استطاعت بريطانيا اذا الخروج من سياسة شد الحبل مع فرنسا لصالحها بعد لعبها بالورقة الصهيونية (من خلال اعطاء وعد بلفور عام ١٩١٧) وتهديد فرنسا باعادة النظر باتفاقية سايكس - بيكو ومصالح فرنسا في المنطقة ان لم توافق على سياسة بريطانيا تجاه الشرق الاوسط (٥) . وهكذا نرى ان بريطانيا تبنت المشروع الصهيوني نتيجة لهذه التطورات لخدمة مصالحها ، آخذة بعين الاعتبار بان اليهود سيضعون امكاناتهم تحت تصرفها .

المرحلة الثانية ١٩١٧ - ١٩٤٨ :

ان أبرز صفات هذه المرحلة تتمثل في :

١ - افشال حركة التحرر والوحدة العربية التي تبلورت من خلال الثورة العربية الكبرى .

٢ - العمل بعد تبني المشروع الصهيوني من خلال وعد بلفور (٢ تشرين الثاني / ١٩١٧) على خلق الكيان الصهيوني ليقف حارسا ومنفذا لاجهاض أي عمل تحرري ووحدوي عربي - من اجل اطالة عمر الهيمنة الاجنبية لاستغلال هذه المنطقة لاقصى الحدود . اما الاداة التنفيذية فكانت الجيوش البريطانية والفرنسية المسلحة ، وقوة المستوطنين الصهاينة بالاضافة الى اصناف الكذب والخداع والمناورات السياسية .

بعد صراع ومخاض لرفض العرب للواقع المفروض عليهم خلال القرن التاسع عشر ، والمتمثل بالتغلغل الاوروبي في بلاد الشام واقتطاع أجزاء من المنطقة العربية في شمال افريقيا وغيرها على ساحل الجزيرة العربية ، اضافة الى رجعية الحكم العثماني ومداراته طوعا أو قهرا لأوامر الساسة الاورويين ضاربا عرض الحائط بكل مطالب الإصلاح الوطنية والعربية ، تشكلت الجمعيات والاحزاب السياسية العربية لايقاف هذه الاخطار . ولكن الدولة العثمانية مارست القمع والاضطهاد والتجوع

ضدها . أما بعد انقلاب جمعية الاتحاد والترقي عام ١٩٠٨ فنرى ان سياستها في تترك العناصر المختلفة في الدولة العثمانية قهرا (الطورانية) قد أعطت للحركة العربية الناشئة دفعا جديدا نحو وجوب الانفصال والتحرر . فقد احس العرب آنذاك بشكل واضح باضطهادهم لكونهم عرباً يراد تصفية هويتهم القومية . وهكذا ازدادت القناعة بالانفصال وليس بالاصلاح . ومن هنا نرى بوادر العمل الوحدوي العربي الاول في تاريخنا الحديث والمعاصر ، من خلال رغبة زعماء العهد والعربية الفتاة في ان يتزعم الشريف حسين بن علي امير مكة ، هذه الحركة ابتداء من عام ١٩١٥ (٦) .

أما اطماع بريطانيا ودهاء سياستها التي لم تكن تخفى على احد ، فقد اجبرت حسين بن علي ، على ان يفكر أكثر من مرة (رغم الحاج بريطانيا واستعدادها لدعم هذه الحركة العربية) قبل ان يقدم على مثل هذه الخطوة . وهكذا كانت المراسلات التاريخية المعروفة بمراسلات حسين - مكماهون (٧) . فبعد التأكيد الخطي من قبل بريطانيا للشريف حسين ، بانها توافق على برنامجها السياسي والذي ينص في جوهره على وحدة واستقلال البلاد العربية في اسيا ، أقدم الشريف حسين بن علي على اعلان الثورة في حزيران من عام ١٩١٦ ، محاولا استغلال ظروف الحرب العالمية . وقد اشترك فيها السوري واللبناني والعراقي والفلسطيني والسعودي والاردني والمصري من خلال حملهم السلاح لتحرير الوطن .

وهكذا نرى ان التطالع لوحدة وحرية العرب تدخل مرحلة جديدة في تاريخ العرب المعاصر . ولكن بريطانيا التي لم يرق لها هذا التطور على الساحة العربية والذي سيتناقض بلا شك مع اطماعها في المنطقة ، لم تدخر جهدا لتحطيم هذه الحركة الناشئة عقب نهاية الحرب ، بعد استغلالها لامكانياتها وفق ما تقتضيه مصالحها خلال الحرب ، ضاربة عرض الحائط بكل الوعود التي قطعتها على نفسها لتسهيل هذه الحركة ودعم طموحها .

أما الوسائل في معالجتها لهذه الحركة فكانت مختلفة عن المرحلة السابقة ومن أهمها :

١ - التآمر على شرعية الثورة العربية الكبرى تحت شعار عدم استطاعتها الايفاء بالالتزامات التي قطعتها على نفسها لقائد هذه الثورة من خلال المراسلات ، متدبرة بالتزامها الدولي الذي اطلق على الاستعمار (الاندباب) والتزامها بتنفيذ ما جاء في وعد بلفور للصهاينة حسب ميثاق عصبة الامم عام ١٩٢٢ .

٢ - الاعتراف بشرعية البرنامج الصهيوني في فلسطين والعمل على بناء الوطن القومي اليهودي فيها . لقد كان هدف بريطانيا من وراء ذلك واضحا ، وهو خلق

قوة جديدة تشاغل الامة العربية ، لكي تتوجه البنادق الى الصدر الصهيوني بدل البريطاني . وقد نجحت بريطانيا في ذلك ولو مؤقتاً . ومما يفسر ذلك - ان عنف الثورة الفلسطينية ورفعها شعار « قطع رأس الافعى وليس الذنب » متمثلاً بالصهاينة قد جاء بعد اكثر من خمسة عشر عاماً من دخول القوات البريطانية أرض فلسطين (٨) .

٣ - العمل على تفكيك العرى الوحودية للحركة الوطنية التي بلغت ذروتها من خلال الثورة العربية الكبرى بعدة طرق أهمها :

أ - تشكيك العرب بقيادتهم لخلق الشرح بين القيادة وتوجهها وأمانتها في قيادة شعبها . اضافة الى اضعاف بريطانيا أو تخليها عن الشريف حسين .

ب - محاولة خلق قيادة بديلة موالية للسلطات المحتلة .

ج - تقسيم المنطقة جغرافياً بين نفوذ انتدابي فرنسي وآخر انجليزي .

٤ - تدريب وتسليح الصهاينة في فلسطين عسكرياً واعدادهم مستقبلاً ليقوموا بخدمة الاهداف الامبريالية بالوكالة في المنطقة .

ان تقسيم الادوار بين هؤلاء الساسة ، خلال فترة الانتداب البريطاني والفرنسي ، وتعاونهم مع الحركة الصهيونية جاء ضد مصلحة القوى الوطنية والتحررية التي كانت موحدة خلال الحرب العالمية الاولى : فبدلاً من أن تعمل على التحرير فقط ، عليها الآن الكفاح على جبهتين وهما : التحرير والوحدة ففي فلسطين ، وبعد أن استقبلت الجماهير الفلسطينية بفرح دخول القوات البريطانية قبيل نهاية الحرب الى بلادها كقوات حليفة ، بدأت الحركة الوطنية العربية في منطقة فلسطين بعد اعلان الانتداب ، تراوح في نظرتها لهذه التطورات من خلال عدم رغبتها في تقبل الواقع الجديد الذي أرادت بريطانيا فرضه على المنطقة ، وبين الخطر الصهيوني الذي يهدد وجودها . ولم تقنعها بلا شك وعود بريطانيا لها ومناوراتها السياسية لتهدئة الحال وفرض سياسة الامر الواقع بتجزئة اللحمة الوحودية لحركة التحرر العربي من خلال تقسيم هذه المنطقة الى نفوذ انتدابي فرنسي وانجليزي . وقد فهم الوطنيون العرب والفلسطينيون آنذاك أن تبديد الحلم الصهيوني البريطاني بتهويد فلسطين لا يمكن ان يتم الا من خلال الإبقاء على العرى الوحودية في النضال ، والاستمرار في النهج الوحودي الذي تبلور من خلال الثورة العربية الكبرى . وهكذا كان ، حيث فهم الخطر المحقق بفلسطين على أنه ليس أكثر من مهمة واحدة من مجمل المهمات التي على عاتق هذه الحركة التغلب عليها ، ويتضح ذلك من خلال مجمل نتائج المؤتمرات العربية السورية عقب نهاية الحرب (٩) .

لكن الاصرار الفرنسي - البريطاني فرض نفسه على أرض الواقع ، وبدأت

الحركة الوطنية الفلسطينية على الرغم من الصراعات الداخلية التي قلصت من ثمار نضالها وحتى قيام الدولة الصهيونية عام ١٩٤٨ تناضل من أجل درء الخطر المباشر واليومي داخل اقليمها مع الاصرار على الاحتفاظ بوحدة العرى الوجودية مع حركة التحرر العربي في مناطق بلاد الشام المختلفة ، والتي كانت الرافد المادي والمعنوي والبعيد الاستراتيجي في مواجهة التحديات التي تعرضت لها فلسطين . كان من نتائج ذلك ان اضطرت بريطانيا الى الاعتراف بفشل سياستها الفلسطينية من خلال كتابها الابيض عام ١٩٣٩ تحت ضغط تطور الظروف الدولية التي قادت الى الحرب العالمية الثانية، حيث استجابت بريطانيا من خلاله - نسبيا - لبعض مطالب العرب (*). لقد اصطدمت الان المصالح البريطانية مع المصالح الصهيونية نتيجة لقوة وصلابة المقاتلين العرب والفلسطينيين على أرض فلسطين في الجزء الثاني من ثلاثينات هذا القرن .

في مثل هذا الواقع بدأت الحركة الصهيونية مستغلة أيضا ظروف الحرب وبمختلف الوسائل المتاحة لديها ، بالضغط على بريطانيا لكي تتخلى عن سياستها المعروفة في كتابها الابيض لعام ١٩٣٩ .

اما نتائج الحرب العالمية الثانية فجاءت لصالح الصهاينة نتيجة لظهور أمريكا كزعيم للعالم الامبريالي بدل بريطانيا ، اضافة الى ان بريطانيا خرجت من الحرب منهكة . وهكذا تبنت أمريكا المشروع الصهيوني محاولة تجييره لخدمة اهدافها ، وهكذا جرت أولى الصدامات المسلحة بين الحركة العربية المتمثلة بتطوع أبناء المنطقة العربية للدفاع عن فلسطين وبين قوى الحركة الصهيونية العسكرية المتمثلة بالهاغانا والمنظمات الارهابية الاخرى .

بعد هذا العرض الموجز ، تدخل المرحلة الثالثة (١٩٤٨ - الوقت الحاضر) ، وهي القسم الرئيس في هذه الدراسة . ويمكن تسمية هذه المرحلة بمرحلة نجاح المشاريع الامبريالية الصهيونية ، التي خطط لها منذ أكثر من قرن مضى كما يمكن تقسيمها الى فترتين :

الاولى : منذ قيام الدولة الصهيونية ١٩٤٨ وحتى نهاية الحرب الباردة في الشرق الاوسط عام ١٩٥٩ .

(*) منها مثلا الفاء قرار تقسيم فلسطين حسب اقتراحات لجنة بيل لعام ١٩٣٦ والموافقة على القامة حكومة وطنية بعد عشر سنوات ، وتحديد اعداد الهجرة اليهودية لفلسطين ب ٧٥ ألف خلال السنوات الخمس القادمة ، اضافة الى تحديد الاماكن التي يسمح لليهود بامتلاك اراضي فيها . وقد رفضت الحركة الصهيونية هذا الكتاب وحاربه . انظر : الكيالي ، عبد الوهاب : تاريخ فلسطين الحديث مصدر سابق ، ص ٢٥٦ - ٢٥٧ .

الثانية : الفترة اللاحقة لعام ١٩٥٩ .

تميزت الفترة الاولى بعدم قدرة المؤسسات الصهيونية على الاستمرار في الحياة لوحدها . ومن هنا بقيت القوى الاوروبية تقوم بدور الحاضنة الرئيسية لتثبيت دعائم مولودها الصغير من خلال التدخلات العسكرية المباشرة بالتعاون مع الجيش الصهيوني الوليد (١٠) .

لقد جاء الدعم الامبريالي المادي والمعنوي للدولة الصهيونية الوليدة من جميع الدول الاوروبية بدون استثناء . وكانت طبيعة هذا الدعم متناسقة مع حجم الانجازات التي حققتها القوى الوطنية العربية على الساحة ، مجتمعة تارة ومتفرقة تارة أخرى . ولكن الهدف كان واحدا وشعاره : لجم توجهات الحركة الوطنية العربية الصاعدة ، للابقاء على الهيمنة الامبريالية على هذه المنطقة . ومن أبرز الدول التي مارست دورها في هذا المضمار بريطانيا بالاضافة الى المانيا الاتحادية وفرنسا وأمريكا . وسنعرض فيما يلي دور كل من هذه الدول بايجاز واصفين في القائمة موقف الاتحاد السوفياتي من ذلك .

بريطانيا :

حاولت بريطانيا ، بعد أن فشلت في كسر ارادة المقاومة العربية وخاصة الفلسطينية في نهاية الثلاثينات ، أن تسترضي الحركة الوطنية العربية ويتجلى ذلك بشكل واضح من خلال استجابتها لبعض المطالب العربية (الكتاب الابيض ١٩٣٩ ، ودعمها لتأسيس الجامعة العربية عام ١٩٤٥) ولكن بريطانيا كانت تقصد من وراء ذلك الا يفلت زمام الامر من يدها وينتقل الى أيدي القوى الوطنية والتحررية الوحودية العربية ، لان ذلك يتعارض مع مصالحها ، ولكي لا يفشل دعمها للمشروع الصهيوني قبل أن توصله الى مرحلة معينة من الاعتماد على نفسه . ولم تكن هذه السياسة جديدة على بريطانيا ، فقد قامت قبلها بطرح مشاريع مماثلة كدول الكومنولث التي ربطت بواسطتها مستعمراتها معها .

وعلينا الا نفعل هنا أن نتائج الحرب العالمية الثانية قد أفرزت تراجعا لامكانيات بريطانيا العظمى ، اذ خرجت الى الساحة قوتان عظيمتان هما أمريكا والاتحاد السوفياتي ، وتراجع دور بريطانيا القيادي الاول . وهكذا بدأت بريطانيا مجبرة تتراجع عن قيادتها لأمريكا ، محاولة في الوقت نفسه اعطاء دور اكبر للصهاينة من أجل تنفيذ مشاريعها في فلسطين معيدة عقارب الساعة الى الوراء من خلال اقتراحها تقسيم

فلسطين بين العرب واليهود - هذا الاقتراح الذي رفض عام ١٩٣٨ (*) . أما الطريقة فكانت من خلال تسليمها تقرير مصر فلسطين الى هيئة الامم وريثة عصبة الامم بقيادة الدول الامبريالية ، ناهيك عن الدعم المادي للعصابات الصهيونية على أرض فلسطين التي أرادت لها بريطانيا أن تحل مكانها (١١) .

ولم تتخل بريطانيا بعد ذلك بالطبع عن الوقوف عسكريا الى جانب العصابات الصهيونية ، أو لجم القوى العسكرية العربية والفلسطينية في مواقع كثيرة حين كانت هذه القوى تكاد تهزم القوى العسكرية الصهيونية ، نذكر هنا مثلا تسليم حيفا للعصابات الصهيونية عام ١٩٤٨ ، وقيادتها للهجوم الثلاثي على قناة السويس عام ١٩٥٦ .

فرنسا :

على الرغم من نتائج الحرب العالمية الثانية على فرنسا ، الا ان هذه الدولة الاستعمارية كانت قد احتضنت ومنذ عهد نابليون فكرة اقامة الدولة اليهودية على أرض فلسطين . وكما دخلت قضية اقامة دولة يهودية على أرض فلسطين اطار مصلحة فرنسا الاقتصادية والاستراتيجية والتنافسية مع بريطانيا في مرحلة ما قبل الحرب العالمية الثانية ، فقد دعمت فرنسا عقب الحرب العالمية الثانية الدولة الصهيونية لنفس الاسباب وبكل امكاناتها وبخاصة العسكرية ، اذ كان تسليح الجيش الصهيوني حتى عام ١٩٦٧ يعتمد بالدرجة الاولى على فرنسا . ويكفي في هذا الصدد أن نشير الى قول الحكومة الفرنسية (الاسرائيلية) عام ١٩٥٨ « ما دام يوجد خبز لفرنسا فهناك خبز لاسرائيل » *

أما مصلحة فرنسا في ذلك فقد تمثلت في ضرب القوى الوطنية والتحررية العربية عن طريق اسرائيل وبالتعاون معها . ولا أدل على ذلك من مشاركة فرنسا في الهجوم الثلاثي على قناة السويس لضرب مصر عبد الناصر ، الذي قدم الدعم والمساندة لحركات التحرر العربي في شمال افريقيا وخاصة للجزائر .

(*) أرسلت بريطانيا لجنة ملكية برئاسة اللورد بيل (Pel) عام ١٩٣٦ للبحث في الاسباب التي قادت الى اضراب عام ١٩٣٦ ومطالب العرب . وفي عام ١٩٣٧ أوصت بتقسيم فلسطين بين العرب واليهود . وبناء على ذلك أرسلت عصبة الامم لجنة (وود هيد) الفنية لتنفيذ مشروع التقسيم ، حيث قاطعها العرب بشدة ، مما أجبرها على رفع توصية تؤكد على استحالة تقسيم فلسطين ، وطوي مشروع التقسيم بناء على ذلك . وفي ذلك الوقت كانت الثورة الفلسطينية المسلحة في أوج عنفوانها .

(*) انظر : نوفل ، أحمد سعيد : العلاقات الفرنسية العربية ، الكويت ١٩٨٤ ، ص ٩٥ .

المانيا الاتحادية :

على الرغم من الفوائد التي حصلت عليها الحركة الصهيونية خلال العهد النازي لدعم مشروعها الاستعماري الاستيطاني في فلسطين ، وعلى الرغم من هزيمة ألمانيا في الحرب العالمية الثانية ، إلا أن الدعم الألماني للصهاينة لم يتوقف . أن شطر ألمانيا إلى : ألمانيا الديمقراطية ، والاتحادية - قد ربط كل منهما بحلف مناهض للشطر الآخر من الوطن الألماني . فبينما اتجهت ألمانيا الديمقراطية بتحالفاتها مع الكتلة الشرقية (حلف وارسو) لدعم الحق العربي في فلسطين ، نرى أن مصالح ألمانيا الاتحادية وارتباطها بالدول الإمبريالية قد أفرز سياسة دعم (دولة إسرائيل) . وتدعي ألمانيا الاتحادية أن دعمها (لإسرائيل) هو من أجل التعويض عما لحق باليهود من أذى في ظل الحكم النازي (Wiedergutmachung) (١٢) .

ومن هنا نرى الدعم السياسي والمادي اللا محدود من قبل ألمانيا الاتحادية (لإسرائيل) ، الذي بلغت قيمته عشرات الملايين من الدولارات حتى مطلع الثمانينات ليس فقط على شكل عملة سائلة وإنما أيضا على شكل بناء مشاريع ومرافق اقتصادية منها : مد أنابيب المياه من شمال فلسطين إلى النقب بطول ٢٧٠ كم ، وبناء شبكة الكهرباء القطرية الصهيونية ، التي كانت القاعدة الأساسية التي اعتمدتها (إسرائيل) في تطوير ذاتها صناعيا (١٣) . وهذا فضلا عن عضوية ألمانيا الاتحادية في حلف الناتو ، الذي يشكل مظلة عسكرية للكيان الصهيوني ، فقد تدفقت المساعدات العسكرية من قواعد هذا الحلف في ألمانيا خلال حرب أكتوبر ١٩٧٣ لانقاذ الكيان الصهيوني التي كانت قواه آنذاك على وشك الانهيار .

الاتحاد السوفياتي :

أن بروز الاتحاد السوفياتي كقوة عالمية عظمى لها مصالحها في المنطقة عقب الحرب العالمية الثانية قد تجسد بادئ الأمر بدعمه لمشروع تقسيم فلسطين عام ١٩٤٧ وقيام الدولة الصهيونية عام ١٩٤٨ (١٤) . وكان الاتحاد السوفياتي يأمل من خلال ذلك إيجاد موطئ قدم له في المنطقة ، وهذا ما لم يتحقق حتى قيام الثورة الناصرية في يوليو ١٩٥٢ .

ولكن نظرة الاتحاد السوفياتي بعد الحرب العالمية الثانية من خلال إيدولوجياته ، لمقاومة الإمبريالية وكسب الحلفاء في صراعه معها ، قد أوجد تقارباً مع الحركة الوطنية القومية العربية . لقد رأى الاتحاد السوفياتي أن تكثيف العلاقة مع حركة التحرر العربي عن طريق دعم الثورة الناصرية والسورية والعراقية فيما بعد ، هو نضال ضد

اعدائه الرئيسيين . وهكذا ابتدأت منذ قيام الثورة الناصرية (يوليو ١٩٥٢) العلاقات
تزداد تقارباً وتحسناً .

ويزداد موقف الاتحاد السوفياتي في الفترة اللاحقة وضوحاً من خلال دوره في
الحرب الباردة - والذي سنتطرق اليه لاحقاً .

أمريكا :

انتهى المنهج السياسي لأمريكا الذي قرره الرئيس الأمريكي ويلسون بعد اعلانه
عن (مبادئه ال ١٤ عام ١٩١٨ المتضمنة حق تقرير المصير للشعوب المستعمرة وانسحابه
من عصبة الامم في نفس العام) بشكل نهائي عند انضمامها لدول الحلفاء خلال الحرب
العالمية الثانية ، وبدأت المصالح الأمريكية ترتبط بمصالح الحلفاء . أما توجه
الحركة الصهيونية للضغط على أمريكا بعد مؤتمر بلتيمور عام ١٩٤٢ فقد نجح قبيل
انتهاء الحرب في تشكيل ما يسمى « باللوبي الصهيوني » الذي ساعد على دعم أمريكا
للمشاريع الصهيونية .

وهكذا وبعد بروز أمريكا عقب نهاية الحرب كدولة عظمى تضطلع بالدور الذي
كانت تؤديه بريطانيا وفرنسا قبل الحرب من خلال قيادتها للعالم « الحر » ، وجدت
الحركة الصهيونية رافداً جديداً لاستغلاله لتنفيذ مآربها . كما أن أمريكا وجدت في
الحركة الصهيونية الحليف الذي عليها دعمه للحفاظ على مصالحها في الشرق
الاطوسط . فاذا كانت أمريكا قد شغلت مكان فرنسا الاستعماري في فيتنام عام
١٩٥٤ ، فقد بدأت تدريجياً - بعد احتضانها للدولة الصهيونية عام ١٩٤٧/١٩٤٨ ،
تشكل الحاضنة الجديدة للمحافظة عليها .

لقد حاولت أمريكا بعد الحرب العالمية الثانية انتهاج سياسة المحافظة على
مصالحها الاقتصادية في المنطقة ، وفي الوقت نفسه إبعاد بريطانيا عنها - دون الاصطدام
المباشر مع بريطانيا كحليفة لها (١٥) .

أما الحركة الوطنية الصاعدة التي أبدت وبخاصة منذ تسلم عبد الناصر زمام
الحكم في مصر عداها لكل توجهات الهيمنة الامبريالية الغربية على المنطقة، وعداءها
للالحلاف التي ترأستها أمريكا كحلف بغداد ، فقد حاولت أمريكا بادية الامر احتواءها
عن طريق دعمها لمصر مقابل الطلب من عبد الناصر أن ينهي عداها مع اسرائيل (١٦) .

ومثل الهجوم الثلاثي على مصر عبد الناصر في مطلع تشرين الثاني عام ١٩٥٦ قمة
المحاولات الانجليزية والفرنسية والصهيونية لإجهاض الثورة الناصرية وتوجهاتها
التحررية والوحدية . وقد أشرنا فيما سبق لاطماع فرنسا وبريطانيا . ولكن الدولة

الصهيونية وجدت نفسها عاجزة عن القيام بالدور الذي خلقت للقيام به ، فبادرت فرنسا وبريطانيا لدعمها . وقد عبرت الصهيونية عن موقفها هذا من خلال النداء الذي وجهته الى دول وشعوب أوروبا ، نشرته آنذاك وسائل اعلامهم وهو يقول : « ان تمسك عبد الناصر بمواقفه المتطرفة يهدد أمن الوطن القومي للشعب اليهودي ... ويجب على جميع اصدقاء اسرائيل التضامن معها » (١٧) .

وعلىنا الاشارة هنا ، الى أن التوقيت الذي اختارته (اسرائيل) لهجومها على مصر بالتنسيق مع فرنسا وانجلترا ، جاء بعد نجاح القوى الوحودية في الاردن في الانتخابات الديمقراطية ، اذ قامت (اسرائيل) في ١١ تشرين الاول بهجومها على الاراضي الاردنية واقدمت ، في اليوم الذي هاجمت فيه مصر (٢٩ تشرين اول عام ١٩٥٦) على مجزرة كفر قاسم بعد أن كانت قد أعلنت التعبئة العسكرية العامة قبل ذلك بوقت قصير (١٨) .

ولكن المقاومة البطولية للشعب العربي في مصر بتضامن من جميع القوى الوطنية (باشكال متفاوتة) في المنطقة العربية وبدعم سوفياتي - امريكي استطاعت احتواء هذا الهجوم .

لقد باتت الفرصة مواتية الآن لامريكا لتقود القوى الطامعة بهذه البلاد في ٥ كانون الثاني من عام ١٩٥٧ ، عند طرح ايزنهاور مبداه على الكونغرس طالباً منه « اعطاء المساعدات الاقتصادية والعسكرية الى جميع الاقطار التي ترغب في الاستفادة منها في تلك المنطقة على أن يفهم أن هذه المساعدات قد تشمل استخدام قوات امريكية (١٩) .

وكان ايزنهاور يقصد من ذلك ابعاد الاتحاد السوفياتي عن المنطقة للاستفرا د بها . وقد اعتبرت مصر وسوريا أن هذه السياسة الامريكية تهديد لهما ، فازدادتا قربا من الاتحاد السوفياتي وتذرعت واشنطن بذلك من أجل تبرير زيادة تقربها من (اسرائيل) وهكذا دخلت منطقتنا فيما يسمى بالحرب الباردة التي قادها الاتحاد السوفياتي وامريكا ، كل ضد الآخر وحلفائهما . ومن أبرز معالم ذلك : ارسال الاتحاد السوفياتي مزيدا من المعونة لمصر وسورية اللتين ازدادت معارضتهما لحلف بغداد . وعلى اثر ذلك قامت تركيا بعد تعبئة قواتها بمناورة على الحدود السورية . وفي ١٠ ايلول نددت موسكو بهذا الاستفزاز لسورية وهددت بالقيام بعمل عسكري ضد تركيا . فرد عليه دالاس في ١٩ ايلول قائلاً : « ان تركيا تواجه الآن خطراً متزايداً بسبب نمو الاسلحة المضطرد في سورية » (٢٠) .

وفي عام ١٩٥٨ وصل الوضع مرة أخرى الى درجة الغليان حين قامت الثورة في العراق ضد النظام الموالي للغرب هناك واحد اعضاء حلف بغداد ، وتدخلت القوات الامريكية والبريطانية لدعم حكومتي الاردن ولبنان نتيجة للاضطرابات التي حدثت

فيهما ، مما أدى لتخوف سوريا والاتحاد السوفياتي ، الا ان هذه التطورات انتهت في نهاية شهر آب من ذلك العام حين صوتت الدول العربية و (اسرائيل) في الامم المتحدة بالاجماع على ابعاد الحرب الباردة عن المنطقة - وانسحبت القوات الاجنبية . وبذلك فسخ المجال ابتداء من عام ١٩٥٩ للنزاع بين العرب و (اسرائيل) للظهور بعد عام ١٩٤٨ (٢١) .

الفترة اللاحقة لعام ١٩٥٩ : تميزت هذه الفترة بالازدياد النوعي والكمي لقوة الدولة الصهيونية بالاضافة الى ازدياد الدعم السياسي والمادي الذي قدمته الدول الغربية لها . لقد ارادت اوربا وامريكا من خلال سياستها عقب الحرب الباردة تحقيق عدد من الامور أهمها :

١ - ابعاد الاتحاد السوفياتي عن المنطقة ، فهي التي تتحمل مسؤولية دخوله اليها من خلال تدخلاتها العسكرية المستمرة (سواء في حرب السويس ١٩٥٦ ، أو خلال الحرب الباردة) .

٢ - خلق الدولة العميلة لها - التي تنفذ مصالحها ، ومن أجل عدم اثاره شعور العرب من التدخل العسكري الفظ كما كان سابقا ، ولكي لا تتضرر مصالحها في المنطقة ولتبقى مقبولة من العرب . أما الدولة الصهيونية فهي التي ستحمي مصالحها الماثلة والمحتملة في المنطقة بقوة السلاح الغربي .

وهكذا نرى ان القوى الغربية ، وبخاصة امريكا قد اخذت العبر واستفادت منها في التوجه الجديد . وكانت علامات ذلك قد اتت من فيتنام بعد معركة ديان بيان فو ، ومن الجزائر خلال حرب الاستقلال ، ناهيك عن نتائج الهجوم الثلاثي على قناة السويس وما افرزته تدخلاتها العسكرية المباشرة من ايجاد موطئ قدم للاتحاد السوفياتي في المنطقة . ولكن المهمة الرئيسية في هذا المضمار والتي مارست امريكا دورا أساسيا في تحجيمها ، تتمثل في محاولاتها تفتيت أو اصر العمل العربي المشترك والتضامن الذي برز الى الوجود خلال هذه الفترة من خلال : حرب ١٩٤٨ في فلسطين وموقف العرب سواء الذين يحسبون على صف امريكا ، أو الذين جعلتهم هذه السياسة اعداء لها في المنطقة بعد الهجوم الثلاثي على قناة السويس .

لقد اعتبر الشارع العربي من المحيط الى الخليج ان انتصار مصر على الهجوم الثلاثي عام ١٩٥٦ ، انتصارا لهم جميعا . وبدا لهم واضحا ان العمل المشترك والوحدة العربية هي المقومات الاساسية لانجاز طموحهم في الوحدة والاستقلال واعادة الحقوق المفتصبة لشعب فلسطين . ويؤكد لنا نشاط الفلسطينيين ذلك من خلال انضمامهم للعمل في الاحزاب السياسية العربية - وخاصة القومية منها - (القوميون العرب أو حزب البعث العربي الاشتراكي ، ودعم التيار الناصري) .

ولم تكن (لاسرائيل) ولا القوى الحليفة لها غافلة عن مثل هذه التطورات ، وخاصة بعد نجاح ثورة ١٩٥٨ في العراق وقيام الوحدة بين سوريا ومصر (الجمهورية العربية المتحدة ١٩٥٨ - ١٩٦١) ، فبدأت تعمل على افشالها من الداخل وضربها من الخارج .

خلال هذه الفترة التاريخية من حياة منطقتنا بدأت الدولة الصهيونية تشكل بالفعل راس الحربة في ضرب طموحات امتنا العربية بالقوة العسكرية . فكلما ازداد نجاح العمليات العسكرية الصهيونية - كان يرافقها احباط يتناسب وحجم النجاحات الصهيونية من جانب العرب . ويكفي ان أقول في هذا الصدد ان عدد العمليات العسكرية التي قامت بها (اسرائيل) منذ عام ١٩٤٨ وحتى عام ١٩٦٧ بلغ أكثر من ٣٨ عملية عسكرية اعتبرت الامم المتحدة اعتداء صارخا على العرب وذهب ضحيتها عشرات الآلاف من الضحايا العرب والفلسطينيين (٢٢) . هذا عدا سياستها تجاه العرب الخاضعين لسلطتها .

لقد توج الدور العسكري الصهيوني خلال حرب عام ١٩٦٧ ، حين هزم ثلاث دول عربية . ولم تقتصر نتائج هذه الهزيمة على الجانب المادي (تدمير القوة العسكرية الضاربة لكل من مصر وسوريا والاردن واحتلال اراضي عربية وبقية فلسطين) وانما تعدته الى هزيمة نفسية واحباط عكس نفسه على مجمل علاقات الدول العربية ببعضها وانتقلت من قضية اقليمية (بين العرب والصهاينة) لتأخذ ابعادا اخرى .

وعلى المستوى الدولي ، حاولت جميع امم الارض التدخل في التغيرات التي طرأت على الارض بعد عام ١٩٦٧ ، واتفقت جميعها على قرارات مجلس الامن الدولي رقم ٢٤٢ ، و ٣٣٨ كأساس لحل النزاع وعلى أساس عدم جواز احتلال الارض بالقوة ومقايضة الارض بسلام . ولكن الحقيقة القائلة بأن خيار السلم يجب أن تحميه قوة السلاح لم تجد تجسيدا فعليا عند العرب وظل الوضع متوترا على جبهات القتال المختلفة .

وقد استطاعت الدولة الصهيونية ممتطية جوادها الحربي ، نقل الصراع بينها وبين العرب بمساعدة امريكا لها ، الى داخل المنطقة العربية ، ليس فقط من خلال ضربها العمق المصري مثلا او الاغارة على المدن والقرى العربية في الاردن وسوريا ، بل من خلال مشاريع التسوية السياسية التي حملها الدبلوماسيون الامريكان في حقائبهم وطافوا بها المنطقة والتي ساعدت أيضا على تفريق الصفوف العربية بين موافق ومعارض . ومثال ذلك مشروع روجرز لعام ١٩٧٠ (٢٣) وما نتج عن ذلك من مظاهرات واتهامات وتناحر بين الصفوف العربية .

وكانت حرب ١٩٧٣ اذ حقق العرب فيها انتصارا عسكريا محدودا أرادوا من

خلاله خدمة طموحاتهم السياسية المتمثلة باسترجاع حقوقهم المشروعة انطلاقاً من قاعدة : « أن السلام يجب أن تحميه قوة السلاح » رغم أن السلام المنشود لا يحقق جميع حقوق عرب فلسطين .

لقد تنبه قادة الدولة الصهيونية الى جدية هذا الامر ، وبدأوا بالتنسيق مع حلفائهم وخاصة الامريكان لبناء قوة الردع العسكري - غير متناسين في الوقت نفسه سلاح تفكيك الجبهة العربية عن طريق المناورات السياسية الى أن تحقق لهم ذلك باخراج مصر السادات من ساحة الصراع مع العدو عن طريق « سلام كامب ديفيد » .

وهكذا بدأت الدولة الصهيونية من جديد في عسكرة مجتمعاتها بشكل لم يسبق له مثيل في تاريخ الامم - سوى ما جرى في العهد النازي ، وفي توجيه الصناعة (الاسرائيلية) نحو الانتاج الحربي . فحسب تقدير معهد الدراسات الاستراتيجية بتل أبيب عمل ٢٠٪ من (الاسرائيليين) في قطاع صناعة الاسلحة التي تشكل الآن اكثر من خمس صادرات الدولة الصهيونية (٢٤) .

ويكفي في هذا الصدد ان نذكر بان باقي الانتاج الحربي يصرف في السوق المحلية ويضمن هذا الانتاج ٩٠٪ من حاجة (اسرائيل) للذخيرة والمتفجرات و ٥٠٪ من حاجة وزارة الدفاع من الالكترونيات (وتهدف الخطة الموضوعة حالياً الى زيادة ذلك ليصل الى ٧٠٪) . وقد اعلن موشيه ديان في أعقاب حرب عام ١٩٧٣ بان (اسرائيل) اشترت اسلحة بقيمة ٢٥٠ مليار ليرة (اسرائيلية) منها ٤٨٪ من الانتاج المحلي ويشمل ذلك الطائرات والصواريخ والدبابات (٢٥) .

وحسبنا ان نقول في هذا السياق ، انه على الرغم من الازمة الاقتصادية الخائفة التي يعيشها الكيان الصهيوني في السنوات الاخيرة ، فان نتاج السلاح وبخاصة المتطور منه بدعم من امريكا لن يمس بسوء . ومثال ذلك طائرة « الليفي » التي تعمل (اسرائيل) بدعم امريكي على انتاجها ورغم المبالغ الضخمة التي تستهلكها في انتاجها في ظل الازمة الاقتصادية الحالية . ولم يمس من جراء ذلك على الإطلاق أي من الـ ٨٠٠ مصنع من مصانع السلاح (الاسرائيلي) اضافة الى الخطط الموضوعة لتطوير وتعديل الاسلحة الموجودة التي يربو عددها على ٧٠٧ عمليات تطوير وتعديل (٢٦) .

وهكذا نستطيع أن نقول ان اسرائيل مستعدة لتقليل عدد ارغفة الخبز ، ولكنها غير مستعدة لتقليل عدد الرصاصات لاي جندي صهيوني في جعبته ، على الرغم من (سلام كامب ديفيد) ، وعلى الرغم من تمزيق وحدة العرب الفعلية ، التي اسهمت القوة العسكرية الصهيونية ايضا في تمزيقها .

ويكفي ان نذكر هنا ان مشاريع السلام التي طرحت بعد عام ١٩٧٣ تميزت بأنها جاءت من قبل شخصيات سياسية قيادية من أصف الاول مثل : مشروع كارتر ،

د. نظام عزت العباسي مشروع ريفان ، مشروع مناحيم بيغن (٢٧) مرورا بمشروع السلام العربي الذي اجازته مؤتمر قمة فاس العربي .

وهكذا نرى ان الازدياد المضطرد للقوة العسكرية الصهيونية ، يأتي مترافقا وفاعلا مع طرح مشاريع السلام - بشكل أساسي من قبل امريكا واسرائيل ، كل ذلك من اجل تفتيت العرى الوحدية للتضامن الذي حققه العرب من خلال حرب تشرين عام ١٩٧٣ ، فقد جاءت البداية من خلال الحرب الاهلية في لبنان عام ١٩٧٥ وتوجت بزيارة السادات للقدس ، عندما خرجت من ساحة الصراع اقوى قوة عربية بعد اتفاقات كامب ديفيد ، وبقرار عربي اتخذته قمة بغداد .

وقد نشط الجيش الصهيوني بعد ذلك مستفردا بالقوى العربية الواحدة تلو الاخرى ، فبدأها بضرب المفاعل النووي العراقي عام ١٩٨٠ (٢٨) بعد أن شاغلت قوى الاعداء عمق الجبهة الشرقية المتمثلة بالجيش العراقي وامكانيات العراق الضخمة في حرب الاستنزاف التي ما زالت مستمرة ، ناهيك عن اسفاده بقوات الثورة الفلسطينية في هجومه على لبنان عام ١٩٨٢ . ان الضربة العسكرية التي اقدمت عليها (اسرائيل) لتدمير المفاعل النووي العراقي لم تكن مجرد عملية عسكرية عادية ، ولكن ابعادها تفوق في استراتيجية العمل الصهيوني بالتوافق مع اعداء هذه الامة ، والعاملة على تدمير اي توجه يراد به بناء القوة الذاتية لهذه الامة مهما كانت بعيدة عن ساحة التماس المباشر مع العدو .

وهكذا نرى مدى فاعلية التهديد الذي تشكله قوة العدو العسكرية في تمزيق امن الدول العربية منفردة أو أمن الامة العربية في طموحها القومي ، على الرغم من ان هذا التهديد الخارجي يجب ان يكون من اهم الحوافز لتحقيق وحدة هذه الامة ، وعلى الرغم من كونه ما زال ماثلا ويزداد خطره يوما بعد يوم .



- (١) انظر : أنطونيوس ، جورج : يقظة العرب ، بيروت ط ٦ ١٩٨٠ ، ترجمة ناصر الدين الأسد واحسان عباس .
- أيضا : جراد ، عدنان : الحكم المصري في سوريا ١٨٣١ - ١٨٤٠ ، رسالة ماجستير (غير منشورة) ، الجامعة الاردنية ، ١٩٧٩ .
- (٢) انظر : العباسي ، نظام : السياسة الداخلية للحركة الوطنية الفلسطينية في مواجهة الانتداب والحركة الصهيونية ، عمان ١٩٨٤ ص ٥٧-٥٨ .
- (٣) انظر : الخولي ، حسن صبري : سياسة الاستعمار والصهيونية تجاه فلسطين ، القاهرة ١٩٧٣ ص ١٤ .
- كان أحد البنود المقترحة على مؤتمر لندن عام ١٨٤٠ ، بند يتعلق « بامكانية انشاء دولة يهودية في فلسطين لحماية الشرق العربي من خطر أي محاولة وحدوية جديدة تنبع من مصر ... » .
- انظر : محمود ، أمين عبد الله : مشاريع الاستيطان اليهودي منذ قيام الثورة الفرنسية حتى نهاية الحرب العالمية الاولى ، سلسلة عالم المعرفة ، عدد ٧٤ / شباط ١٩٨٤ ، ص ٦٥ - ٦٦ الكويت .
- (٤) العباسي ، مصدر سابق صفحة ٣٣ - ٣٤ .
- (٥) انظر : نوفل ، أحمد سعيد ، العلاقات الفرنسية العربية من خلال موقف فرنسا من القضية الفلسطينية ، الكويت ١٩٨٤ ص ٢٨ .
- (٦) انظر الموسى ، سليمان : امارة شرق الاردن ١٩٢١ - ١٩٤٦ ، عمان ١٩٩٠ ، ص ٢٧ .
- (٧) حول المراسلات ، انظر : الموسى ، سليمان : المراسلات التاريخية ، عمان ١٩٧٣ ط ١ .
- (٨) Al - Abbasi, Nazam : Die Palas - tinensische Freiheitsbewegung im Spiegel, ihrer Presse 1928 - 1945 , Bamberg 1981 , S. 9 .
- (٩) انظر : Al - Abbasi, Ebd
- (١٠) انظر : باون كولن وموني بيتر : من الحرب
- الباردة حتى الوفاق ، ص ٣٢٢ - ٢٢٣ .
- ترجمة صادق عودة عمان ١٩٨٤ .
- (١١) حول الدعم البريطاني لليهود انظر مثلا : خلة ، كامل محمود : فلسطين والانتداب البريطاني ١٩٢٢ - ١٩٣٩ ، بيروت ١٩٧٤ ، ص ١١٥ ، ص ١٢١ ، ص ١٢٢ .
- الكياي ، عبد الوهاب : تاريخ فلسطين الحديث ، بيروت ط ٨ ، ١٩٨١ ، ص ٣٠ ، ص ٣٢٦ ، الروسان ، ممدوح : فلسطين والصهيونية ، عمان ١٩٨٣ ، ص ١٤٤ .
- الجندي ، ابراهيم رضوان : سياسة الانتداب البريطاني الاقتصادية في فلسطين ١٩٢٣ - ١٩٣٩ ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٨٥ .
- (١٢) زيادة على ذلك انظر ، العباسي ، نظام : العلاقات الصهيونية النازية وأثرها على فلسطين وحركة التحرر العربي ، الكويت ١٩٨٤ .
- (١٣) المصدر السابق ص ٤٨ - ٥٠ .
- (١٤) انظر مثلا : الروسان ، مصدر سابق .
- (١٥) انظر النتشة رفيق شاعر : الاستعمار وفلسطين عمان ١٩٨٤ ، ص ٢٢٧ - ٢٧٦ .
- Mojcher , Helmut : Die Politik und das öL im Naben, Osten Stuttgart 1980, S. 211 - 215
- باون وكولن ، مصدر سابق ص ٢٢٠ - ٢٢٨ .
- (١٦) انظر : Frankfurter - Heft , 2. Teil . Unter Den Titel : Apell Zur Solidarität mit Israel , S. 337 .
- انظر : Schutler , H. w : Diplomatie der Versöhnung, Stuttgart 1966, S. 337 - 338 .
- Haikal, M. H: Das Kairo - Dossier, Wien 1972, S. 110-112
- باون وكولن ، مصدر سابق ص ٢٢٢ .
- (٢٠) المصدر السابق .
- (٢١) المصدر السابق ص ٢٢٢ - ٢٢٣ .

- (٢٢) انظر في هذا الصدد الدراسة التي أعدها ربيع أبو عبدة لصحيفة صوت الشعب الاردنية ونشرت على حلقتين تحت عنوان : « وقائع من الإرهاب الصهيوني من عام ١٩٣٧ - ١٩٨٠ العدد ٤ كانون الاول ، ٥ كانون الاول ١٩٨٤ .
- (٢٣) زيادة حول مشاريع السلام انظر : ياسين ، عبد القادر : المبادرات السلمية لتسوية الصراع العربي الاسرائيلي ١٩٤٧ - ١٩٨٢ ، شؤون عربية عدد ٣٣/٣٤ لعام ١٩٨٣ ص ٢٧٦ - ٢٨٣ .
- (٢٤) انظر صحيفة القبس الكويتية بتاريخ ١٩٨٤/٤/٨ .
- (٢٥) أبو النملو حسين : الصناعة الاسرائيلية ، بيروت ١٩٧٨ ، ص ٣٠ - ٣٤ .
- (٢٦) انظر المصدر السابق ص ١٧١ .
- (٢٧) انظر : شوفاني ، الياس : مشاريع التسوية الاسرائيلية ، بيروت ١٩٧٨ ص ٣٠ - ٣٤ .
- (٢٨) زيادة على ذلك انظر : يعنى محمد زكي : الاختيارات المتاحة أمام الدول العربية لمقابلة التهديد النووي الاسرائيلي في ضوء تدمير المفاعل العراقي (شؤون عربية عدد ٣٥ / كانون الثاني ١٩٨٤) ص ١٣٢ - ١٤٦ .

